من الدستور الإلهي للبشرية
القرآن الكريم

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ [البقرة: 143].

﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ 15 يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [المائدة: 15، 16].

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: 153].

﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [النحل: 89].

﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الجاثية: 18].

﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ 7 أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ 8 وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ﴾ [الرحمن: 7 – 9].

* * *

من مشكاة النبوة الخاتمة

من أقوال الرسول ﷺ:

عن سفيان بن عبد الله الثقفي، قال: قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا غيرك، قال: «**قل: آمنت بالله، ثم استقم**». رواه مسلم.

عن حنظلة الأسيدي، قال: لقيني أبو بكر، فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قال: قلت: نافق حنظلة، قال: سبحان الله ما تقول؟ قال: قلت: نكون عند رسول الله ﷺ، يذكرنا بالنار والجنة، حتى كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ، عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات، فنسينا كثيرًا، قال أبو بكر: فوالله، إنا لنلقى مثل هذا، فانطلقت أنا وأبو بكر، حتى دخلنا على رسول الله ﷺ، قلت: نافق حنظلة يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «**وما ذاك؟**» قلت: يا رسول الله، نكون عندك، تذكرنا بالنار والجنة، حتى كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عندك، عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات، نسينا كثيرًا، فقال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده، إن لو تدومون على ما تكونون عندي، وفي الذكر، لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة**» ثلاث مرات. رواه مسلم.

عن عائشة رضي الله عنها: «ما خُيِّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما، ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تُنْتَهك حرمة الله، فينتقم لله بها». متفق عليه.

***

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أحمدك ربي حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، كما ينبغي لجلال وجهك وسابغ نعمك. وأصلي وأسلم على محمد عبدك ورسولك، ورحمتك المهداة للعالمين، وعلى ما دعا بدعوته واهتدى بهداه إلى يوم الدين.

«أما بعد» فمنذ بضعة عشر عامًا كنت شرعت أكتب عن «حتمية الحل الإسلامي» في مواجهة الأصوات التي تعالت في مصر وفي العالم العربي حينذاك، تنادي بما سمّوه: «حتمية الحل الاشتراكي».

وكان من الأبواب التي قررت كتابتها: باب بعنوان: «خصائص الحل الإسلامي» أخذ يطول ويمتد، حتى أصبح - بمساحته التي انتهى إليها – جديرًا أن ينفرد به جزء من أجزاء سلسلة «حتمية الحل الإسلامي».

ولكني عند التأمل والتحقق، وجدت أن هذه الخصائص، ليست إلا خصائص الإسلام ذاته. ولعل الأَوْلى بها أن تفرد في كتاب مستقل عن تلك السلسلة التي لها طابع الرد أو المواجهة، ليبقى للكتاب طابعه الثابت الدائم.

ثم إني منذ حوالي خمس سنوات كنت قد دعيت إلى «ندوة التشريع الإسلامي التي عقدت بمدينة البيضاء في ليبيا الشقيقة، بدعوة من الجامعة الليبية، وبإشراف كلية الدراسات الإسلامية واللغة العربية بالبيضاء، وذلك لإلقاء بحث تحت

عنوان: «الشريعة الإسلامية صالحة للتطبيق في كل زمان ومكان»[1].

وكان من الموضوعات التي فرضت نفسها عليَّ، لتأييد صلاحية الشريعة وخلودها: موضوع «خصائص الشريعة الإسلامية» الذي تبين لي عند التوغل في كتابته أنه جدير - أيضًا - أن يستقل به كتاب.

ثم رجحت فيما بعد أن أدمج خصائص الشريعة - أو التشريع - في الخصائص العامة للإسلام كله، بوصفه عقيدة وعبادة وخلقًا وتشريعًا.

وعلى هذا استقر رأيي، وإن كان هناك من المتصلين بي، من لا يزال يرى إفراد خصائص الشريعة بالنشر مستقلة؛ لأن كثيرًا من المثقفين المشتغلين بالفقه والقانون، يهمهم الاطلاع على هذا الجانب خاصة.

وقد يعوقهم عن الاستفادة به، على الوجه الأكمل، اندماجه في الخصائص العامة التي قد لا يلتفت بعضهم إليها كثيرًا، وقد أفكر في ذلك فيما بعد، إذا يسر الله تعالى.

ولما أُنشئت كليتا التربية للمعلمين والمعلمات في قطر، ونيط بي تأسيس قسم الدراسات الإسلامية، وتدريس مادة «الثقافة الإسلامية» لجميع أقسام الكليتين، وكان ضمن منهج هذه المادة «خصائص الإسلام العامة» كانت فرصة لي لإنضاج ما كتبته من قبل وإعداده للنشر.

هذا، وكان الشهيد سيد قطب: قد أخرج - وهو في سجنه - كتابه القيم:

---

(1) نشره المكتب الإسلامي في بيروت بعنوان: شريعة الإسلام خلودها وصلاحها للتطبيق في كل زمان ومكان، وذلك بعد توسيع وتعديل في البحث الأصلي.
ونشرته مكتبة وهبة بالقاهرة بعنوان: شريعة الإسلام صالحة للتطبيق في كل زمان ومكان.

«خصائص التصور الإسلامي»، وهو – كما يبدو من عنوانه – يُعنَى بجانب واحد من جوانب الإسلام الرحب، وهو جانب التصور والاعتقاد.

أي ما يوضح خصائص الفكرة الكلية للإسلام، عن الله والكون والحياة والإنسان.

أما خصائص المنهج أو المذهب أو «النظام» الإسلامي كله – بما في ذلك العقائد والعبادات والأخلاق والشرائع – فلم يكن ذلك هدفه في الكتاب، وإن عرض لشيء منه في بعض الأحيان، تبعًا لا قصدًا.

لهذا كان هذا الكتاب تتمة لكتاب الشهيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولا عجب أن اقتبست بعض العناوين الرئيسية منه، مثل: الربانية، والشمول، والواقعية، والتوازن، وإن لم ألتزم تفسيره لها تمامًا. فقد أُوَسِّع أو أُضَيِّق، وقد أزيد أو أنقُص.

مثال ذلك: أنه تحدث عن خصيصة «الربانية» بمعنى ربانية المصدر والأساس، وأفاض في ذلك إفاضة بليغة، ولكنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يلتفت إلى المعنى الآخر للربانية، وهو ما سميناه: «ربانية الغاية والوجهة»، وهو معنى أساسي وخطير، وربما كان هو المتبادر إلى ذهن المسلم عندما تذكر كلمة «الربانية» أو «الرباني».

كما أنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ ركّز على معنى «الثبات» في الإسلام، وأكده تأكيدًا قويًّا. وهذا مقبول في جانب التصور والاعتقاد، كما أنه كان لازمًا لمواجهة دعاة «التطور» المطلق في عالمنا، ولكن إذا تحدثنا عن الإسلام عقيدة وشريعة ونظام حياة، أجد أن خصيصة الإسلام هي الجمع بين الثبات والمرونة معًا، وهذا ما أثبته هنا.

وقد تناولت بالشرح والتحليل هنا سبع خصائص، هي:

1 – الربانية.

2 – الإنسانية.

3 – الشمول، ونعني به: شمول الزمان والمكان والإنسان، وهو في الواقع يضم خصائص ثلاثًا هي: الخلود، والعالمية، والاستيعاب.

4 – الوسطية، أو التوازن.

5 – الواقعية.

6 – الوضوح.

7 – الجمع بين الثبات والمرونة.

ولا أزعم أن هذه هي كل خصائص الإسلام العامة، فمن الممكن أن يزاد عليها، وربما فعلت ذلك في طبعة لاحقة، إن شاء الله.

كما لا أزعم أني وفيت كل خصيصة منها حقها، ولكني اجتهدت وحاولت، ولكل مجتهد نصيب، ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: 88].

القاهرة في (23) من صفر سنة (1397هـ)

الموافق: (11) فبراير سنة (1977م)

يوسف القرضاوي

* * *

الفصل الأول

الربانية

إن الخصيصة الأولى من الخصائص العامة للإسلام هي: الربانية.

والربانية - كما يقول علماء العربية - مصدر صناعي منسوب إلى «الرب»، زيدت فيه الألف والنون، على غير قياس، ومعناه: الانتساب إلى الرَّب. أي: الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. ويطلق على الإنسان أنه «رباني» إذا كان وثيق الصلة بالله، عالمًا بدينه وكتابه، معلمًا له. وفي القرآن الكريم: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: 79].

والمراد من الربانية هنا أمران:

1 - ربانية الغاية والوجهة. 2 - ربانية المصدر والمنهج.

1 - ربانية الغاية والوجهة:

فأما ربانية الغاية والوجهة، فنعني بها: أن الإسلام يجعل غايته الأخيرة وهدفه البعيد، هو حسن الصلة بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، والحصول على مرضاته، فهذه هي غاية الإسلام، وبالتالي هي غاية الإنسان، ووجهة الإنسان، ومنتهى أمله وسعيه وكدحه في الحياة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: 6]، ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: 42].

ولا جدال في أن للإسلام غايات وأهدافًا أخرى إنسانية واجتماعية، ولكن عند التأمل، نجد هذه الأهداف في الحقيقة خادمة للهدف الأكبر، وهو مرضاة الله تعالى، وحسن مثوبته. هذا هو هدف الأهداف، أو غاية الغايات.

في الإسلام تشريع ومعاملات، ولكن المقصود منها هو تنظيم حياة الناس حتى يستريحوا ويبرأوا من الصراع على المتاع الأدنى، ويفرغوا لمعرفة الله تعالى وعبادته، والسعي في مراضيه.

وفي الإسلام جهاد وقتال للأعداء، ولكن الغاية هي: ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: 39].

وفي الإسلام حثٌّ على المشي في مناكب الأرض والأكل من طيباتها، ولكن الغاية هي القيام بشكر نعمة الله وأداء حقه ﴿كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: 15].

وكل ما في الإسلام من تشريع وتوجيه وإرشاد، إنما يقصد إلى إعداد الإنسان ليكون عبدًا خالصًا لله، لا لأحد سواه. ولهذا كان روح الإسلام وجوهره هو التوحيد.

ومعنى التوحيد: أن يعلم الإنسان أنه لا إله إلا الله، وأن يفرده تعالى بالعبادة والاستعانة، فلا يشرك به أحدًا، ولا يشرك معه شيئًا. وهذا معنى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: 5]، التي يرددها المسلم في صلواته كل يوم، ما لا يقل عن سبع عشرة مرة، كلما قرأ فاتحة الكتاب في ركعة من ركعات الصلاة.

ولقد خاطب الله تعالى رسوله محمدًا ﷺ بهذه الحقيقة، وأمره أن يعلنها ويبلغها للناس، فقال: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ 161 قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ 162 لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ 163 قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 161 – 164].

إن الإنسان لم يخلق لمجرد أن يأكل ويشرب، ويلهو ويلعب، ثم بعد ذلك يموت أو ينفق كما تنفق الدابة، كالذين حكى القرآن عنهم أنهم: ﴿يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ [محمد: 12]، إنما خلق الإنسان لغاية أسمى.

يقولون: إن الأحمق يعيش ليأكل، والعاقل يأكل ليعيش. ولكن يبقى هنا سؤال يتحتم الإجابة عنه، هو: ولماذا يعيش العاقل؟ إن العيش ليس غاية في نفسه، تقصد لذاتها، بل لا بد من هدف يعيش له الإنسان، فما هو؟

أما الماديون، فلا يجدون لهذا السؤال في فلسفتهم جوابًا يشفي. وأما المؤمنون فيقولون: إن الإنسان يعيش ليعرف خالقه سبحانه ويعبده، ويقوم بخلافته في الأرض.

فإذا كان الأحمق يعيش ليأكل، والعاقل يأكل ليعيش، فإن المؤمن يعيش ليعبد الله وحده.

يقرر القرآن هذه الحقيقة بوضوح وجلاء، حين يذكر الغاية من خلق الجن والإنس فيقول تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ 56 مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ 57 إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: 56 – 58].

بل يبين القرآن أن خلق العالم كله علويه وسفليه، سماواته وأرضه، لم تكن الغاية منه إلا أن يعرف الناس ربهم القادر على كل شيء، العليم بكل شيء. وهذه المعرفة هي باب كل هدى، ومفتاح كل خير، يقول سبحانه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: 12].

الإنسان إذن لم يخلق لنفسه، فكل شيء في هذا الكون قد خلق ليؤدي خدمة لغيره. وهو كذلك لم يخلق لخدمة شيء آخر من مخلوقات هذا الكون، فكل ما في الكون سخر لخدمته، كما قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: 20].

كل ما في الكون قد خلق للإنسان. أما الإنسان نفسه فقد خُلق لله جل جلاله ... لمعرفته وعبادته، وأداء أمانته في الأرض. وكفى بهذا شرفًا وفخرًا، فهو سيد في الكون، عبد لخالقه وحده.

من ثمرات هذه الربانية في النفس والحياة:

ومما لا ريب فيه أن لهذه الربانية – ربانية الغاية والوجهة – فوائد وآثارًا جمة في النفس والحياة، يجني الإنسان ثمارها في هذه الدنيا، فضلًا عن ثمرتها في الآخرة. وهي ثمار في غاية الأهمية.

فمن آثار هذه الربانية وثمراتها:

أولًا: معرفة غاية الوجود الإنساني:

أن يعرف الإنسان لوجوده غاية، ويعرف لمسيرته وجهة، ويعرف لحياته رسالة؛ وبهذا يحس أن لحياته قيمة ومعنى، ولعيشه طعمًا ومذاقًا، وأنه ليس ذرة تافهة تائهة في الفضاء، ولا مخلوقًا سائبًا يخبط خبط عشواء في ليلة ظلماء، كالذين جحدوا الله أو شَكُّوا فيه، فلم يعرفوا: لماذا وُجِدُوا؟ ولماذا يعيشون؟ ولماذا يموتون؟

كلا، إنه لا يعيش في عماية، ولا يمشي إلى غير غاية، بل يسير على هدى من ربه، وبينة من أمره، واستبانة لمصيره، بعد أن عرف الله وأقر له بالوحدانية.

إنه لا يقول ما قاله الشاعر الحائر المرتاب:

لبست ثوب العيش لم أستشر ... وحرت فيه بين شتى الفكر؟
وسوف أنضو الثوب عني، ولم ... أدرِ: لماذا جئت؟ أين المفر؟![2]

أو ما قاله الآخر:

جئت لا أعلم من أين ... ولكني أتيت![3]

كلا ... فقد اتضحت وجهته الربانية، وعرف من أين جاء، ولِمَ جاء، وإلى من فراره، وأين قراره. إنَّ حَسْبه أن يقرأ من كتاب ربه، ما رد به إبراهيم خليل الرحمن على عبدة الأوثان، فقال: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ 77 ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ 78 وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ 79 وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ 80 وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ 81 وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: 77 – 82].

ثانيًا: الاهتداء إلى الفطرة:

ومن ثمرات هذه الربانية وفوائدها: أن يهتدي الإنسان إلى فطرته التي فطره الله عليها. والتي تطلب الإيمان بالله تعالى، ولا يعوضها شيء غيره. يقول تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: 30].

واهتداء الإنسان إلى فطرته ليس كسبًا رخيصًا. بل هو كسب كبير، وغنى عظيم، فبه يعيش المرء في سلام ووئام مع نفسه، ومع فطرة الوجود الكبير من حوله، فالكون كله رباني الوجهة، يُسَبِّح بحمد الله: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: 44].

---

(2) من «رباعيات الخيام».
(3) من شعر إيليا أبو ماضي.

والحقيقة أن في فطرة الإنسان فراغًا لا يملؤه علم، ولا ثقافة ولا فلسفة، إنما يملؤه الإيمان بالله جل وعلا.

وستظل الفطرة الإنسانية تحس بالتوتر والجوع والظمأ، حتى تجد الله، وتؤمن به، وتتوجه إليه.

هناك تستريح من تعب، وترتوي من ظمأ، وتأمن من خوف، هناك تحس بالهداية بعد الحيرة، والاستقرار بعد التخبط، والاطمئنان بعد القلق، ووجدان المنزل والأهل بعد طول الغربة، والضرب في أرض التيه.

فألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عينًا بالإياب المسافر[4]

فإذا لم يجد الإنسان ربه - وهو أقرب إليه من حبل الوريد - فما أشقى حياته، وما أتعس حظه، وما أخيب سعيه!

إنه لن يجد السعادة، ولن يجد السكينة، ولن يجد الحقيقة ... لن يجد نفسه ذاتها: ﴿كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡ﴾ [الحشر: 19].

فتصور إنسانًا يعيش دون أن يجد نفسه، وهو في رأي نفسه، وفي نظر الناس بشر عاقل، سميع بصير، بل لعله جامعي مثقف، ولعله - فوق ذلك - «دكتور» كبير في العلوم أو الآداب!

وكيف يجد نفسه من لم يعرفها؟ وكيف يعرفها من حجب عنها بالغرور والكِبْر؟ أو شغل عنها باتباع الشهوات، والإخلاد إلى الأرض، والغرق في لذائذ الحسن، ومطالب الجسد والطين؟

---

(4) من شعر معقر بن أوس بن حمار البارقي.

إن الإنسان خلق عجيب، جمع بين قبضة من طين الأرض، ونفخة من روح الله. فمن عرف جانب الطين، ونسي نفخة الروح، لم يعرف حقيقة الإنسان.

ومن أعطى الجزء الطيني فيه غذاءه وريه مما أنبتت الأرض، ولم يعط الجانب الروحي غذاءه من الإيمان ومعرفة الله، فقد بخس الفطرة الإنسانية حقها، وجهل قدرها، وحرمها ما به حياتها وقوامها.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

«في القلب شعث لا يلمه إلا الإقبال على الله.

وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس بالله.

وفيه حزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفته، وصدق معاملته.

وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه، والفرار إليه.

وفيه نيران حسرات، لا يطفئها إلا الرضا بأمره ونهيه وقضائه، ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه.

وفيه فاقة لا يسدها إلا محبته والإنابة إليه، ودوام ذكره، وصدق الإخلاص له، ولو أُعطي الدنيا وما فيها لم تسد تلك الفاقة أبدًا»[5].

وهذا ليس كلام عالم فحسب، بل كلام ذائق مجرب، يقول ما خبره وأحس به في نفسه، وما رآه ولاحظه في الناس من حوله.

---

(5) «مدارج السالكين» لابن القيم (3/ 156)، دار الكتاب العربي ببيروت، الطبعة الثالثة (1996م).

إنها الفطـرة البشريـة الأصـيلة، التـي لا تجـد سـكينتها إلا في الاهتـداء إلى الله والإيمان به، والالتجاء إليه.

إنها الفطرة التي لم يملك مشركو العـرب في جـاهليتهم أن ينكروهـا مكـابرة وعنادًا:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾(6) [العنكبوت: 61].

وقد يتراكم على هذه الفطرة صدأ الشبهات أو غبار الشـهوات. وقـد تنحـرف وتتدنس باتباع الظن أو اتباع الهوى، أو التقليد الجاهل للأجداد والآباء، أو الطاعة العمياء للسادة والكبراء. وقد يصاب الإنسان بداء الغرور والعُجْب فـيظن نفسـه شيئًا يقوم وحده، ويستغنى عن الله!!

بيد أن هذه الفطرة الأصيلة تذبل ولا تموت، وتكمن ولا تـزول. فـإذا أصـاب الإنسان من شدائد الحياة وكوارثها ما لا قِبَلَ له به، ولا يد له ولا للناس فيه دفعـه، ولا رفعه، فسرعان ما تزول القشرة السـطحية المضـللة، وتـبرز الفطـرة العميقـة الكامنة، وينطلق الصوت المخنوق المحبوس، داعيًا ربه، منيبًا إليه، كما قال تعالى:

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: 67].

هذه الفطرة حقيقة أجمع عليها الباحثون في تاريخ الأمم والأديان والحضـارات فقد وجدوا الإنسان منذ أقدم العصور يتدين ويتعبد ويؤمن بإله، حتى قـال أحـد كبار المؤرخين:

---

(6) وقد تكرر هذا المعنى في عدة سور.

«لقد وُجِدت في التاريخ مدن بلا قصور ولا مصانع ولا حصون، ولكن لم توجد أبدًا مدن بلا معابد»(7).

ولهذا كانت مهمة رسل الله كافة في جميع الأعصار، هي تحويل الناس من عبادة المخلوقات إلى عبادة الخالق، وكان نداؤهم الأول في قومهم: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: 36]، ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾(8) [الأعراف: 59].

أما وجود الله تعالى فكان أمرًا مسلمًا به، مفروغًا منه، لدى كافة الأمم في كل الأزمنة والعصور، ولم يجادل فيه إلا قلة مسحوقة لا يقام لها وزن. ولهذا لم يشغل رسل الله أنفسهم بإثبات وجود الله، وإقامة الأدلة عليه، بل بإثبات وحدانيته في ربوبيته وألوهيته، واستحقاقه أن يُفْرَد بالعبادة دون غيره(9)، وفي هذا يقول القرآن: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 25].

ثالثًا: سلامة النفس من التمزق والصراع:

ومن ثمرات هذه الربانية – ربانية الغاية والوجهة – : سلامة النفس البشرية من التمزق والصراع الداخلي، والتوزع والانقسام بين مختلف الغايات، وشتى الاتجاهات.

---

(7) المؤرخ اليوناني المشهور «بلو تارك».

(8) ذكر القرآن هذا القول على لسان نوح، وهود، وصالح، وشعيب، في سورة الأعراف: الآيات: (59، 65، 73، 85())، وقد تكرر معناه في عدة سور.

(9) من كتاب: «الإيمان والحياة» للمؤلف (ص: 94 – 97).

لقد اختصر الإسلام غايات الإنسان في غاية واحدة هي إرضاء الله تعالى، وركز همومه في هم واحد هو العمل على ما يرضيه سبحانه.

ولا يريح النفس الإنسانية شيء كما يريحها وحدة غايتها ووجهتها في الحياة، فتعرف من أين تبدأ، وإلى أين تسير، ومع من تسير.

ولا يُشْقِي الإنسان شيء مثل تناقض غاياته، وتباين اتجاهاته، وتضارب نزعاته، فهو حينًا يُشَرِّق، وحينًا يُغَرِّب، وتارة يتجه إلى اليمين، وطورًا يتجه إلى اليسار، ومرة يُرْضِي زيدًا فيغضب عمرو، وأخرى يُرْضِي عمرًا فيغضب زيد، وهو في كلا الحالين حائر بين رضا هذا وغضب ذاك.

ومن الناس يرضى كل نفس   وبين هوى النفوس مدى بعيد؟!

إن عقيدة التوحيد قد منحت المسلم يقينًا بأن لا رب إلا الله يُخَاف ويُرْجَى، ولا إله إلا الله، يُجْتَنَب سخطه، ويُلْتَمَس رضاه. وبهذا أخرج المسلم كل الأرباب الزائفة من حياته، وحطم كل الأصنام المادية والمعنوية من قلبه، ورضي بالله وحده ربًّا، عليه يتوكل، وإليه ينيب، وفي فضله يطمع، ومن قوته يستمد، وله يتودد، وإليه يحتكم، وبه يعتصم: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: 101].

فأين هذا من المشرك بالله، الذي تعددت أربابه، وتضاربت وجهاته، وقد مثله القرآن الكريم بعبد له أكثر من سيد، وهم شركاء متشاكسون غير متوافقين، كُلٌّ يأمره بضد ما يأمره به الآخر، ويريد منه غير ما يريده. فهمه متفرق، وقلبه مشتت.

يقول تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ(10) هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [الزمر: 29].

وقال يوسف عليه السلام لرفيقيه في سجن عزيز مصر، وقد كانا كقومهما ممن يعبدون مع الله آلهة أخرى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ 39 مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: 39، 40].

رابعًا: التحرر من العبودية للأنانية والشهوات:

ومن ثمرات هذه الربانية: أنها - حين تستقر في أعماق النفس - تحرر الإنسان من العبودية لأنانيته وشهوات نفسه، ولذات حسه، ومن الخضوع والاستسلام لمطالبه المادية، ورغباته الشخصية.

وذلك أن الإنسان «الرباني» يقفه إيمانه بالله وباليوم الآخر، موقف الموازنة بين رغبات نفسه، ومتطلبات دينه. بين ما تدفعه إليه شهوته، وما يأمر به ربه. بين ما يمليه عليه الهوى، وما يمليه عليه الواجب ... بين متعة اليوم وحساب الغد، أو بين لذة عاجلة في دنياه، وحساب عسير ينتظره في أخراه.

وهذه الموازنة والمساءلة جديرة أن تخلع عنه نير العبودية للهوى والشهوات، وأن ترتفع به إلى أفق أعلى من الأنانية والبهيمية ... أفق الإنسانية المتحررة التي تتصرف بوعيها وإرادتها، لا بوحي بطنها وفرجها وغريزتها الحيوانية.

---

(10) أي خالص الملكية لرجل واحد، لا شركة فيه ولا مشاكسة، فهو يعرف سيده، ويعرف ما يطلبه وما يرضيه، وكيف يرضيه. وهذا مثل المؤمن الموحد.

فإذا لم يرتقِ إلى هذا الأفق الوضيء، فإنه يظل رانيًا إليه، حريصًا عليه، متشبثًا به. وإذا انحدر عنه يومًا، فسرعان ما يعود إليه تائبًا من ذنبه مستغفرًا لربه.

فليس الإنسان الرباني هو الإنسان الملاك، الذي لا يقع في خطيئة ولا خطأ. فهذا لا وجود له إلا في عالم الخيال أو المثال. إنما الإنسان الرباني، هو الإنسان «الأواب» الذي يشعر بالتقصير كلما زل، ويرجع إلى الله كلما أذنب: ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ [الإسراء: 25].

ولهذا عدَّد الله أوصاف المتقين الذين أعد لهم جنة عرضها السماوات والأرض، وكان منها: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 135].

ليس عجيبًا إذن أن يتورط الإنسان في معصية الله وتغلبه شهوته وهواه، فقديمًا عصى آدم أبو البشر ربه، وغره الشيطان حتى ارتكب ما نهاه الله عنه من الأكل من الشجرة، ولكن ما أسرع ما تاب وأناب، وقرع باب ربه بالاعتراف والاستغفار: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: 23]، ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 37].

ولقد عصى آدم، وعصى إبليس، فغفر لآدم، ولم يغفر لإبليس؛ لأن معصية آدم كان سببها الضعف والنسيان: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: 115]، ثم أعقبتها توبة نصوح تمحو أثر الذنب كما تمحو إشراقةُ الصبح ظلمةَ الليل، ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: 122]. أما معصية إبليس فكان سببها الكبر والتمرد على أمر الله: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [ص: 76]، ولم يعقبها

إلا الإصرار على الضلال والإضلال: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ 16 ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: 16، 17].

إن الإنسان الرباني قد تتاح له الشهوة الحرام، تعرض عليه بلا رقيب ولا حسيب من البشر، فيدعها حياء من الله، وحرصًا على أن يظله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، فيقول ما قال يوسف الصديق حين راودته امرأة العزيز عن نفسه: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: 23].

وإن الإنسان الرباني قد يتاح له المال الحرام، عن طريق الرشوة السافرة أو المقنعة، أو استغلال المنصب والنفوذ، أو غير ذلك من أكل أموال الناس بالباطل، فيرفضه، راضيًا بالقليل، قانعًا بالحلال، موقنًا أن كل لحم نبت من حرام فإن النار أولى به، وهو لا يحب أن يشتري جهنم بشيء ولو كان ملك المشرق والمغرب.

حسبه أن يتلو قول الله تعالى: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [يونس: 58].

وإن الإنسان الرباني قد يتاح له الجاه والمنصب الحرام عن طريق موالاة المعتدين، أو معاونة الظالمين، أو السير في ركب الطاغين، فيأبى عليه دينه، وينهاه إيمانه، متذكرًا قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: 113].

وإن الإنسان الرباني قد يتاح له أن يتمكن من خصمه، ويستطيع أن يشفي منه نفسه، وأن يرد له الصاع صاعين، فينقع غلته بالانتقام منه ويستمتع بقهره وإذلاله، ولكن ربانيته السمحة تأبى عليه إلا أن يقف موقف العفو والصفح والسماح،

فيقول ما قال يوسف لإخوته: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: 92].

تفاوت الغايات والأهداف لدى الأفراد:

والناس تتفاوت غاياتهم وأهدافهم - أفرادًا وجماعات - تفاوتًا بعيدًا، ويختلفون فيها اختلافًا شاسعًا، يرتفع فيه بعضهم إلى أفق الملائكة، وينزل به بعضهم إلى حضيض الشياطين.

وهذا في الواقع هو الاختلاف الأكبر والأعمق بين الناس: أعني الاختلاف على الأهداف.

أما الاختلاف على الوسائل والطرائق، فهو أخف وأهون، بعد الاتفاق على الغاية والوجهة:

وقد قال أحد الشعراء:

كل من في الوجود يطلب صيدًا   غير أن الشباك مختلفات![11]

وكان أولى به أن يقول: غير أن الصيود - جمع: صيد - مختلفات؛ لأن الخلاف الأكبر بين البشر، ليس على نوعية الشباك التي بها يحصلون على صيدهم. بل على الصيد ذاته: ماذا يكون؟ وأين يكون؟ وكم يكون؟ وكيف يكون؟!!

وإذا نظرنا إلى الأفراد وغاياتهم وجدناهم أصنافًا عديدة متنوعة:

1 - فمنهم من يعيش حياته، غارقًا في لذات حسه، دائرًا حول مطامح نفسه. فأقصى غايته، وجل اهتمامه، ومحور تفكيره، يدور حول عبادة «ذاته» يطوف بها

(11) من شعر عبد الله بن حزم الأنصاري قاضي المدينة.

كالوثني بصنمه، لا يخترق حجاب الحس إلى ما وراء المادة، ولا يرنو ببصره إلى شيء وراء دنياه العاجلة، وشهواته البهيمية، ومطالبه المادية الأنانية الآنية.

وفي سبيل هذه الغاية، لا يبالي أن يضحي بكل ما يعوقه ويقف في سبيله من القيم والمثل والمعتقدات، وبكل من يعوقه ويقف في طريق شهواته من البشر.

يفعل ذلك جهرة إن ملك القدرة عليه، وكان ذا جاه وسلطان، وقد يرتكبه سرًّا وخفية، فرارًا من طائلة العقاب والقانون.

في سبيل شهواته وأهوائه، ومطامعه ومصالحه، لا يهمه أن يبذل العرض، أو يهدر الشرف، أو يضيع الأهل والولد، أو يبيع الصديق، أو يخون الوطن، أو يتمرد على العقيدة.

لا يحجزه عن ذلك ضمير، فقد مات ضميره وأهيل عليه التراب، ولا إيمان، فلا إيمان لمن كان إلهه هواه، وشهوته معبوده. ولا عقل، فإن شهواته عطلت عقله، وأهواءه أغلقت منافذ تفكيره: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص: 50].

وقد عرفنا هذا الصنف «الأناني» وجربناه، وعانينا منه الأمرين، ولاقت الأمم قديمًا وحديثًا على يديه الويلات بعد الويلات.

وعليه نبّه القرآن الكريم في كثير من آياته، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: 179].

وفي سورة أخرى يقول: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا

43 أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: 43، 44].

هذا الصنف البهيمي الأناني – عابد هواه – قد خرب أجهزة المعرفة التي منحه الله إياها من الأسماع والأبصار والقلوب، وعاش حياة أدنى مرتبة من حياة الأنعام وأضل سبيلًا.

وإنما كانت كذلك لأمرين:

أولهما: أن الأنعام تؤدي مهمتها المنوطة بها في الوجود، فلم تر بقرة تمردت على أن تُحْلَب، ولا جملًا تمرد على أن يُرْكَب. وإنما تؤدي رسالتها في خدمة الإنسان ... تحرث الأرض، وتسقي الحرث، وتحمل الأثقال، وتدر اللبن، وتعطي من أشعارها وأصوافها وأوبارها أثاثًا ومتاعًا إلى حين.

والثاني: أن هذه الأنعام لم تُؤتَ ما أوتي الإنسان من المواهب الفكرية والروحية، ولم يسخر لها ما في السماوات وما في الأرض، ولم يبعث لها رسول، ولم ينزل عليها كتاب.

وإنما الذي أُوتي هذا كله هو الإنسان، فإذا أهمل هذه النعم ولم يقم بشكرها، ونسي رسالته، وعاش لبطنه وفرجه وشهوته، كما تعيش الدواب، كان – بلا ريب – أضل منها سبيلًا.

2 – ومن الناس من لا هدف له في الحياة إلا إذلال الناس، والإضرار بهم، والكيد لهم، كأن رسالته التي خلق لها هي الإفساد في أرض الله، والعدوان على خلق الله.

استحالت نعم الله في يديه إلى سياط للإيذاء، وأسلحة للفتك، وآلات للتدمير.

هذا الصنف كالذي قبله، يعيش لدنياه العاجلة، ولأنانيته البشعة، ولكن يفترقان في المزاج فقط.

فإذا كان اتجاه الصنف الأول أنانيًّا شهوانيًّا، فهذا ترى اتجاهه أنانيًّا عدوانيًّا.

الصنف الأول فَقَدَ خصيصة الإنسان واستحال إلى حيوان. وهذا الصنف فَقَدَ كذلك خصيصة الإنسان، ولكنه استحال إلى شيطان.

فالشيطان لا هم له إلا الإفساد والكيد والتضليل والإغواء. وهذا الصنف هو الذي لعنه الله وذمه في كتابه بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: 25].

هذا الصنف إذا تمكن من رقاب البشر يومًا ما بولاية أو رياسة أو نفوذ، وجدته نمروذًا كنمروذ إبراهيم يقول: أنا أحيي وأميت، كما يحيي الله ويميت! أو فرعونًا كفرعون موسى، يذبح الأبناء، ويستذل النساء! أو طاغية كنيرون روما، أو غيره من جبابرة التاريخ.

فإذا لم يكن له سلطان نمروذ ولا فرعون، كان طاغية صغيرًا، أو ذيلًا لطاغية كبير.

والقرآن قد حكم بالإثم والهلاك على فرعون ووزيره وجنوده جميعًا؛ لأن الذي يخلق فرعون الكبير إنما هم أعوانه من الفراعنة الصغار؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ﴾ [القصص: 8]، وقال سبحانه: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ 40 وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ 41 وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ

ٱلۡمَقۡبُوحِينَ﴾ [القصص: 40 – 42].

قد يغطي هذا الصنف الذي خبث باطنه بظاهر مزخرف، ولسان يخدع الناس بمعسول القول، وحلو الكلام.

فإذا سبرت غوره، لم تجد وراء هذا الظاهر إلا باطنًا خرابًا، وضميرًا ميتًا، ونفسًا متطاولة على الخلق، مستكبرة عن الحق، مقبلة على الشر، معرضة عن الخير. كذلك الذي وصفه القرآن فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ 204 وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ 205 وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ [البقرة: 204 – 206].

3 - **وثمت صنف آخر غير هذا وذاك**.

صنف لا يعبد نفسه، ولا يدور حول ذاته دوران الحمار في الرحا، أو الثور في الساقية!

إنه يعبد الله وحده لا شريك له. فهدفه مرضاته، وغايته محبته، والقرب منه وحسن الاتصال به ... لا يريد إلا وجهه، ولا يبتغي إلا مثوبته ... لا يحب ولا يبغض إلا فيه، ولا يعطي ولا يمنع إلا له.

أما الدنيا، فهي عنده أداة لا هدف، ووسيلة لا غاية، فهو يملكها ولا تملكه، ويسخرها ولا تسخره، ويجعلها في يده، ولكن لا يملأ بها قلبه.

إنه يدعو ربه بما دعا به محمد عليه الصلاة والسلام: «**اللهم لا تجعل الدنيا أكبر**

همنا، ولا مبلغ علمنا»[12].

وهذا هو الصنف «الرباني» الذي عاش لله وبالله.

صلاته ونسكه لله، ومحياه ومماته لله، ونيته وعمله لله، وجهده وجهاده لله.

إنه يفعل الخير للناس، ويسدي المعروف للضعفاء والمساكين، ولكنه لا يطلب منهم ثمنًا لمعروفه؛ لأن غايته أن يحمده الله لا أن يحمدوه، وأن يرضى عنه الله لا أن يرضوه: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا 8 إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: 8، 9].

إنه يكف يده عن الشر، ولسانه عن الأذى، ولا يقابل السيئة بالسيئة، بل يدفع بالتي هي أحسن، لا خشية من أحد بل خشية من الله جل جلاله.

ألم تر إلى ابن آدم المؤمن الخيِّر، حين هدده أخوه بالقتل، لم يرد عليه السوء بمثله، بل قال في أدب وكرم: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: 28].

إنه يدعو إلى الخير، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويصلح بين الناس، ويميط الأذى عن الطريق.

إنه يُعلِّم الجاهل، ويهدي الحائر، ويرشد الضال ... لا يطلب جزاءه إلا من الله. وشعاره في ذلك ما ذكره الله تعالى على ألسنة رسله حين قال كل رسول لقومه:

---

(12) رواه الترمذي في «الدعوات» (3502)، وقال الترمذي: حسن غريب، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (2783)، النسائي في «الكبرى، في عمل اليوم والليلة» (10161)، عن ابن عمر.

﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: 109].

إنه يضع رأسه على كفه، ويقدم روحه فداء للحق، ويبذل النفس والمال ذيادًا عن القيم والحرمات. ولكنه لا يفعل هذا ليذكر اسمه في قائمة الأبطال، ولا ليرى مكانه وتتحدث عنه أجهزة الإعلام، ولا ليحوز غنيمة دنيوية، ولكن لتكون كلمة الله هي العليا، وليوفي بالصفقة التي عقدها الله معه، حين اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة.

والعجيب أن هذا الصنف الذي فني عن حظ نفسه من أجل حق ربه، والذي نسي ذاته وذكر الله وحده. هذا الصنف هو الوحيد الذي يعمل في الحقيقة من أجل نفسه: من أجل نجاتها وسعادتها.

إنه – عند التأمل – أوعى الأصناف وأحرصها على سعادة نفسه، ولكنه – بنور بصيرته، وعمق تفكيره – لم يبع آجلًا بعاجل، ولا باقيًا بفان. وقد قال أحد حكماء الصالحين: «لو كانت الدنيا ذهبًا يفنى والآخرة خزفًا يبقى، لوجب على العاقل أن يختار الخزف الباقي على الذهب الفاني»(13). فكيف إذا كانت الدنيا هي الخزف الفاني، والآخرة هي الذهب الباقي؟!

والحقيقة التي لا ريب فيها، أن النسبة بين هذه الحياة الدنيا وبين الآخرة، أكبر وأبعد وأعمق مما بين الخزف والذهب بكثير وكثير. ولكن الأمثال تضرب للتقريب والتوضيح.

---

(13) من قول الفضيل بن عياض، انظر: «المستطرف في كل فن مستظرف» لأبي الفتح الأبشيهي (512)، عالم الكتب ببيروت، الأولى (1419هـ).

ولا شك أن أخسر الناس، وأظلمهم لنفسه، من حرمها سعادة الأبد. ونعيم الأبد، من أجل متعة عارضة، وشهوة زائلة.

وإن أربح الناس بضاعة من باع من باع لذة فانية، أو شهوة عاجلة، واشترى جنة عرضها السماوات والأرض، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: 17].

والواقع أن هذا الصنف لم يخسر دنياه حين آثر آخرته، فَوَجَّه لها إرادته، وسعى لها سعيها وهو مؤمن.

لقد كسب الحياتين، وجمع الحَسَنتين: حسنة الدنيا، وحسنة الآخرة، اللتين يحرص عليهما المؤمنون، ويسألونهما الله سبحانه: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة: 201].

إن الربانية قد تحرم الإنسان من بعض اللذائذ العاجلة، وبعض المنافع القريبة، ولكنها تحميه بهذا الحرمان - من شرور ومخاطر كانت ستعود بالضرر المؤكد عليه، أو على مجتمعه، أو على الإنسانية ... كما سنشير إلى ذلك بعد.

وهي مع هذا تمنحه - في مقابل هذا الحرمان الجزئي الموقوت - سكينة نفسية، وطمأنينة روحية، لا تقدر قيمتها بمال؛ لأنها هي سر السعادة التي ينشدها كافة البشر، فلا يجدها إلا القليل.

وهي السعادة التي قال فيها بعض المؤمنين الذين ذاقوا حلاوتها:

«لو علم بها الملوك لجالدونا عليها بالسيوف!».

لقد كان الصنف الأول هو الإنسان الحيواني.

وكان الصنف الثاني هو الإنسان الشيطاني.

أما هذا الصنف الثالث فهو الإنسان الرباني.

إن تسمية كل من الصنفين الأولين بالإنسان تسمية مجازية. أما الصنف الثالث فهو وحده الإنسان.

وسائل الإسلام لغرس الربانية في النفس والحياة:

والإسلام يسعى إلى غرس هذه الربانية في نفس كل مسلم وفي حياته، بوسائل شتى، وأساليب متنوعة.

طريق العبادات:

عن طريق العبادات المفروضة لزومًا، والمندوبة استحبابًا: من صلاة تتكرر كل يوم وليلة خمس مرات، هي للروح أشبه بالوجبات للجسم، تجعل المؤمن دائمًا على موعد مع اللَّه تعالى. كلما غرق الإنسان في لجج الحياة اليومية ومشاغلها، قام المؤذن ينادي: اللَّه أكبر، اللَّه أكبر، حي على الصلاة، حي على الفلاح. فينتشل المسلم نفسه من دنياه - دنيا الصراع والمتاع - ليقف بين يدي ربه دقائق يفضي إليه فيها بذات نفسه، داعيًا بالخير لنفسه ولأمته، مترقيًا من المادية إلى الروحية، ومن الأنانية إلى الغيرية، سائلًا ربه بلسان الجماعة كلها: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: 6].

ومن صيام؛ يتكرر شهرًا في كل عام، يحرم المسلم فيه نفسه من شهوات الطعام والشراب والجنس، كل يوم من تبين الفجر إلى غروب الشمس، تربية للإرادة، وتدريبًا على التقوى، وعلى كمال العبودية للَّه سبحانه. وفي هذا يقول الحديث القدسي: «**الصيام لي وأنا أجزي به، يدع طعامه من أجلي، ويدع شرابه من أجلي،**

ويدع زوجته من أجلي، ويدع لذته من أجلي»(14).

ومن زكاة؛ يغالب بإخراجها شح نفسه، ويزكي بها ماله وروحه، ويشكر بها نعمة ربه عليه، وفي هذا يقول القرآن: ﴿**خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا**﴾ [التوبة: 103]؛ ولهذا سميت: «زكاة» لما توحي به هذه الكلمة من معاني الطهارة والنماء والبركة، على عكس كلمة «الضريبة» التي توحي بمعنى القهر والإجبار والغرامة. ولهذا يطلب من المسلم أن يؤديها طيبة بها نفسه، داعيًا ربه أن يتقبلها منه قائلًا: «اللهم اجعلها مغنمًا، ولا تجعلها مغرمًا».

ومن حج؛ يفارق فيه المسلم وطنه ومسقط رأسه، ويدع أهله وعشيرته، مهاجرًا إلى الله، باذلًا من نفسه وماله، ومحتملًا المكاره والمشقة في ذات الله، حتى يصل إلى الأرض المقدسة، حيث أول بيت وضع لعبادة الله في الأرض، وحيث ذكريات إبراهيم وإسماعيل وهاجر عليهم السلام من قبل، وذكريات محمد ﷺ ودعوته من بعد.

هنالك يتجرد المسلم من ثيابه المعتادة - بما تحمله من مظاهر التفاوت والطبقية والعنصرية والإقليمية - ليلبس ثيابًا أشبه بأكفان الموتى، مستعليًا على المادية ومظاهرها، متجهًا إلى الله بقلبه ولسانه، شعاره ونشيده «**لبيك اللهم لبيك ... لبيك لا شريك لك لبيك ... إن الحمد والنعمة لك والملك ... لا شريك لك**»(15).

---

(14) رواه ابن خزيمة في «الصيام» (1897)، وقال الأعظمي: إسناده صحيح، عن أبي هريرة.
وأصل الحديث في «الصحيحين»: «**الصوم لي وأنا أجزي به، يدع شهوته وطعامه من أجلي**».
متفق عليه، رواه البخاري (1894)، ومسلم (1151)، كلاهما في «الصوم»، عن أبي هريرة.

(15) رواه البخاري (1549)، ومسلم (1184)، كلاهما في «الحج»، عن ابن عمر.

وفوق هذه الفرائض الأساسية الحتمية، التي هي الحد الأدنى لتكييف علاقة المسلم بالله - يفتح الإسلام باب التطوع بالخيرات، والتقرب إلى الله بالنوافل والمستحبات، من صلوات بعد الخمس المكتوبة، ومن صيام بعد رمضان المفروض، ومن صدقات بعد الزكاة الواجبة، ومن حج وعمرة بعد حجة الفريضة. وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، ويتسابق المتقون.

وفي الحديث القدسي الذي رواه البخاري عن الله تعالى: «**ما تقرب إليَّ عبدي بمثل أداء ما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته؛ كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها ... ولئن استعاذني لأعيذنه، ولئن سألني لأعطينه**»[16].

ليس المقصود بهذه العبادات - فرضها ونفلها - : أن تصل المسلم بخالقه لحظات أدائها فقط، ثم ينفرط عقده بعد ذلك، ويخلد إلى الأرض، ويتبع هواه.

كلا، فإن مهمة هذه العبادات أن تغرس في ضمير مؤديها روح التقوى لله جل شأنه. أن تمنحه شحنة روحية تذكره بالله كلما نسي، وتقوي عزمه كلما ضعف، وتنير طريقه كلما انطفأت من حوله المصابيح.

لا يرضى الإسلام أن يكون المسلم «ربانيًّا» في المسجد يركع ويسجد، ويتضرع ويبتهل. فإذا خرج من المسجد انقلب من رباني إلى «حيواني» أو «شيطاني».

ولا يرضى من المسلم أن يكون «ربانيًّا» في «رمضان»، فإذا طويت أعلام رمضان طويت معه العبادة والطاعة لله، كأنما كان يعبد رمضان لا رب رمضان؛ ولهذا كان

---

(16) رواه البخاري في «الرقاق» (6502)، عن أبي هريرة.

السلف الصالح من المسلمين يقولون: كن ربانيًّا ولا تكن رمضانيًّا(17).

ولا يرضى من المسلم أن يكون «ربانيًّا» طالما كان بجوار البيت الحرام، والمسجد الحرام، والمسجد النبوي، والمشاعر المقدسة، فإذا أتم نسكه، وقضى حجه وعمرته وزيارته، وشرع في رحلة العودة، نسي «الجو الرباني» و«المعنى الرباني»، وغرق في لجة الحياة المادية كما يغرق الغافلون.

أجل، لا يرضى الإسلام ذلك للمسلم، وإنما يريد له صلة دائمة بمولاه، في المسجد والطريق والبيت والعمل ... في رمضان وشوال وسائر الشهور ... في جو المناسك الطهور في مكة وعرفات والمدينة، وبعد العودة إلى الأوطان ... في كل مكان، وكل زمان، وكل حال.

ولهذا يوصي النبي ﷺ فيقول: «**اتق الله حيثما كنت**»(18).

ويقول القرآن: ﴿**وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ**﴾ [البقرة: 115].

ويقول الرسول: «**أحب الأعمال إلى الله أدومها، وإن قل**»(19).

---

(17) قال ابن رجب الحنبلي: سئل الشبلي: أيهما أفضل رجب أم شعبان؟ فقال: كن ربانيًّا ولا تكن شعبانيًّا، كان النبي ﷺ عمله ديمة. انظر: «لطائف المعارف» (ص: 222)، طبعة ابن حزم (2004م).

(18) رواه أحمد (21354)، وقال مخرجوه: حسن لغيره. والترمذي في «البر والصلة» (1987)، وقال: حديث حسن صحيح، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (97)، عن أبي ذر.

(19) متفق عليه: رواه البخاري في «الرقاق» (6464)، ومسلم في «صلاة المسافرين» (783)، عن عائشة.

طريق الآداب:

وهناك طريق آخر لغرس الربانية في ضمير المسلم وفي حياته. ذلك هو طريق الآداب اليومية التي تتخلل حياة المسلم: من الأكل والشرب، واللبس والتزين، والنوم واليقظة، والركوب والسفر، والجلوس والمشي ... إلى غير ذلك من الأحوال الفردية والاجتماعية.

فالإسلام ينتهز فرصة هذه الأمور التي لا تخلو منها حياة الإنسان، ليربط المسلم عن طريقها بالله تعالى.

فإذا جلس على مائدة طعامه وأراد أن يبدأ الأكل، ذكر الله الذي هيأ له الأسباب، حتى وصل إليه هذا الرزق الطيب، فكانت بدايته: «بسم الله»[20].

وإذا أحس بالشبع، وفرغ من طعامه، كان ختامه: «الحمد لله»، وإذا شرب الماء قال: «**الحمد لله الذي جعله عذبًا فراتًا برحمته، ولم يجعله ملحًا أجاجًا بذنوبنا!**»[21].

وإذا لبس ثوبًا جديدًا قال: «**الحمد لله الذي كساني هذا من غير حول مني ولا قوة**»[22]. «**أسألك من خيره وخير ما صنع له، وأعوذ بك من شره وشر ما صنع**

---

(20) إشارة إلى الحديث المتفق عليه: «**يا غلام، سم الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك**»، رواه البخاري في «الأطعمة» (5376)، ومسلم في «الأشربة» (2022)، عن عمر بن أبي سلمة.

(21) رواه الطبراني في «الدعاء» (899)، وأبو نعيم في «الحلية» (8/ 137)، والبيهقي في «الشعب» باب: «تعديد نعم الله» (4479)، وضعفه الألباني في «الضعيفة» (4202)، عن أبي جعفر مرسلًا.

(22) رواه أحمد (15632)، وقال مخرجوه: إسناده حسن، وأبو داود في «اللباس» (4023)، والترمذي في «الدعوات» (3458)، وقال: حسن غريب، وابن ماجه في «الأطعمة» (3285)، وحسنه ابن حجر في «نتائج الأفكار» (1/ 122)، والألباني في «صحيح الجامع» (6086)، عن معاذ بن أنس.

له»(23).

وكذلك يقول هذا الدعاء عند كل نعمة يستفيدها.

وإذا ركب دابة أو سيارة أو نحوها قال: «**سبحان الله، الذي سخر لنا هذا، وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون**».

وإذا شرع في سفر قال: «**اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنظر، وسوء المنقلب في المال والأهل**».

وإذا عاد من سفره قال: «**آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون**»(24).

وإذا وضع جنبه ليخلد إلى النوم قال: «**باسمك ربي وضعت جنبي، وبك أرفعه**»(25).

وإذا استيقظ لينطلق في موكب الحياة قال: «**الحمد لله الذي أحيانًا بعد ما أماتنا، وإليه النشور**»(26).

حتى لحظة الاستمتاع بالشهوة الجنسية – وهي شهوة حيوانية عاتية – لا ينسى المسلم العنصر الرباني، الذي يخفف من سعار الشهوة، وينقل صاحبها إلى أفق

---

(23) رواه أحمد (11248)، وقال مخرجوه: إسناده حسن، وأبو داود (4020)، والحاكم (4/ 192)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، كلاهما في «اللباس»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (4664)، عن أبي سعيد.

(24) رواه مسلم في «الحج» (1342)، عن ابن عمر.

(25) متفق عليه: رواه البخاري في «الدعوات» (6320)، ومسلم في «الذكر» (2714)، عن أبي هريرة.

(26) رواه البخاري في «الدعوات» (6312)، عن حذيفة.

أرفع، حين يقول إذا أتى زوجته: «**بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتنا**»[27].

وهكذا كلما دارت ساقية الحياة بالمسلم، لم يغفل عن ربه، ولم ينس صلته به، بل يظل شاعرًا بقربه منه، وأنسه به، ومعيته له، فالمعاني «الربانية» تدور معه حيثما دار، وتسير معه أينما سار.

طريق التربية والتكوين:

وثمة طريق ثالثة لغرس الربانية وتثبيتها، ولعلها أعظم الوسائل خطرًا، وأبعدها أثرًا؛ وهي التربية.

فلا بد أن تقوم التربية في البيت أولًا، وفي المدرسة ثانيًا – على غرس هذه الربانية في عقول الناشئة وضمائرهم، باستخدام أحسن الوسائل، وأفضل الأساليب.

وإذا كان الأب مسئولًا عن تغذية طفله ماديًّا، فلا يهمله حتى يتعرض جسمه للهزال أو للمرض أو للموت. فهو مسئول عن تغذيته روحيًّا، فلا يجوز له أن يهمله حتى يتعرض لما هو أشد خطرًا من هزال البدن أو مرضه، أو حتى موته؛ وذلك حين يتعرض لموت «القلب» أو «الروح» وفي ذلك هلاكه للأبد!

ومن هنا كانت المسئولية خطيرة؛ «**كلكم راع، ومسئول عن رعيته**»[28]. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارًا﴾ [التحريم: 6].

---

(27) متفق عليه: رواه البخاري في «الوضوء» (141)، ومسلم في «النكاح» (1434)، عن ابن عباس.

(28) متفق عليه: رواه البخاري في «الاستقراض» (2409)، ومسلم في «الإمارة» (1829)، عن ابن عمر.

ومن هنا أمر الآباء أن يدربوا أبناءهم على طاعة الله وأداء فرائضه، منذ بلوغهم سنًّا يقبلون فيها التعليم، وهي السابعة، والتشديد عليهم إذا بلغوا العاشرة، كما جاء في الحديث: «**مروا أبناءكم بالصلاة لسبع سنين، واضربوهم عليها لعشر سنين**»[29]. والأمر بالضرب هنا ليس مقصودًا به التعذيب أو التنكيل، ولكن لإشعار الصبي والصبية بمدى جدية الأب في طلبه للعبادة، وغضبه من عصيانه في ذلك، كما يغضب من أي أمر يطلبه من ولده فيرفضه، ولا يلقي له بالًا.

والأم شريك الأب في المسئولية، فهي راعية في بيتها، ومسئولة عن رعيتها، كما أكد ذلك النبي ﷺ[30]. ولعل مخالطتها للصغار - وبخاصة البنات - وتأثيرها فيهم يكون أقوى من الأب في كثير من الأحيان.

والمدرسة مسئولة كذلك عن تربية أبنائها وبناتها على معاني الربانية.

ولا يكفي المدرسة أبدًا أن تزود التلميذ بالخبرات والمهارات، المادية والفنية، أو بالحقائق والمعلومات عن البيئة والحياة من حوله. ثم تدعه ضالًّا جاهلًا بقضايا الوجود الكبرى، التي تحيره، وتلقي عليه أسئلة لا يجد لها جوابًا: من أين جاء؟ ومن جاء به؟ وإلى أين يذهب بعد رحلة الحياة؟ وهل له من رسالة بين مجيئه وذهابه - أو بين حياته وموته؟ وما هي؟ ومن يملك تحديدها؟ وما جزاؤها إن هو أداها على وجهها، أو فرط في أدائها؟

---

(29) رواه أحمد (6689)، وقال مخرجوه: إسناده حسن، وأبو داود في «الصلاة» (495)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (5868)، عن ابن عمرو.

(30) إشارة إلى الحديث: «**كلكم راع ومسئول عن رعيته ... والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها**»، وقد سبق تخريجه في الحديث قبل السابق.

إن الإيمان بالله هو الذي يجيب عن هذه الأسئلة بما يقنع العقول، ويريح الضمائر، ويشرح الصدور، أعني إيمان الإسلام خاصة؛ لأنه هو الذي خلا من أغاليط البشر، وأوهام البشر، وشطحات البشر، وتناقضات البشر.

والمدرسة التي لا تغرس الإيمان في النفس، لا تخرج إلا أجيالًا حائرة متناقضة، تركب سفينة الحياة، وتخوض عباب محيطها المضطرب، بلا ربان ولا مرشد، ولا خريطة ولا «بوصلة» ولا منار، لا تهتدي إلى شاطئ ولا أمل في أن تهتدي.

إن التربية والتعليم من مهمة النبوة، وقد كان مما امتن الله به على العرب أن بعث فيهم رسولًا من أنفسهم: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: 164].

وتحدث النبي ﷺ عن نفسه فقال: «**إن الله بعثني معلمًا ميسرًا**»(31).

وأشاد بفضل المعلمين فقال: «**إن الله وملائكته وأهل السماوات وأهل الأرض، حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت في البحر، ليصلون على معلمي الناس الخير**»(32).

وأعظم خير يُعلَّم للناس، أن يعرفوا ربهم، فيعرفوا بذلك مبدأهم ومصيرهم وسر وجودهم.

أي يعرفوا أنفسهم على حقيقتها، فمن عرف ربه فقد عرف نفسه. كما أن من عرف نفسه - كما هي - فقد عرف ربه.

---

(31) رواه مسلم في «الطلاق» (1478)، وأحمد (14515)، عن جابر.

(32) رواه الترمذي في «العلم» (2685)، وقال: حديث حسن صحيح غريب، والطبراني في «الكبير» (8/ 234)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (1838)، عن أبي أمامة.

طريق الإعلام والتوجيه والتثقيف الشعبي العام:

والتثقيف والتوجيه والإعلام – بكل مؤسساته وأجهزته ووسـائله – يجـب أن يرعى هذه الربانية ويؤكدها:

المساجد: بخطبها ودروسها ومواعظها وصلواتها، وما لها من إشـعاع روحـي وفكري وأخلاقي.

الإذاعة المسموعة والمرئية: ببرامجها الثقافية والترفيهية والإخباريـة، وبكـل مـا تملكان من تأثير على الأفكار والعواطف والعزائم.

الصـحافة: اليوميـة والأسـبوعية والشـهرية والفصـلية والسـنوية، بصـورها وكلماتها، بأخبارها وتعليقاتها.

الكتب: بكل أنواعها وألوانها وموضوعاتها: في العلوم والآداب والفنون، الشعر والنثر، والقصة والمسرحية، الكتب الأكاديمية والكتب الشعبية، دوائـر المعـارف والموسوعات، والوسائل والكتيبات.

المسرح والسينما: بما لهما من تأثير عن طريق الحدث والصورة، والكلمة والحوار.

كل أدوات التأثير والتوجيه يجب أن تتعاون جميعًا في تحقيق «الربانية» وتأكيدها وتثبيتها في النفس والحياة، هدفًا وغاية لسعي الإنسان، وحركة الإنسان.

ولا يجوز في نظر الإسلام أن يترك للمساجد وحـدها مهمـة تأكيـد «الربانيـة» وتثبيـت مبانيهـا، وتوضـيح معانيهـا، في حـين تعمـل المؤسسـات التوجيهيـة والإعلامية والتثقيفية الأخرى على إشاعة معانٍ أخرى تناقض الربانية، أو تشكك فيها، أو تنقصها من أطرافها.

وكيف يؤدي المسجد رسالته إذا كانت الأجهزة الأخرى - وهي تصابح الناس وتماسيهم بإمكاناتها الرهيبة - تخفض ما يعليه، وتهدم ما يبنيه؟

متى يبلغ البنيان يومًا تمامه إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم؟!(33)

على أن كل مؤسسة في مجتمع الإسلام لا تستمد حق بقائها فيه إلا بمقدار ما تسهم به في الحفاظ على ربانيته، التي هي أساس وجوده، سواء كان هذا الإسهام مباشرة أم غير مباشرة، من قريب أم من بعيد.

بل يأمر الإسلام بهدم كل مؤسسة لا تقوم على تقوى من الله ورضوان، ولو اتخذت صورة المسجد الذي تؤدى فيه الصلاة ظاهرًا، كما أمر الله رسوله ﷺ بهدم مسجد الضرار، الذي اتخذه المنافقون ضرارًا وكفرًا وتفريقًا بين المؤمنين، وإرصادًا لمن حارب الله ورسوله من قبل.

طريق التشريع:

ويأتي دور التشريع، ليقوم بحياطة «الربانية» وتقويتها وحمايتها من كل أذى أو عدوان عليها، أو انتقاص منها.

ولهذا يرفض المجتمع المسلم الإلحاد والإباحية، ويعاقب على الردة والفسوق، أعني على الجهر بهما.

فأما من استخفى بكفره أو بفسقه، فحسابه على الله؛ لأن المستخفي لا يضر إلا نفسه.

أما المجاهر المعالن فيضر المجتمع كله، عن طريق العدوى، أو تطاير الشرر؛

---

(33) من شعر بشار بن برد.

ولهذا أجمع فقهاء الإسلام على عقوبة تارك الصلاة، والمجاهر بالإفطار في رمضان، وإن اختلفوا في تحديد العقوبة، حتى وصل بها بعضهم إلى حد القتل لتارك الصلاة خاصة، إذا أصر على تركها عمدًا بلا عذر. أما من تركها استخفافًا بحرمتها، أو إنكارًا لفرضيتها، فهو مارق يعاقب عقوبة المرتدين بالإجماع.

وليس في هذا «أي عقوبة المرتد والإباحي وهدم مؤسسات الكفر والنفاق» مصادرة للحرية، فإن حرية الفرد مقيدة بألا تمس نظام المجتمع وأسسه العقائدية والاجتماعية. كما أن حرية المرتد في المجاهرة بردته تصطدم بحرية المؤمنين في الحفاظ على إيمانهم. وهم جمهور المجتمع وسواده الأعظم، فكانت رعاية حريتهم أولى.

2 - ربانية المصدر والمنهج:

ذكرنا ما يتعلق بالمعنى الأول للربانية، وهو ربانية الغاية والوجهة، وبقي المعنى الآخر، وهو ربانية المصدر والمنهج. ونعني به: أن المنهج الذي رسمه الإسلام للوصول إلى غاياته وأهدافه، منهج رباني خالص؛ لأن مصدره وحي الله تعالى إلى خاتم رسله محمد ﷺ.

لم يأتِ هذا المنهج نتيجة لإرادة فرد، أو إرادة أسرة، أو إرادة طبقة، أو إرادة حزب، أو إرادة شعب، وإنما جاء نتيجة لإرادة الله، الذي أراد به الهدى والنور، والبيان والبشرى، والشفاء والرحمة لعباده. كما قال تعالى يخاطبهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾ [النساء: 174]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: 57].

وقال يخاطب رسوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107].

﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [النحل: 89].

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: 1].

موضع الرسول في هذا النهج الإلهي:

الله تعالى هو صاحب هذا المنهج؛ ولهذا يضاف إليه فيقال: منهج الله، أو «صراط الله» على حد تعبير القرآن العزيز. وإضافته إلى الله تعني أن الله - جل شأنه - هو واضعه ومحدده، كما أنه غايته ومنتهاه.

أما الرسول ﷺ فهو الداعي إلى هذا المنهج أو هذا الصراط، المبين للناس ما اشتبه عليهم من أمره. يقول تعالى مخاطبًا رسوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ 52 صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ﴾ [الشورى: 52، 53].

ويقول تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ 15 قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [يونس: 15، 16].

ويقول: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ 1 مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ 2 وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ

3 إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: 1 – 4].

ومن تدبر القرآن وجد الرسول ﷺ فيه مجرد عبد مأمور تخاطبه سلطة أعلى منه، محيطة به، قادرة عليه، تملك عتابه ولومه إذا اجتهد فأخطأ في بعض الأمور، كما في قصة ابن أم مكتوم، وأسرى بدر، والمنافقين المتخلفين في غزوة تبوك، وزينب بنت جحش، وغيرها. فالحقيقة أن القرآن هو كلام الله وحده وتنزيل رب العالمين.

فليس لمحمد ﷺ من هذا القرآن إلا التلقي والحفظ، ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلى: 6]، ثم التبليغ والدعوة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: 67]، ثم التفسير والبيان: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: 44].

والسنة التي بينت القرآن، هي نفسها وحي إلهي، ولكنه وحي غير متلو ولا معجز كالقرآن الكريم.

وما جاء في هذه السنة عن طريق الاجتهاد، فإن الله تعالى لا يقره على الخطأ فيه، بل ينزل الوحي مصححًا ومصوبًا، أو مثبتًا ومؤكدًا.

ميزة الإسلام بين المناهج القائمة في العالَم:

إن الإسلام هو المنهج أو المذهب أو النظام الوحيد في العالم، الذي مصدره كلمات الله وحدها، غير محرفة ولا مبدلة ولا مخلوطة بأوهام البشر، وأغلاط البشر، وانحرافات البشر.

والمناهج أو الأنظمة التي نراها في العالم إلى اليوم ثلاثة، فيما عدا الإسلام طبعًا:

1 – منهج أو مذهب أو نظام مدني بشري محض، مصدره التفكير العقلي أو

الفلسفي لبشر فرد، أو مجموعة من الأفراد، كالشيوعية والرأسمالية والوجودية، وغيرها.

2 - منهج أو نظام ديني بشري كذلك، مثل: الديانة البوذية القائمة في الصين واليابان والهند، والتي لا يعرف لها أصل إلهي، أو كتاب سماوي. فمصدرها إذن فكر بشري.

3 - منهج أو مذهب ديني محرف، فهو - وإن كان إلهيًا في أصله - عملت فيه يد التحريف والتبديل فأدخلت فيه ما ليس منه، وحذفت منه ما هو فيه، واختلط فيه كلام اللَّه بكلام البشر، فلم يبق ثمت ثقة بربانية مصدره، وذلك كاليهودية والنصرانية، بعد ثبوت التحريف في التوراة والإنجيل نفسيهما، فضلًا عما أضيف إليهما من شروح وتأويلات ومعلومات بشرية، بدلت المراد من كلام اللَّه.

أما الإسلام؛ فهو المنهج الفذ الذي سلم مصدره من تدخل البشر، وتحريف البشر، ذلك أن اللَّه تعالى تولى حفظ كتابه ودستوره الأساسي بنفسه، وهو القرآن المجيد، وأعلن ذلك لنبيه ولأمته فقال: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: 9].

وكان وعد ربي حقًا، فقد صدقت القرون المتوالية - على رغم ما حل بالمسلمين فيها من كوارث مروعة، ونوازل هائلة - هذه النبوءة القرآنية. وبقي القرآن، كما أنزله اللَّه، وكما تلاه محمد ﷺ، وكما نقله عنه أصحابه، وتلقاه عنهم من تبعهم بإحسان. ولم تزل الأجيال تلو الأجيال تتوارثه وتتعبد بتلاوته وترتيله وحفظه وكتابته. ولا عجب أن ظل - كما كان - مكتوبًا في المصاحف، متلوًا بالألسنة،

محفوظًا في الصدور منقولًا إلينا – بالتواتر اليقيني – نقـلًا حرفيًـا، بـنفس طريقـة كتابته، منذ عهد الخليفة الثالث عثمان. رغم تطور طرائق الرسم والإملاء. وبنفس طريقة تلاوته منذ العهد النبوي، حتى أصوات الغـن والمـد والإظهـار والإدغـام، والإقلاب والإخفاء.

الإسلام منهج رباني خالص:

إن الإسلام منهج رباني، مائة في المائة (100٪).

عقائده وعباداته، وآدابه وأخلاقه، وشرائعه ونظمه، كلها ربانية إليهة. أعني في أسسها الكلية ومبادئها العامة، لا في التفريعات والتفصيلات والكيفيات.

عقيدة ربانية:

عقائد الإسلام عقائد ربانية، مستفادة من كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، من القرآن الكريم الذي أرسى دعائمها، ووضح معالمها، ومـن صحيح السنة المبينة للقرآن.

ليست هذه العقائد من وضع مجمـع مـن المجـامع، ولا مـن إضـافة هيئـة مـن الهيئات، ولا من إملاء «بابا» من البابوات.

ليس لأحد من تلاميذ محمد ﷺ، ولا من أئمة الإسلام وفقهائه الكبار، أن يغير ويبدل في عقيدة الإسلام بالزيادة أو النقص أو التحوير، كما فعل «سانت بولس» في العقيدة النصرانية، حتى إنَّ بعض الكُتاب الغربيين المحـدثين ليسـمون المسـيحية الحاضرة: «مسيحية بولس»، وليست مسيحية عيسى ابن مريم.

وليس لمؤتمر ولا لمجمع ولا لجماعة أيًّا كانت مكانتها أن تضيف شيئًا إلى العقيدة الإسلامية، أو تحذف منها شيئًا. على غرار ما فعلت المجامع المسيحية، ابتـداءً مـن

«مجمع نيقية» الشهير سنة (325م)، فما بعده من مجامع بعضها قرر ألوهية المسيح، وبعضها قرر موقع الروح القدس من الشركة الثلاثية المعروفة: الأب والابن والروح القدس. وبعضها أعطى البابا سلطة إصدار قرارات الحرمان وصكوك الغفران ... وبعضها ... وبعضها ...

أما العقيدة الإسلامية فلا تتلقى إلا من الوحي الإلهي.

إن العقيدة إنما هي قضايا صادقة أو هي حقائق عن الوجود ورب الوجود. فليست العقيدة من قبيل ما نسميه في المنطق والبلاغة: «إنشاء»، إنما هي من قبيل «الخبر»؛ لأنها خبر عن القضايا الكبرى في الوجود: عن الله وأسمائه وصفاته، عن عوالم الغيب، عن مستقبل الحياة والإنسان، عن الجزاء وأنواعه وصوره، وغير ذلك مما وراء الطبيعة المشاهدة ما لا يدركه الحس، ولا يهدي إلى تفصيله العقل.

ومن ثَمَّ لا يملك أن يخبر عن هذه القضايا إلا من يحيط بها علمًا.

وليس ذلك إلا صاحب هذا الكون، وهو الله تعالى.

أما البشر المخلوقون، فلا يدخل علم هذه الغيبيات في اختصاصهم، وإذا قالوا في ذلك شيئًا، كان قولًا بغير علم، وبغير برهان. وفي هذا يقول القرآن منكرًا على المشركين معتقداتهم في الملائكة وغيرها: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: 19]، ويقول سبحانه: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ [الكهف: 51]، ويقول الله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: 110].

ولو أن بعض الناس حاول أن يحدث فيها شيئًا من عند نفسه، لكانت محاولته مردودة عليه بأمر صاحب الرسالة نفسه ﷺ الذي قال: «**من أحدث في أمرنا هذا ما**

ليس منه؛ فهو رد»[34]، أي: باطل مردود عليه. ويقول تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ [الأعراف: 3].

عبادات ربانية:

والعبادات الإسلامية – أعني الشعائر التي يُتَعَبَّد بها اللَّه تعالى – عبادات ربانية.

فالوحي الإلهي هو الذي رسم صورها، وحدّد أشكالها، وأركانها وشروطها، وعين زمانها فيما يشترط فيه الزمان، ومكانها فيما يشترط فيه المكان.

ولم يقبل من أحد من الناس – مهما كان مجتهدًا في الدين، ومهما علا كعبه في العلم والفتوى – أن يبتكر صورًا وهيئات من عنده للتقرب إلى اللَّه تعالى. فإن هذا افتئات على صاحب الحق الأوحد في ذلك، وهو اللَّه تعالى صاحب الخلق والأمر.

ومن فعل شيئًا من ذلك فقد شرع في الدين ما لم يأذن به اللَّه، وعد عمله بدعة وضلالة، ورد عليه عمله، كما يرد الصيرفي النَّقَّاد العملة الزائفة.

فقد جاء الإسلام في مجال العبادة بأصلين كبيرين، لا يتساهل في واحد منهما قيد شعرة:

الأول: ألا يُعْبَد إلا اللَّه؛ فلا عبادة لأحد سواه، ولا لشيء سواه، كائنًا ما كان، في الأرض أو في السماء، عاقلًا أو غير عاقل. وهذا ما تقتضيه ربانية الغاية والوجهة.

والثاني: ألا يُعْبَد اللَّه إلا بما شرعه؛ وما شرعه إنما يعرف بواسطة رسله المبلغين عنه. وخاتمهم محمد ﷺ الذي نسخ شرعه كل شرع قبله، والذي كتب اللَّه له الخلود

---

(34) متفق عليه: رواه البخاري في «الصلح» (2697)، ومسلم في «الأقضية» (1718)، عن عائشة.

وتكفل بحفظه إلى أن يرث اللَّه الأرض ومن عليها.

وما عدا ذلك فهو أهواء وبدع مرفوضة، وإن دفع إليها حسن النية، وشدة الرغبة في زيادة التقرب إلى اللَّه جل شأنه. ولكن النية الصالحة وحدها لا تعطي العمل صفة القبول ما لم تكن صورته مشروعة بالنص الثابت.

فالعمل المقبول له ركنان: أن يكون خالصًا للَّه، وأن يكون على سنة رسول اللَّه.

أم محدثات العصور، ومبتدعات العقول، فلا مكان لها في دين اللَّه، كما جاء في الحديث: «**إياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وإن كل بدعة ضلالة**»[35]، ويقول القرآن منكرًا: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: 21].

وبهذا سد الإسلام بابًا من أوسع أبواب الغلو والتحريف والتنطع، ولم يعط للمبتدعات في العبادة حق البقاء، وإن ظهرت يومًا بفعل الجهل والهوى، أو استمرت زمنًا بتأييد المستغلين للدين، أو المتاجرين باسمه.

ولهذا لم يخل قطر من الأقطار، ولا عصر من الأعصار، من أناس يدعون إلى السنة، ويقاومون البدعة، غير مبالين بما يصيبهم من الأذى في سبيل اللَّه.

كما أن عبادات الإسلام الكبرى بقيت في جوهرها وأصولها سالمة من التحريف، بعيدة عن يد المسخ والتبديل، التي تعرضت لها العبادات في أديان أخر.

---

(35) رواه أحمد (17144)، وقال مخرجوه: صحيح، وأبو داود في «السنة» (4607)، والترمذي في «العلم» (2676)، وقال: حسن صحيح، والحاكم في «العلم» (1/ 174)، وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (37)، عن العرباض بن سارية.

آداب ربانية:

والآداب والأخلاق الإسلامية آداب ربانية: بمعنى أن الوحي الإلهي هو الذي وضع أصولها، وحدد أساسياتها، التي لا بد منها لبيان معالم الشخصية الإسلامية. حتى تبدو متكاملة متميزة في مخبرها ومظهرها، عالمة بوجهتها وطريقها، إذا التبست على غيرها المسالك، واختلطت الدروب.

ولا غرو أن وجدنا القرآن الكريم ذاته يعنى برسم المعالم الرئيسية لأدب المسلم، وخلق المسلم، من الإحسان بالوالدين وخاصة إذا بلغا الكبر أو أحدهما، والإحسان بذوي القربى، ورعاية اليتيم، وإكرام الجار ذي القربى والجار الجنب، والصاحب بالجنب، وابن السبيل، والخدم، والعناية بالفقراء والمساكين، وتحرير الرقاب، والصدق في القول، والإخلاص في العمل، وغض الأبصار، وحفظ الفروج، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، والتواصي بالرحمة، والدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وأداء الأمانات إلى أهلها، والحكم بين الناس بالعدل، والوفاء بالعهود، وترك المنكرات، واجتناب الموبقات من الشرك والسحر والقتل والزنا والسُّكْر والربا، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات المؤمنات، والتولي يوم الزحف، وغيرها من كبائر الإثم وفواحشه، إلى غير ذلك من الأخلاق الإيجابية والسلبية، الفردية والاجتماعية.

حتى إننا نجد القرآن يعلم المسلمين أدب المشي إذا مشوا: ﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ﴾ [لقمان: 19]، ﴿ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ [الفرقان: 63]، ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا﴾ [الإسراء: 37].

وأدب التزاور إذا تزاوروا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ

حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَاۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ 27 فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [النور: 27، 28].

وأدب الجلوس إذا تجالسوا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: 11].

فضلًا عما زخرت به السنة من آداب تتعلق بالأكل والشرب، واللباس والتجمل، والنوم واليقظة، والدخول والخروج، والسفر والعودة، والتحية والاستئذان، حتى العطاس والتثاؤب، وقضاء الحاجة أو قضاء الشهوة.

ثم إن المصدر الأساسي للإلزام الخلقي في الإسلام، ليس هو اللذة ولا المنفعة، ولا العقل ولا الضمير، ولا العُرْف ولا المجتمع ولا التطور، ولا غير ذلك مما ذهبت إليه مدارس الفلسفة الخلقية؛ مثالية وواقعية. وإنما مصدر الإلزام، ومقياس الحكم الخلقي – في الأساس – هو الوحي الإلهي.

فالخير ما أمر الله به، والشر ما نهى الله عنه.

وبعبارة أخرى: الحسن ما حسنه الشرع، والقبيح ما قبحه الشرع.

وليس معنى هذا أن الشرع يأتي بتحسين ما يقبحه العقل، أو تقبيح ما يحسنه، فلم يُعْرَف ذلك في الأخلاق الإسلامية، ولا في الشريعة الإسلامية كلها. فهي شريعة ملائمة للفطرة السليمة، موافقة للعقل الرشيد.

ولا غرو أن أطلق القرآن على أصحاب الأخلاق الفاضلة وصف: «أولي الألباب» كما عقب على بعض أوامره ونواهيه بمثل قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: 151].

ولذلك نجد الأخلاق في الإسلام، لا تعتمد على مجرد الأمر الصارم، والتكليف التعبدي، بل تعتمد على مخاطبة العقول، واستثارة الضمائر، فهي أخلاق مفهومة معللة بالحكم والمصالح المترتبة عليها في الدنيا والآخرة، من مثل قوله تعالى في وصية لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ 17 وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ 18 وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾ [لقمان: 17 – 19].

ومثل ذلك في سورة الإسراء: ﴿فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا﴾ [الإسراء: 29]، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا﴾ [الإسراء: 32]، ﴿إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا﴾ [الإسراء: 37]، إلخ.

تشريعات ربانية:

والتشريعات الإسلامية لضبط الحياة الفردية والأسرية، والاجتماعية والدولية، تشرعيات ربانية: أعني في أسسها ومبادئها وأحكامها الأساسية، التي أراد الله أن ينظم بها سير القافلة البشرية، ويقيم العلاقات بين أفرادها وجماعاتها على أمتن القواعد، وأعدل المبادئ، بعيدًا عن قصور البشر، وتطرفات البشر، وأهواء البشر، وتناقضات البشر.

وكانت هذه هي المزية الأولى للتشريع الإسلامي على ما سواه من التشريعات قديمها وحديثها، شرقيها وغربيها، ليبراليها واشتراكيها. فهو التشريع الفذ في العالم الذي أساسه وحي الله وكلماته المعصومة من الخطأ، المنزهة عن الظلم:

﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الأنعام: 115].

وبهذا تقرر في الأصول الإسلامية أن الْمُشَرِّع الوحيد هو اللَّه.

فهو الذي يأمر وينهى، ويحلل ويحرم، ويكلف ويلزم، بمقتضى ربوبيته وألوهيته وملكه لخلقه جميعًا، فهو رب الناس، ملك الناس، إله الناس، له الخلق والأمر، وله الْمِلك والْمُلك[36]، وله الحمد في الأولى والآخرة، وله الحكم، وإليه يرجعون.

وليس لأحد غيره حق التشريع المطلق، إلا ما أذن اللَّه فيه مما ليس فيه نص ملزم. فهو في الحقيقة مجتهد أو مستنبط أو مقنن، وليس مشرعًا أو حاكمًا. حتى الرسول ﷺ نفسه ليس مشرعًا. وإنما وجبت طاعته؛ لأنه مبلغ عن اللَّه. فأمره من أمر اللَّه: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: 80].

فالحكم الشرعي – بما يتضمن من إيجاب أو استحباب. أو تحريم أو كراهة. أو إباحة – إنما هو للَّه تعالى. وليس لأحد غيره. ولهذا يُعَرِّف الأصوليون الحكم الشرعي بأنه: «خطاب اللَّه المتعلق بأفعال المكلفين اقتضاءً أو تخييرًا»[37]، ويعنون بالاقتضاء: الطلب. سواء كان طلبًا لفعل – وهو يشمل الوجوب والندب – أم طلبًا لكف وترك. وهو يشمل التحريم والكراهة. كما يعنون بالتخيير: الإباحة. وهو ما كان للمكلف خيرة في فعله وتركه.

---

(36) الْمِلك والْمُلك: الأولى بكسر الميم، والثانية بضمها.

(37) «المحصول» للرازي (1/ 89).

فالمخاطب والمكلف والملزم، والآمر والناهي، ليس إلا الله ﷻ.

وقد دمغ القرآن بالشرك الذي أعطوا سلطة التشريع المطلق لبعض البشر من رجال الأديان الذين بدلوا كلمات الله، وغيّروا شرع الله فأحلوا ما حرم الله، وحرموا ما أحل الله، افتراءً على الله.

وفي هذا يقول في شأن أهل الكتاب: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: 31].

اعتبر القرآن هؤلاء الأحبار والرهبان أربابًا أو آلهة معبودين من دون الله، وما كانت عبادتهم إلا طاعتهم في إحلال ما حرم الله، وتحريم ما أحل الله. أي إعطاءهم حق التشريع فيما لم يأذن به الله تعالى. كما فسر ذلك النبي ﷺ لعدي بن حاتم الطائي.

فقد كان عدي تنصَّر في الجاهلية. فلما دخل على النبي ﷺ وهو يقرأ هذه الآية من سورة التوبة: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قال: يا رسول الله، ما كنا نعبدهم! «كأنه حصر مفهوم العبادة في الركوع والسجود والصلاة ونحوها» فقال النبي ﷺ: «**ألم يكونوا يحلون لكم الحرام فتحلوه، ويحرمون عليكم الحلال فتحرموه؟!**» قال: بلى. قال: «**فتلك عبادتكم إياهم**»[38].

---

(38) عن عدي بن حاتم، قال: أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب ... قال: «**أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئًا استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئًا حرموه**» رواه الترمذي في «تفسير القرآن» (3095)، وقال: هذا حديث غريب، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (3293).

ولهذا نجد القرآن الكريم يعقب على كثير من الأحكام والتشريعات بلفت الأنظار إلى ربانية مصدرها، لتطمئن الأنفس، وتستريح الضمائر، وتنشرح الصدور للاستجابة والتنفيذ، ولا يتلكأ متلكئ أو يتوانى متوان في الطاعة لحكم الله.

من هذه التعقيبات قوله تعالى في ختام آية قسم الصدقات من سورة التوبة: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 60]، ونحوها في ختام آية قسمة المواريث الأولى في سورة النساء: ﴿ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ [النساء: 11].

وفي ختام آية المواريث الثانية: ﴿وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ 12 تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ [النساء: 12، 13].

وفي آخر آية في سورة النساء وهي متعلقة بالميراث أيضًا يختمها بقوله: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾ [النساء: 176].

وفي سورة الطلاق يعقب على أحكام الآية الأولى بقوله: ﴿وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥ﴾ [الطلاق: 1]، وبعد ثلاث آيات يذكر فيها بعض الأحكام ثم يقول: ﴿ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡ﴾ [الطلاق: 5].

وبعد أحكام النساء والمؤمنات المهاجرات في سورة الممتحنة يعقب فيقول: ﴿ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۖ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ [الممتحنة: 10].

وهذه التعقيبات وأمثالها ترشد وتذكر، وتنبه وتؤكد، على الأصل الذي تستمد منه هذه التشريعات، فهي ربانية سماوية، تصدر ممن لا راد لأمره ولا معقب لحكمه.

من ثمرات ربانية المصدر:

وإذا كان للربانية بالمعنى الأول - ربانية الغاية - تلك الثمرات والمزايا التي ذكرناها من قبل، فإن للربانية بالمعنى الثاني - ربانية المصدر والمنهج - مزايا وثمرات، لعلها أعظم خطرًا، وأبعد أثرًا.

وكل هذه المزايا والثمرات نتيجة لسبب واحد، هو كمال الله تعالى صاحب هذا المنهج ومصدره، أما المناهج والمذاهب الأخرى، فيلازمها نقص البشر، وعجز البشر، وقصور البشر.

1 - **العصمة من التناقض والتطرف:**

من هذه المزايا أو الآثار: العصمة من التناقض والاختلاف، الذي تعانيه المناهج والأنظمة البشرية والمحرفة.

فالبشر - بطبيعتهم - يتناقضون ويختلفون من عصر إلى عصر، بل في العصر الواحد من زمن إلى آخر، ومن قطر إلى قطر، بل في القطر الواحد من إقليم إلى آخر، وفي الإقليم الواحد من بيئة إلى أخرى، وفي الأمة الواحدة من شعب إلى آخر، وفي الشعب الواحد من فئة إلى أخرى، وفي الفئة الواحدة من فرد إلى آخر، بل في الفرد الواحد من حالة إلى أخرى، ومن وقت إلى آخر.

فكثيرًا ما رأينا تفكير الفرد في مرحلة الشباب يناقض تفكيره في مرحلة الكهولة، أو الشيخوخة، وكثيرًا ما وجدنا آراءه ساعة الشدة والفقر، تخالف آراءه في ساعة الرخاء والغنى.

فإذا كانت هذه هي طبيعة العقل البشري، وضرورة تأثره بالزمان والمكان والأوضاع والأحوال، فكيف نتصور براءته من التناقض والاختلاف، فيما يضعه

من مناهج للحياة، سواء كانت مناهج للتصور والاعتقاد، أم للعمل والسلوك؟! إن الاختلاف والتناقض لازمة من لوازمه لا ريب. وصدق الله العظيم إذ يشير إلى ذلك فيقول: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 82].

ومن مظاهر هذا التناقض: ما نراه ونلمسه في كل الأنظمة البشرية والدينية، الوضعية والمحرفة، من إفراط أو تفريط، كما هو واضح من موقفها من الروحية والمادية، أو من الفردية والجماعية، أو من الواقعية والمثالية، أو من العقل والقلب، أو من الثبات والتطور، وغيرها من المتقابلات، التي وقف كل مذهب أو نظام عند طرف منها مغفلًا الطرف الآخر، أو جائرًا عليه.

والسر في هذا - بعد القصور البشري العام - أن تفكير الإنسان في وضع فلسفة أو منهاج، أو مذهب، غالبًا ما يكون نتيجة - مباشرة أو غير مباشرة - لرد فعل، وانعكاسًا لأوضاع آنية وأحوال بيئية، تؤثر في تصوره للأشياء، وحكمه على الأمور، شعر أم لم يشعر، شاء أم لم يشأ.

ولا يستطيع منصف أن ينزه أكابر الفلاسفة - وإن توافر فيهم الإخلاص في طلب الحقيقة - عن التأثر بأزمانهم وبيئاتهم؛ فضلًا عن التأثر بوراثاتهم وأمزجتهم الشخصية.

2 - **البراءة من التحيز والهوى:**

ومن ثمرات هذه الربانية في الإسلام: اشتماله على العدل المطلق، وبراءته من التحير والجور واتباع الهوى، مما لا يسلم منه بشر، كائنًا من كان.

أجل، لا يخلو بشر غير معصوم - مهما علا كعبه في العلم والتقى - من التأثر

بالأهواء والميول والنزعات الشخصية والأسرية والإقليمية والحزبية والقومية. وإن كان في ظاهر أمره يرغب في الإنصاف. ويحرص على الحياد.

فإذا كان لهذا البشر هوى معين، أو ميول خاصة، توجهه وتلون تفكيره، وتميل بحكمه إلى حيث يهوى ويحب، فهذه هي الطامة. فقد اجتمع فيها الهوى التبع إلى القصور البشري الذاتي. فزاد الطين بلة: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص: 50].

وقد قال الله لنبيه داود: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: 26]، وسبيل الله هو سبيل الحق والعدل، المنزه عن التحيز والجور والانحراف.

ومقتضى ما ذكرناه: أنه لا يسلم منهج أو نظام وضعه البشر أو تدخلوا فيه. من التأثر بالأهواء المضلة عن سبيل الله، المتحيزة إلى جانب دون جانب، أو فريق دون فريق.

أما «نظام الله» أو «منهج الله» فقد وضعه رب الناس للناس، وضعه من لا يتأثر بالزمان والمكان؛ لأنه خالق الزمان والمكان، ومن لا تحكمه الأهواء والنزعات؛ لأنه المنزه عن الأهواء والنزعات، ومن لا يتميز لجنس ولا لون ولا فريق؛ لأنه رب الجميع، وكلهم عباده، فلا يتصور تحيزه لفئة دون أخرى، ولا لجيل دون غيره، ولا لشعب على حساب غيره من الشعوب.

ومن ثَمَّ اعتبر القرآن ما عدا شريعة الله وحكمه «أهواء» يجب الحذر منها ومن أصحابها. يقول الله تعالى لرسوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا

تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: 18]، ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: 49].

3 - **الاحترام وسهولة الانقياد:**

ومن ثمرات هذه الربانية كذلك: أنها تضفي على النظام أو المنهج الرباني قدسية واحترامًا، لا يظفر بهما أي نظام أو منهج من صنع البشر.

ومنشأ هذا الاحترام والتقديس اعتقاد المؤمن بكمال الله تعالى، وتنزهه عن كل نقص، في خلقه وأمره، أنه تعالى أحسن كل شيء خلقه، وأتقن كل شيء صنعه، كما قال في كتابه: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: 88]، وكذلك أحكم كل شيء شرعه، وكل كتاب أنزله، كما قال تعالى عن القرآن الكريم: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: 1].

فهو الحكيم فيما خلق وقدر، والحكيم فيما أمر ونهى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: 3]. ولا تجد في شرع الرحمن من تهافت. فتبارك الله أحسن الخالقين، وأحكم الحاكمين.

ويتبع هذا الاحترام والتقديس: الرضا بكل تعاليم هذا النظام وأحكامه، وتقبله بقبول حسن، مع انشراح الصدر، وإقناع العقل، وطمأنينة القلب، فهذا من موجبات الإيمان بالله ورسوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: 65].

ويلزم من هذا الاحترام والتقديس وحسن القبول: المسارعة إلى التنفيذ، والسمع والطاعة في المنشط والمكره، دون تلكؤ أو تكاسل، أو تحايل للهرب من تكاليف النظام والتزاماته، والتقيد بأوامره ونواهيه.

ونكتفي هنا بضرب مثلين يُبيِّنان مواقف المسلمين والمسلمات في العهد النبوي، من شرع الله تعالى وأمره ونهيه:

«أولهما: ما وقع من المؤمنين بالمدينة عقب تحريم الخمر.

وقد كان للعرب ولع بشربها وأقداحها ومجالسها. وقد عرف الله ذلك منهم فأخذهم بسنة التدرج في تحريمها، حتى نزلت الآية الفاصلة، تحرمها تحريمًا باتًّا. وتعلن أنها: ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [المائدة: 90]، وبهذا حرم النبي ﷺ شربها، وبيعها، وإهداءها لغير المسلمين، فما كان من المسلمين حينذاك إلا أن جاءوا بما عندهم من مخزون الخمر وأوعيتها، فأراقوها في طرق المدينة إعلانًا عن براءتهم منها.

ومن عجيب أمر الانقياد لشرع الله أن فريقًا منهم حين بلغته هذه الآية كان منهم من في يده الكأس، قد شرب بعضها وبقي بعضها في يده، فرمى بها من فيه، وقال – إجابة لقول الله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: 91]: قد انتهينا يا رب!

ولو وازنا هذا النصر المبين في محاربة الخمر والقضاء عليها في البيئة الإسلامية، بالإخفاق الذريع الذي منيت به الولايات المتحدة الأمريكية[39] حين أرادت يومًا أن تحارب الخمر بالقوانين والأساطيل – لعرفنا أن البشر لا يصلحهم إلا تشريع السماء، الذي يعتمد على الضمير والإيمان قبل الاعتماد على القوة والسلطان.

وثانيهما: موقف النساء المسلمات الأول مما حرم الله عليهن من تبرج الجاهلية،

---

(39) اقرأ هذه الموازنة بتفصيل في كتابنا: «الإيمان والحياة»، في موضوع الإيمان والأخلاق، (ص: 201 – 205)، مكتبة وهبة، الطبعة السادسة عشر (2007م).

وما أوجب عليهن من الاحتشام والتستر، فقد كانت المرأة في الجاهلية تمر كاشفة صدرها - لا يواريه شيء - وكثيرًا ما أظهرت عنقها وذوائب شعرها، وأقراد آذانها فحرم اللَّه على المؤمنات تبرج الجاهلية الأولى، وأمرهن أن يتميزن عن نساء الجاهلية، ويخالفن شعارهن ويلزمن الستر والأدب في هيئاتهن وأحوالهن، بأن يضربن بخمرهن على جيوبهن: أي يشددن أغطية رءوسهن، بحيث تغطي فتحة الثوب من الصدر، فتواري النحر والعنق والأذن.

وهنا تروي لنا السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، كيف استقبل نساء المهاجرين والأنصار في المجتمع الإسلامي الأول، هذا التشريع الإلهي، الذي يتعلق بتغيير شيء هام في حياة النساء، وهو الهيئة والزينة والثياب.

قالت عائشة: «يرحم اللَّه نساء المهاجرات الأُوَل ... لما أنزل اللَّه: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: 31] شققن مروطهن - أكسية من صوف أو خز - فاختمرن بها»[40].

وجلس إليها بعض النساء يومًا، فذكرن نساء قريش وفضلهن، فقالت: «إن لنساء قريش لفضلًا، وإني واللَّه ما رأيت أفضل من نساء الأنصار، ولا أشد تصديقًا لكتاب اللَّه، ولا إيمانًا بالتنزيل. لقد أنزلت سورة النور: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ فانقلب رجالهن إليهن، يتلون عليهن ما أنزل اللَّه فيها، ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته وعلى كل ذي قرابته، فما منهن امرأة إلا قامت إلى مرطها المرحل - المزخرف الذي فيه تصاوير - فاعتجرت به - شدته على رأسه - تصديقًا وإيمانًا بما أنزل اللَّه من كتابه فأصبحن وراء رسول اللَّه ﷺ معتجرات، كأن على رءوسن

(40) رواه البخاري في «تفسير القرآن» (4758)، عن عائشة.

الغربان»[41].

هذا هو موقف النساء المؤمنات مما شرع الله لهن، موقف المسارعة إلى تنفيذ ما أمر، واجتناب ما نهى، بلا تردد، ولا توقف ولا انتظار، أجل لم ينتظرن يومًا أو يومين أو أكثر حتى يشترين أو يخطن أكسية جديدة تلائم غطاء الرءوس، وتتسع لتضرب على الجيوب، بل أي كساء وجد، وأي لون تيسر، فهو الملائم والموافق، فإن لم يوجد شققن من ثيابهن ومروطهن، وشددنها على رءوسهن، غير مباليات بمظهرهن الذي يبدون به كأن على رءوسهن الغربان، كما وصفت أم المؤمنين»[42].

4 - **التحرر من عبودية الإنسان للإنسان:**

ومن ثمرات هذه الربانية - فوق ذلك كله - تحرر الإنسان من العبودية للإنسان.

ذلك أن العبودية أنواع وألوان، وإن من أشدها خطرًا، وأبعدها أثرًا لهو خضوع الإنسان لإنسان مثله، يحل له ما شاء متى شاء، ويحرم عليه ما شاء كيف شاء، ويأمره بما أراد، فيأتمر، وينهاه عما يريد فينتهي. وبعبارة أخرى: يضع له «نظام حياة» أو «منهج حياة» غلا يسعه إلا الإذعان والتسليم والخضوع.

والحق أن الذي يملك وضع هذا النظام أو المنهج وإلزام الناس به، وإخضاعهم له هو الله وحده، رب الناس، ملك الناس، إله الناس. فمن حقه وحده أن يأمرهم

---

(41) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (14406)، وضعفه الألباني في «غاية المرام» (483)، عن عائشة.

(42) انظر كتابنا: «الحلال والحرام» (ص: 316 - 318)، طبعة المكتب الإسلامي، الطبعة الخامسة عشرة.

وينهاهم، وأن يحل لهم ويحرم عليهم، بمقتضى ربوبيته تعالى وخلقه لهم، وإنعامه عليهم بكل أجناس النعم وأصنافها وأفرادها: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: 53].

فإذا ادَّعى بعض الناس لأنفسهم - أو ادُّعي لهم - هذا الحق، فقد نازعوا الربوبية حقها، وزاحموا الألوهية في سلطانها، واتخذوا من عباد الله عبادًا لهم، وهم مخلوقون مثلهم، يجري عليهم من سنن الله ما يجري عليهم.

ولا غرو أن أنكر القرآن الكريم على أهل الكتاب تنازلهم عن حريتهم التي ولدوا عليها، ورضاهم بالعبودية لأحبارهم ورهبانهم، الذين أصبحوا يملكون سلطة التشريع لهم، أمرًا ونهيًا، وتحليلًا وتحريمًا، دون أن يكون لأحد حق في اعتراض أو نقد أو مراجعة، وقد دمغ القرآن أهل الكتاب لذلك بالشرك وعبادة غير الله.

وفي هذا يقول القرآن الكريم: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: 31].

ولما كانت دعوة الإسلام دعوة تحرير شامل للإنسان من العبودية لغير الله، وجدنا القرآن الكريم يوجه نداءه إلى أهل الكتاب كافة أن يتحرروا من هذه العبودية لغير الله، وأن يفردوا الله وحده بالعبادة والخضوع. وذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 64].

وبهذه الآية كان يختم النبي ﷺ رسائله إلى ملوك النصارى وأمرائهم.

* * *

الفصل الثاني

الإنسانية

ومن خصائص الإسلام العامة بعد الربانية: الإنسانية.

فالإسلام يمتاز بنزعته الإنسانية الواضحة الثابتة الأصيلة، في معتقداته وعباداته، وتشريعاته وتوجيهاته، إنه دين الإنسان.

بين الربانية والإنسانية:

وربما خيل لكثير من الناس – لأول وهلة – أن هنا تناقضًا بين إثبات خصيصة «الربانية» وخصيصة «الإنسانية» في وقت واحد.

فالظاهر والمفهوم والمفترض في أذهانهم، أن ثبوت إحدى الخصيصتين ينفي الأخرى، ويطردها، شأن كل متضادين لا يجتمعان. فإذا وجد اللَّه لم يبق مكان للإنسان!

وإذا كنا قد قلنا في خصيصة «الربانية»: إنها تعني – من ناحية – ربانية الغاية والوجهة. على معنى أن حسن الصلة باللَّه تعالى وابتغاء مرضاته هو غاية الإنسان وهدف الإسلام.

كما تعني – من ناحية أخرى – ربانية المصدر والمنهج. على معنى أن الإسلام منهج إلهي. صاحبه وشارعه هو اللَّه وحده. وإنما الرسول مبلغ عنه – فمعنى هذا أن لا موضع للإنسان.

وأين يكون مكان الإنسان ما دام اللَّه هو الغاية، ومرضاته هي الهدف والوجهة

وما دام الله أيضًا هو واضع المنهج إلى تلك الغاية؟

فإذا أضفنا إلى ذلك وجوب الإيمان بقدر الله تعالى، فقد انتفى – في نظر هؤلاء – كل دور للإنسان.

فيقولون: إن إثبات قدر الله يلغي دور إرادة الإنسانية، وإثبات شرع الله يلغي دور التفكير الإنساني. وماذا يبقى للإنسان إذا أُلغي دوره إراديًا وفكريًا؟ وهل الإنسان إلا إرادة وفكر؟!!

هذ ما يخالج تفكير بعض الناس، الذين يفهمون قدر الله وشرعه، ودور الإنسان معهما، ذلك الفهم المغلوط، معتمدين على النظرة «الجبرية» للقدر، والنظرة «الظاهرية» للشرع. وكلتاهما خاطئة كما سنبين بعد.

ليس الإنسان ندًّا لله:

على أن الخطأ الأول والأساسي في موقف هؤلاء هو: النظر إلى الله والإنسان كأنهما ندان متقابلان! وهؤلاء ينسون ما هو الله؟ وما هو الإنسان؟

والحقيقة التي لا ريب فيها أن الله هو صاحب هذا الكون وربه ومدبره، ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَلا ر رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: 164].

والإنسان هو مخلوق حادث من مخلوقات الله جل شأنه. ولا يتصور أن يكون المخلوق ندًّا للخالق، ولا الحادث مضاهيًا للأزلي، ولا الفاني كفوًا للأبدي الباقي، ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ 1 ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ 2 لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ 3 وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: 1 – 4].

إن الإنسان مخلوق لله، ولكنه مخلوق ذو مكانة خاصة، وله شأن ودور في هذا

الوجود. والذي منحه هذه المكانة، وجعل له هذا الشأن والدور هو خالقه ذاته، هو الله تبارك وتعالى.

فلننظر للإنسان إذن على هذا الأساس، وبهذا المنظار.

إنه مخلوق، ولكنه أكرم المخلوقات على الله تعالى، وهو الوحيد من بينها - على كثرتها - الذي اختاره الله ليكون خليفة في الأرض، وكرمه بالعقل، وهداه السبيل وعلمه البيان، وعلمه ما لم يكن يعلم، وكان فضل الله عليه عظيمًا.

لا تنافي بين الربانية والإنسانية:

إذا عرفنا ما ذكرناه من حقائق؛ اتضح لنا:

أن الإسلام - مع ربانيته في غايته ووجهته - هو إنساني أيضًا في الغاية والوجهة.

ومن هنا نقول: إن للإنسان مكانًا - أي مكان - في غايات الإسلام العليا، وأهدافه الكبرى، مع تقرير غايته الربانية وإبرازها وتثبيتها، إذ لا تنافي بين الغاية الربانية والغاية الإنسانية، بل هما متكاملتان.

أجل، لا تنافي - في نظر الإسلام - بين الربانية والإنسانية، فتقدير إنسانية الإنسان هو من الربانية التي قام عليها الإسلام.

فالله هو الذي كرم هذا الإنسان. ونفخ فيه من روحه، وجعله في الأرض خليفة وسخر له ما في السماوات وما في الأرض جميعًا منه، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة.

وإذا كان مصدر الإسلام «ربانيًّا» فإن «الإنسان» هو الذي يفهم هذا المصدر ويستنبط منه، ويجتهد على ضوئه، ويحوله إلى واقع تطبيقي ملموس.

وإذا كانت الربانية هي غاية المجتمع المسلم، كما هي غاية الفرد المسلم، فإن مضمون هذه الغاية هو: سعادة الإنسان، وفوزه بالنعيم المقيم في جوار رب العالمين.

وإذا كانت الربانية هي رسالة المسلم، فإن أهداف هذه الربانية هي: تحقيق الخير للإنسان والسمو به، والحيلولة بينه وبين الانحراف والسقوط.

والمعاني الربانية التي توجه المسلم، من الإيمان والتوحيد والإنابة والرجاء والخوف ... إلخ هي في حقيقتها معان إنسانية؛ لأنها جزء من كيان الإنسان كما فطره الله، وهي سر من أسرار قوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: 29].

وفكرة الإسلام: أن الإنسان لا يستطيع أن يكون ربانيًّا حقًّا، دون أن يكون إنسانيًّا، كما لا يستطيع أن يكون إنسانيًّا حقًّا، دون أن يكون ربانيًّا.

إن الربانية – باعتبارها غاية ووجهة – تقتضي إخلاص النية والعمل والوجهة لله وحده، وجعل رضوانه ومثوبته نهاية المقصد، وغاية السعي وراء كل حركة وكل قول أو عمل.

ولكن المقصود بهذا كل هو تحرير الإنسان، وإسعاد الإنسان، وتكريم الإنسان وحماية الإنسان، والسمو بالإنسان.

فهذه كلها أهداف وغايات يحرص الإسلام عليها، ويسعى إليها، ويعمل بكل وسيلة على بلوغها والاجتهاد في تحقيقها.

إيجابية الإنسان أمام القدر الإلهي:

والذي يراه الدارس للإسلام، أن إثبات القدر الإلهي لا ينفي إيجابية الإنسان

فوق هذه الأرض، ودوره في هذا الكون.

فإن اللَّه الذي خلق الإنسان هو الذي منحه العقل، ومنحه الإرادة، ومنحه القدرة، فهو بالعقل يفكر، وبالإرادة يرجح، وبالقدرة ينفذ. وهذه كلها منح من اللَّه للإنسان. فهو قادر بقدرة اللَّه، ومريد بإرادة اللَّه. وهذا معنى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: 30]، فالإنسان يشاء؛ لأن اللَّه شاء له أن يشاء. وهو معنى: «لا حول ولا قوة إلا باللَّه» أي أن الإنسان له حول وقوة، يجلب بهما النفع، ويدفع بهما الضرر، ولكن حوله وقوته ليسا من ذاته ولا بذاته، بل حوله وقوته باللَّه، ومن اللَّه.

وعلى هذا الأساس أمر اللَّه الإنسان ونهاه، وبعث له الرسل، وأنزل عليه الكتب، ووضع نصب عينيه الثواب والعقاب. ولولا أن الإنسان ذو إرادة وقدرة، ما كان لتحميله أمانة التكاليف معنى، ولا كان ثوابه وعقابه مما يوافق العدل الإلهي، والحكمة الإلهية، ولا كان هناك معنى لاستخلافه في الأرض، واستعماره فيها كما قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: 61]، أي طلب إليكم عمارتها.

إن الإنسان مخلوق للَّه، ولكنه مخلوق متميز بمواهبه وملكاته وقواه الروحية والعقلية والمادية، التي أهّله اللَّه بها ليحمل مسئولية الخلافة وأمانة التكاليف، وهي أمانة بلغت من العِظَم والثِّقل مبلغًا عَبَّرَ عنه القرآن بهذه الصورة الفنية البليغة حين قال: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [الأحزاب: 72].

إن الإنسان مخلوق مكلف مسئول، وعليه أن يكدح حتى يلقى ربه، فيجزيه بكدحه إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر. ولهذا وجه اللَّه إليه الخطاب بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

﴿ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: 6].

ولا ينبغي للإنسان أن يغره شيء، أو يخدعه خادع عن ربه وما له عليه من حق. وإن كان نفر من بني الإنسان للأسف غرتهم الحياة الدنيا، وغرهم بالله الغرور، واستحقوا أن يناديهم ربهم بهذا النداء العاتب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ 6 ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ 7 فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: 6 – 8].

بين العقل الإنساني والوحي الإلهي:

وإذا كان الإسلام منهجًا إلهيًا وضعه رب الناس للناس، فليس معنى هذا هو إلغاء دور الإنسان أمام هذا المنهج، وتنحيته من طريقه، والحكم عليه بالسلبية المطلقة تجاهه، فليس له إلا التلقي والتنفيذ والتسليم، دون أن يقول لِمَ؟ أو كيف؟ إذ لا تكافؤ بين الوحي الإلهي والعقل الإنساني، فإذا قال الوحي كلمته، فليس على العقل إلا الإذعان والتسليم.

وهذا في الواقع غير سليم.

فإن القدر الإلهي لم يلغ دور الإنسان وفاعليته في الكون، مع وجود يد الله تعالى فيه، ومع انعدام التكافؤ بين الإرادة الإلهية، والإرادة الإنسانية، أو بين قدرة الخالق، وقدرة المخلوق.

وكذلك لا يلغي الوحي الإلهي دور العقل الإنساني وإيجابيته في فهم الوحي، والاستنباط منه والقياس عليه، وملء ما سكت عنه من فراغات تشريعية.

إن وجود النص الإلهي المقدس، ليس عائقًا للعقل عن التحليق والإبداع، فقد ترك الوحي للعقل مجالات عديدة يثبت فيها ذاته، ويبرز قدراته.

لقد ترك الوحي للعقل أمورًا كثيرة في مجالات متعددة:

1 - ترك للعقل في مجال العقيدة أن يهتدي إلى أعظم حقيقتين في هذا الوجود:

الحقيقة الأولى: وجود الله ووحدانيته - فوجود الله - كما تهدي إليه الفطرة السليمة - يقتضيه كذلك النظر الصحيح، والعقل الصريح، ولا غرو إذا أقام القرآن الأدلة من الكون ومن النفس على وجود الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: 190].

﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ 35 أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: 35، 36].

ويتبع ذلك الأدلة العقلية التي ذكرها القرآن على وحدانية الله بقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: 22]، ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ [الأنبياء: 24].

وفي موضع آخر يقول:

﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: 91].

الحقيقة الثانية: ثبوت الوحي والنبوة والرسالة. فالعقل هو الذي يثبت إمكان ذلك ووقوعه بالفعل، وأن هذا الشخص المعين رسول من عند الله. العقل هو الحكم الأول والأخير في هذه القضية، ولا مدخل هنا للاستدلال بالنقل ونصوص الوحي، إذ كيف يستدل بها لم يثبت بعد؟ ولهذا قال علماء الإسلام: إن العقل أساس النقل، ذلك أن العقل - بعد اقتناعه بوجوده تعالى وكماله سبحانه - يعلم أن من تمام حكمة الحكيم ورحمة الرحيم ألا يترك عباده سدى، وألا يدعهم في بحر لُجِّي

من الجهالة والعمى والغي، وهو قادر على أن يهديهم ويخرجهم من الظلمات إلى النور عن طريق مبلغين عنه.

والعقل بعد أن يعلم ذلك – لا يسلم لكل من ادعى أنه رسول الله، بل يطالبه بما يثبت صحة دعواه وأنه لا يمثل نفسه، وإنما يمثل إرادة الله الذي أرسله، فيطالبه بالآية المعجزة التي لا يقدر عليها إلا الله تعالى.

والعقل هو الذي يميز بين الآيات المعجزة الحقيقية، التي لا تظهر إلا على أيدي رسل الله حقًّا، وبين مظاهر الخفة والشعوذة التي تظهر على أيدي السحرة والدجالين.

والعقل هو الذي يعرف وجه دلالة المعجزة الخارقة على صدق من أظهرها الله على يديه، وأنها تصديق من الله له في دعواه، فهي بمثابة قوله: «صدق عبدي فيما يبلغ عني» والله تعالى لا يصدق الكاذب؛ لأن تصديق الكاذب كذب – والكذب محال على الله تعالى. كل هذه مقدمات عقلية محضة ولولاها ما ثبت الوحي أصلًا، ولا قام الدين رأسًا.

والعقل ينظر في سيرة كل شخص يدعي الرسالة ويتأمل في صفاته وأخلاقه وأقواله وأعماله، ومدخله ومخرجه، ليعرف منها: هل هو أهل لاصطفاء الله أم ليس كذلك، فيرفضه ويعرض عنه. ومن أجل ذلك احتكم القرآن في إثبات صدق رسالة محمد ﷺ إلى العقول المفكرة وحدها، فقال في صرامة ووضوحه: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ﴾ [سبأ: 46].

وقال يخاطب الرسول: ﴿قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ «أى القرآن» عَلَيۡكُمۡ وَلَآ

أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [يونس: 16].

2 - وترك الوحي للعقل في مجال التشريع أن يجول ويصول في فهم النصوص في ضوء مقاصد الشريعة، فيفرع على الأصول، ويقيس على الفروع ويستنبط الأحكام، ويكيف الوقائع، ويرعى القواعد في جلب المصالح، ودرء المفاسد، ورفع الحرج وتحقيق اليسر، وتقدير الضرورات بقدرها، واعتبار العرف، ورعاية ظروف الزمان والمكان.

ولا عجب بعد أن اختلفت المشارب، وتعددت المذاهب، وتنوعت الأقوال، وخلف لنا العقل الإسلامي في ضوء الوحي، ثروة فقهية طائلة لها مكانها الرفيع في تراث الفقه العالمي.

3 - وترك للعقل في ميدان الأخلاق أن يصدر حكمه وفتواه في كثير من الأعمال، التي يلتبس فيها الخير بالشر، ويشتبه الحلال بالحرام، ولم يغفل شأنه، بجانب الوحي، كمصدر للإلزام الأدبي، ومقياس للحكم الخلقي.

فإن الشريعة نفسها، بعد أن بينت الحلال الصريح، والحرم الصريح تركت المنطقة التي تختلط فيها الأوصاف، ويشتبه فيها الحكم وفوضت لكل امرئ أن يستفتي فيها قلبه، ويتحرى فيها طمأنينة نفسه، أخذًا بالأحوط والأسلم. هكذا قضى الرسول الحكيم حيث يقول: «**الحلال بيّن، والحرام بيّن، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه**»(43). ويقول: «**استفت قلبك واستفت نفسك: البر ما اطمأنت إليه النفس**

(43) متفق عليه: رواه البخاري في «الإيمان» (52)، ومسلم في «المساقاة» (1599)، عن النعمان بن بشير.

واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك»(44).

4 - ثم ترك الوحي للعقل بعد ذلك أن يجول في آفاق هذا الكون العريض ما شاء، صاعدًا إلى الأفلاك وهابطًا إلى الأرض، ومتأملًا في النفس: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: 101]، ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ 20 وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: 20، 21].

ترك له أن يكشف من ظواهر هذا الكون ما استطاع، وأن يسخر من قواه ما قدر عليه، فكل ما فيه سخره الله فمنفعته: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: 13]، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ 32 وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ 33 وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: 32 - 34].

5 - ترك له أن يبتكر ويخترع في وسائل الحياة وأمور الدنيا ما شاء، ما دام ملتزمًا حدود الحق والعدل، **«أنتم أعلم بأمر دنياكم»**(45)، ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص: 77].

6 - ترك للعقل أن يستفيد من تجارب الآخرين، وينتفع بتراث السابقين، ومعارف

---

(44) رواه أحمد (18006)، وقال مخرجوه: إسناده ضعيف، والدارمي في «البيوع» (2533)، وحسن إسناده المنذري في «الترغيب والترهيب» (2683)، وحسنه النووي في «الأربعين»، الحديث السابع والعشرون، وقال الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (1734)، حسن لغيره، عن وابصة بن معبد.

(45) رواه مسلم في «الفضائل» (2363)، عن عائشة.

اللاحقين: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [الحشر: 2]، ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: 46]، ﴿ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [الأحقاف: 4]، ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: 43، والأنبياء: 7]. والحكمة ضالة المؤمن، فحيث وجدها فهو أحق بها.

وبهذا كله يتبين أن الوحي الإلهي لم يشل الفكر الإنساني ولم يجمده، بل كان له هاديًا ومعينًا في بعض المجالات، وترك له الحرية الكاملة والاستقلال المطلق في مجالات أخرى، وإنها لكثيرة ورحيبة.

القرآن . . . كتاب الإنسان:

وإذا نظرنا إلى المصدر الأول للإسلام وهو القرآن؛ كتاب الله، وتدبرنا آياته، وتأملنا موضوعاته واهتماماته، نستطيع أن نصفه بأنه، كتاب الإنسان. فالقرآن كله إما حديث إلى الإنسان، أو حديث عن الإنسان.

إن كلمة «الإنسان» تكررت في القرآن ثلاثًا وستين مرة، فضلًا عن ذكره بألفاظ أخرى، مثل: «بني آدم» التي ذكرت سبع مرات، وكلمة «الناس» التي تكررت حوالي مائتين وأربعين مرة، في مكي القرآن ومدنيه.

ولعل من أبرز الدلائل على ذلك، أن أول ما نزل من آيات القرآن على رسول الله – محمد ﷺ – خمس آيات من سورة العلق، ذكرت كلمة «الإنسان» في اثنتين منها، ومضمونها كلها العناية بأمر الإنسان.

هذه الآيات هي: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ 1 خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ 2 ٱقۡرَأۡ

وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ 3 ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ 4 عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: 1 – 5].

دلالة الآيات الأولى من الوحي:

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾.

إن هذه الآيات الكريمة التي تكتب في أقل من سطرين، والتي بدأ بها الوحي الإلهي تاريخًا جديدًا للبشرية، تعبر أوضح التعبير عن نظرة الإسلام إلى الإنسان وعلاقته بالله تعالى، وعلاقة الله تعالى به، إنها خطاب لمحمد ﷺ ولكل إنسان يفهم الخطاب من بعده.

الإنسان في هذه الآيات مأمور أن يقرأ، والقراءة هنا رمز لكل عمل نافع يقوم به الإنسان، وإنما خص القراءة بالذكر؛ لأنها نقطة الانطلاق للإنسان. ومفتاح رقيه؛ ولأن العمل في الإسلام يجب أن يقوم على العلم، والعلم مفتاحه القراءة.

وأمر الإنسان بالقراءة معناه: قدرته على أن يفعل، وقدرته على أن يترك أيضًا، وهذا يعني إثبات مسئوليته، ودور إرادته. فالآلة لا تُؤمر ولا تُنهى.

ولم يؤمر الإنسان هنا بمجرد قراءة، بل بقراءة مفيدة «باسم ربه» الخالق – والقرآن هنا حريص على التعبير عن ذات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، في هذا المقام باسم «الرب»، مضافًا إلى ضمير الْمُخَاطَب، وهو الإنسان. وذلك لما يوحي به اسم الرب من معاني التربية والرعاية والترقية في مدارج الكمال، وما توحي به الإضافة والخطاب، من القرب والاختصاص والتكريم.

وقد تكرر اسم الرب هكذا مرتين، مع وصفه مرة بالخالقية، ومرة بالأكرمية ﴿وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ فعلاقة الإنسان ليست بمجرد رب، ولا برب كريم فقط، بل برب أكرم، بل بالرب الأكرم على الإطلاق؛ لأنه يعطي بغير حساب، وبغير عوض

ولا مقابل.

وذكر القرآن من دلائل أكرميته تعالى أنه: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ 4 عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، فاللَّه تعالى بالنسبة إلى الإنسان «معلم»، والإنسان متعلم ما لم يكن يعلم، هذه ميزته: استعداد للتعلم بالقراءة والكتابة بالقلم.

هذا أول نص نزل به الوحي الإلهي على محمد ﷺ، وهو نصر فريد ورائع حقًّا. فقد حرص على تأكيد أمور معينة من أول لحظة، منها:

1 – أن الإنسان مخلوق مكلف.

2 – العناية بشأن الإنسان حيث ذكر مرتين.

3 – أول ما أمر به الإنسان القراءة.

4 – تعظيم شأن القرآن حيث أمر بها مرتين.

5 – أول أداة ذكرها الوحي: القلم.

6 – أول ما وصف اللَّه به نفسه: الرب – الخالق – الأكرم – المعلم.

7 – أول ما وصف به اللَّه الإنسان: القدرة على التعلم.

محمد . . . الرسول الإنسان:

وإذا نظرنا إلى الشخص الذي جسد اللَّه فيه الإسلام، وجعله مثالًا حيًّا لتعاليمه، وكان خلقه القرآن – نستطيع أن نصفه بأنه «الرسول الإنسان». وسيرته ليست سيرة إله، ولا بعض إله، ولا ملاك متجرد من اللحم والدم، بل هي سيرة النبي الإنسان.

والقرآن الكريم حريص كل الحرص – في شتى المناسبات – على تأكيد إنسانية

الرسول محمد ﷺ، بمثل قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: 110].

ويرد على المشركين المتعنتين، من مقترحي الآيات الكونية: ما يتصور منها وما لا يتصور، مثل أن يفجر لهم من الأرض ينبوعًا، أو تكون له جنة من نخيل وعنب، أو يسقط السماء عليهم كسفًا، أو يأتي بالله والملائكة قبيلًا ... إلخ هذه السلسلة من المقترحات السخيفة العجيبة، فيطلب من الرسول أن يرد عليهم بهذه الكلمة الموجزة: ﴿سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: 93].

ولما استبعد بعضهم أن يكون الرسول بشرًا مثلهم، يمشي على الأرض، وافترضوا أن يكون الرسول ملكًا ينزل من السماء، رد عليهم القرآن فقال: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: 95].

ولهذا رأيناه ﷺ يأكل ويشرب، ويتزوج وينجب، ويفرح ويحزن، ويرضى ويسخط، ويصيب ويخطئ، ويذكر وينسى، ويمارس ما يمارسه كل بشر عادي إلا ما كان فيه إثم أو دناءة، مما لا يليق بمنصب الرسالة، وبهذا صلح أن يكون قدوة للبشر: كل البشر، ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: 21].

الجانب الإنساني في دعوات الرسل:

ويلفت القرآن الكريم نظرنا إلى أن الأنبياء الذين بعثهم الله دعاة إلى توحيده، وكان أول نداء لهم إلى أقوامهم: ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [المؤمنون: 32]، لم تهمل دعوتهم الجانب الإنساني، بل عملت على إصلاحه، ومقاومة الفساد والانحراف في الحياة البشرية.

فهذا هود عليه السلام – كما ينكر على قومه الشرك بالله – ينكر عليهم العبث والانحراف والبطش والجبروت: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ 128 وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ 129 وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: 128 – 130].

وصالح يحذر قومه من الطغاة المفسدين: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ 150 وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ 151 الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [الشعراء: 150 – 152].

ولوط يقول لقومه: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: 80]، ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ 165 وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: 165، 166].

وشعيب يقول لقومه: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ 84 وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ 85 بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [هود: 84 – 86]. فهنا نجد شعيبًا يبدأ قومه بدعوتهم إلى التوحيد، ذي هو أساس البناء في الرسالات الإلهية كلها، ويستغرف هذا منه جملة واحدة، ثم يسهب ويفيض في دعوتهم، إلى العدل في معاملاتهم الاقتصادية، والإعراض عما كانوا عليه من التطفيف والبخس والإفساد، وهنا يردون عليه في جهل ساخر، أو في سخرية جاهلة، إذ ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: 87].

وهكذا نجد دعوات الرسل، لم تنفصل عن مشكلات البشر، ولم تغفل أحوال المجتمع الإنساني، وما تتطلبه من علاج وإصلاح. ولكن ما موقف دعوة الإسلام

من الجانب الإنساني؟!

الجانب الإنساني في رسالة الإسلام:

إن كل دارس للإسلام في كتابه وسنة رسوله، يتبين له بجلاء: أنه وجه عناية بالغة إلى «الجانب الإنساني» وأعطاه مساحة رحبة من رقعة تعاليمه، وتوجيهاته، وتشريعاته.

وإذا نظرت في الفقه الإسلامي، وجدت «العبادات» لا تأخذ إلا نحو الربع أو الثلث من مجموعه، والباقي يتعلق بأحوال الإنسان: من أحوال شخصية، ومعاملات، وجنايات، وعقوبات، وغيرها.

على أنك إذا تأملت العبادات الكبرى نفسها، وجدت إحداها «إنسانية» في جوهرها، وهي عبادة «الزكاة»؛ فهي تؤخذ من الإنسان الغني، لترد على الإنسان الفقير. هي للأول تزكية وتطهير، وللثاني إغناء وتحرير.

والعبادات الأخرى لا تخلو من جانب إنساني تلمحه في ثناياها.

فالصلاة عون للإنسان في معركة الحياة ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: 153].

والصوم تربية لإرادة الإنسان على الصبر في مواجهة المصاعب، وتربية لمشاعره على الإحساس بآلام غيره، فيسعى إلى مواساته؛ ولهذا سمى النبي ﷺ شهر رمضان: «**شهر الصبر**» و«**شهر المواساة**»(46).

---

(46) إشارة إلى الحديث: «**أيها الناس، قد أظلكم شهر عظيم ... وهو شهر الصبر، والصبر ثوابه الجنة، وشهر المواساة ...**»، رواه ابن خزيمة في «الصيام» (1887)، والبيهقي في «الشعب في

والحج مؤتمر رباني إنساني، دعا الله فيه عباده المؤمنين ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾ [الحج: 28]، فشهود المنافع هنا يمثل الجانب الإنساني في أهداف الحج.

وفوق ذلك نجد النبي ﷺ يرفع إلى درجة العبادة، كل عمل يؤديه المسلم، يترتب عليه نفع مادي لإنسان، أو سرور نفسي لإنسان.

ولا يكاد مسلم يجعل الأحاديث النبوية التي تقرر أن: إماطة الأذى عن الطريق صدقة، وأن أمرك بمعروف صدقة، ونهيك عن منكر صدقة، وحملك الرجل الضعيف على دابته صدقة، وإصلاحك بين اثنين صدقة، وتبسمك في وجه أخيك صدقة، والكلمة الطيبة صدقة[47] ... إلخ ما جاء به الحديث من ألوان البر الإنساني، والخدمة الاجتماعية.

بل إن النبي ﷺ ليرتفع بهذا اللون من البر والخدمة الإنسانية اليومية، إلى منزلة الواجب الذي يؤاخذ من تركه عمدًا، وهو قادر عليه.

روى الشيخان عن أبي موسى أن النبي ﷺ قال: «على كل مسلم صدقة» فقال أصحابه: يا رسول الله، ليس كلنا يجد ما يتصدق به. وقالوا: يا نبي الله، فمن لم يجد؟!

الصيام» (3336)، وضعفه الألباني في «مشكاة المصابيح» (1965)، عن سلمان الفارسي.

(47) إشارة إلى الحديث المتفق عليه: **«كل سلامى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس، يعدل بين الاثنين صدقة، ويعين الرجل على دابته فيحمل عليها، أو يرفع عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة يخطوها إلى الصلاة صدقة، ويميط الأذى عن الطريق صدقة»**، رواه البخاري في «الجهاد والسير» (2891، 2989)، ومسلم في «الزكاة» (1009)، عن أبي هريرة.

أي: أنهم حسبوا الصدقة محصورة في إعطاء شيء من المال للمحتاج. فبيّن لهم سعة مفهوم الصدقة التي يأمر بها كل مسلم. حتى من لم يجد مالًا يتصدق به. فقال ﷺ: «**يعمل بيده، فينفع نفسه ويتصدق**». قالوا: فإن لم يجد؟ قال: «**يعين ذا الحاجة الملهوف**». قالوا: فإن لم يجد؟ قال: «**فليعمل بالمعروف، وليمسك عن الشر، فإنها له صدقة**»(48).

وأكثر من ذلك، أن الرسول ﷺ يجعل هذه الفريضة الإنسانية الاجتماعية اليومية، على كل سلامى من جسم الإنسان، أي كل مفصل من مفاصله.

ففي الحديث الصحيح الذي رواه الشيخان: «**كل سلامى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس: يعدل بين الاثنين صدقة، ويعين الرجل في دابته، فيحمله أو يرفع عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة وكل خطوة يمشيها إلى الصلاة صدقة، ويميط الأذى عن الطريق صدقة**»(49).

وفي بعض الأحيان تجد الأحاديث النبوية تعطي قيمة لبعض الأعمال الإنسانية، ترفع بها درجتها على الاشتغال بالقربات الدينية، وذلك في الأعمال التي تتسع، دائرة النفع بها للخلق، أو يدرأ بسببها شر كثير عن الناس، مثل: إصلاح ذات البين، وعدل الوالي في ولايته ... ونحو ذلك.

نقرأ في الحديث الشريف: «**ألا أدلكم على أفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة؟**» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «**إصلاح ذات البين، فإن فساد البين هي**

---

(48) متفق عليه: رواه البخاري (1445)، ومسلم (1008)، كلاهما في «الزكاة»، عن أبي موسى.
(49) سبق تخريجه (ص: 70).

الحالقة»[50]. يعني حالقة الدين، لا حالقة الشعر، كما جاء في إحدى الروايات[51].

ونقرأ: كذلك **«ليوم من إمام عادل أفضل من عبادة ستين سنة»**[52].

ونقرأ كذلك هذا الحديث العجيب:

«أحب الأعمال إلى الله سرور تدخله على مسلم: تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه دينًا، أو تطرد عنه جوعًا، ولأن أمشي مع أخ في حاجة، أحب إليَّ من أن أعتكف في هذا المسجد - يعني: مسجد المدينة - شهرًا. ومن كظم غيظه - ولو شاء أن يمضيه أمضاه - ملأ الله قلبه يوم القيامة رضا. ومن مشي مع أخيه في حاجة حتى يقضيها له، ثبَّت الله قدميه يوم تزل الأقدام»[53].

إنسانية الإنسان:

ولقد عرف العالم فيما عرف من مذاهب وفلسفات وأفكار، يضرب بعضها بعضًا: اتجاهين فكريين، يناقض أحدهما الآخر:

---

(50) رواه أحمد (27508)، وقال مخرجوه: إسناده صحيح، وأبو داود في «الأدب» (4919)، والترمذي في «صفة القيامة» (2509)، وقال: حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في «تخريج الحلال والحرام» (414)، عن الزبير بن العوام.

(51) رواه أحمد (1412)، وقال مخرجوه: إسناده ضعيف، والبزار (2232)، وقال الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (2888): حسن لغيره، عن الزبير.

(52) رواه الطبراني في «الكبير» (11/ 337)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (7379)، وحسن إسناده العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (448)، وضعفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (989)، عن ابن عباس.

(53) رواه الطبراني في «الكبير» (12/ 453)، و«الأوسط» (6026)، و«الصغير» (861)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (13708): رواه الطبراني في الثلاثة، وفيه سُكَيْن بن سراج، وهو ضعيف. وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (176)، عن ابن عمر.

اتجاه يؤله الإنسان: يجعله إله نفسه، لا رب خلقه، ولا إله يدبر أمره، ولا حساب ينتظره، ولا آخرة يصير إليها. فهو يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

واتجاه آخر، ينظر إلى الإنسان على أنه مجرد «حيوان»، حيوان متطور، أو حيوان «منتج»، أو حيوان «اجتماعي».

المهم أنه حيوان، وأساسه هو هذه «الحيوانية» ومن زاويتها ينظر إليه ويتعامل معه، ويفسر سلوكه، وتحدد علاقاته.

أما الإسلام، فلا يرفع الإنسان إلى مقام الألوهية، ولا يهبط به إلى درك الحيوانية.

فليس إلهًا من وُجِدَ بعد أن لم يكن، ومن يموت بعد عمر يقصر أو يطول ... من وُلِدَ بغير اختياره، ويموت بغير اختياره، ويعيش بين الولادة والموت، تحكمه سنن كونية لا يملك لها دفعًا. فهو - رغم ما منح من عقل وإرادة ووسائل - عاجز مقهور أمام كثير من الأشياء والأحداث والمواقف. والعاجز المقهور كيف يكون إلهًا، وصفة الإله أنه القادر القهار؟

ومع أنه ليس إلهًا، فليس حيوانًا. إن نفي الإلهية عن الإنسان لا يعني إثبات الحيوانية له، فالإنسان جنس متميز، كرمه الله بالعقل، وبالإرادة، والروح.

مظاهر التكريم الإلهي للإنسان:

الإنسان - إذن - في نظر الإسلام مخلوق متميز، مخلوق مكرم، ميزه الله وكرمه وفَضَّله على كثير من خلقه، ويحسن هنا أن نذكر بعض مظاهر التكريم الإلهي للإنسان.

1 - **استخلافه في الأرض:**

لقد أعلن الإسلام كرامة الإنسان، فاعتبره خليفة الله في الأرض، وهي منزلة اشرأبت إليها أعناق الملائكة، وتشوفت إليها أنفسهم، فلم يعطوها، ومنحها الله للإنسان: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ 30 وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ 31 قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ 32 قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: 30 - 33].

لقد كرم الله الإنسان بالخلافة في الأرض، وهيأه لها بالعقل والعلم الذي تفوق به على الملائكة.

2 - **خلقه في أحسن تقويم:**

وأعلن الإسلام كذلك أن الله كرم الإنسان بالصورة الحسنة وبالخلقة الحسنة، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: 4]، ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [التغابن: 3].

وقد كان النبي ﷺ يكرر هذا الدعاء في سجوده: «**سجد وجهي للذي خلقه وصوره، وشق سمعه وبصره، فتبارك الله أحسن الخالقين**»(54).

---

(54) رواه مسلم في «صلاة المسافرين» (771)، عن عليّ بن أبي طالب.

3 - **تمييزه بالعنصر الروحي:**

وفوق ذلك كله كرمه بالروح العلوي، الذي أودعه الله بين جنبيه. فهو قبس من نور الله، ونفخة من رُوح الله، استحق به أن تنحني له الملائكة إجلالًا وإكبارًا لمقدمه بأمر الله، كما قال تعالى بملائكته: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ 71 فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص: 71، 72].

وهذه النفخة الروحية الإلهية ليست خاصة بآدم أبي البشر، كما قد يتوهم بعض الناس، فإن بنيه ونسله جميعًا قد نالهم حظ منها، كما قال تعالى بعد أن ذكر خلق آدم: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ 8 ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾ [السجدة: 8، 9].

فلم يكن هذا التكريم والاحتفال لشخص آدم عليه السلام، وإنما كان تكريمًا للنوع الإنساني في شخصه. فإن الله ميزهم بما ميزه من مواهب العقل والعلم والروح، واستخلفهم كما استخلفه في الأرض؛ ولهذا أعلن القرآن كرامة البشر كافة حين قال: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا﴾ [الإسراء: 70].

وهذا كله يثبت أن الإنسان نوع متفرد متميز عن سائر الحيوانات، فإنها – وإن شابهته في عناصر تكوينها الطيني – تخالفه ويخالفها في التكوين المعنوي، إذ لم يكرمها الله بما كرمه به من الروح والعقل؛ لأنها لم تكلف ما كلفه من عمارة الأرض وخلافة الله فيها.

فهي مجرد أداة له في مهمته، ليسخرها في حاجته.

ولا ريب أن إيحاء هذا المعنى في نفس الإنسان، غير إيحاء الذين ينظرون إليه على

أنه ليس إلا حيوانًا «تطور» وترقى حتى صار إلى ما هو عليه الآن(55).

4 - **تسخير الكون لخدمة الإنسان:**

وكان من تكريم الله للإنسان – في نظر الإسلام – أنه جعل الكون كله في خدمته. وسخر لمنفعته العوالم كلها: السماء والأرض، الشمس والقمر والنجوم، الليل والنهار، الماء واليابس، البحار والأنهار، النبات والحيوان والجماد، كلها مسخرة لمصلحة الإنسان وسعادة الإنسان، كرامة من الله له، ونعمة منه عليه.

يقول تعالى مخاطبًا بني الإنسان: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ 32 وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ 33 وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: 32 – 34].

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ 12 وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: 12، 13].

﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ

---

(55) كما هو مذهب داروين، الذي لم يقم عليه دليل صحيح، وإنما روجته الصهيونية لحاجة في نفسها، كما اعترفوا به في «بروتوكولات حكماء صهيون»، وحتى أتباع داروين من بعده، لم يستطيعوا إلا أن يخالفوه ويثبتوا بالعلم «تفرد الإنسان»، وهؤلاء هم الذين يطلق على مذهبهم اسم: «الداروينية الحديثة». انظر في تقويم نظرية داروين كتاب الأستاذ قيس القرطاس: «نظرية داروين بين مؤيديها ومعارضيها»، وكتاب: «الإنسان في القرآن الكريم» للأستاذ عباس العقاد، و«الإنسان بين المادية والإسلام» للأستاذ محمد قطب.

نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: 20].

وتسخير الكون للإنسان يتضمن معنيين كبيرين:

أولهما: أن الطاقات الكونية كلها مهيأة ومبذولة للإنسان، لا يستعصي شيء منها عليه إذا تيسرت سبله، ورعيت سنن الله فيه. فعليه أن يبذل جهده ويعمل فكره، في فتح مغاليقها، واكتشاب مخبوئها، ليستخدمها فيما يعود عليه بالخير والسعادة.

وثانيهما: أن الإنسان هو واسطة العقد في هذا العالم، وإن صغر حجمه، بالنسبة للمكان، أو قصر عمره، بالنسبة للزمان، فلا يجوز للإنسان إذن أن يؤله شيئًا في هذا العالم، أو يتعبد له رغبًا أو رهبًا، والذين عبدوا بعض الأشياء أو المظاهر أو القوى الكونية، في العالم العلوي أو السفلي، قلبوا الحقائق، وحولوا الإنسان من سيد سُخِّر له الكون، إلى عبد ذليل، يسجد لنجم، أو شجرة، أو بقرة، أو حجر من الأحجار، أو غير ذلك مما سجله التاريخ، من أوهام البشر وضلالاتهم، إذا انحرفوا عن هداية الله، على عكس ما أراد الله للإنسان، وما أراده من الإنسان.

تميز «الإنسانية» في الإسلام:

ولا ريب أن هناك أديانًا ونحلًا، ومذاهب وفلسفات تهتم بالإنسان، وتحرص على سعادته، وقد تعلن وتفاخر بأنها «إنسانية».

ولكن العيب المشترك في هذه الديانات والمذاهب: أنها لم تعرف الإنسان معرفة محيطة به، وإنما نظرت إليه من زاوية معينة، أو من جانب خاص، غافلة عن الجوانب الأخرى، برغم أهميتها في وجوده، فجارت على الإنسان باسم الإنسان.

إن بعض الأديان والفلسفات نظرت إلى الجانب الروحي في الإنسان، غير عابئة بجانبه العقلي، وجانبه الحسي والمادي؛ بل ربما دعت إلى تعذيب الجسم في سبيل

سعادة الروح.

وبعض المذاهب والفلسفات لم تنظر إلا إلى الجانب المادي في الإنسان، ولم تبال بغيره، ولم تعترف به، فالإنسان كائن اقتصادي، أو حيوان منتج، لا أكثر.

وبعض المذاهب والفلسفات «ألهت» الإنسان، واعتبرته كائنًا مستقلًّا، «يقوم وحده» مستغنيًا عن الله، فأساءت إلى الإنسان من حيث أرادت الإحسان إليه، وجعلته «نباتًا شيطانيًّا» خرج إلى الوجود من غير زارع، ولغير هدف، إلا أن ييبس ويصبح هشيمًا تذروه الرياح، أو تأكله النار.

وبعض المذاهب - كالرأسمالية - تدلل الإنسان الفرد، وتطلق له العنان، حتى يتحطم في النهاية - باسم الحرية - دون أن تجعل للمجتمع حقًّا في مراقبته ومحاسبته وتقويمه، من أجل مصلحته هو في النهاية، ومصلحة المجتمع من ورائه.

وبعض آخر - كالشيوعية - يضغط على الإنسان الفرد، ويكبله بقيود شتى، ويحرمه من كثير من الحريات، وكثير من الحقوق الطبيعية - باسم المجتمع - حتى يكاد يسحقه سحقًا.

أما الإسلام، فقد تميز عن هذه الأديان والفلسفات بنظرته الشاملة المحيطة لماهية الإنسان، والنفاذ إلى أغوار طبيعته، والاعتراف بكل جوانبه وخصائصه، دون ميل أو شطط، أو إهمال لناحية لحساب أخرى.

بين إنسان المسيحية وإنسان الإسلام:

إن الأديان السماوية كلها قد جاءت لتحرير الإنسان وإسعاده والسمو به، ولكن أصابها الغلو أو التحريف والتزييف، بما بدل جوهرها، وأخرجها عن رسالتها، ونظرًا لأنها كانت رسالات مرحلية موقوتة، لم يكتب الله لها الخلود، ولم يتكفل

بحفظها، كما تكفل بحفظ القرآن بل استحفظها أهلها، فضيعوا وبدلوا.

وأبرز مَثل لذلك المسيحية التي جاءت لإنقاذ الإنسان من سيطرة العقلية اليهودية في ماديتها وشكليتها وعنصريتها، فلم تلبث أن حرفت بالحذف والزيادة حتى أصبحت - في القرون الوسطى - غِلًّا في عنق الإنسان، وقيدًا في رجله.

اعتبرت الإيمان ضدًّا للعقل، فكان شعارها: اعتقد وأنت أعمى.

واعتبرت الجسم عدوًّا للروح، فأهملت الأجسام إبقاء على الأرواح.

واعتبرت العمل للحياة منافيًا للتعبد لله، فابتدعت نظام الرهبنة، والانقطاع عن الحياة.

واعتبرت الإنسان ملوثًا بالخطيئة من يوم يولد؛ لأنها لازمة لوجوده، ورثها من أبيه الأول.

وحجرت على الإنسان أن يتصل بربه إلا بوساطة كاهن، بيده مفاتيح الجنة، وملكوت السماء.

5 - إلغاء الوساطة الكهنوتية بين الله والإنسان:

ذلكم هو إنسان المسيحية في صورتها التاريخية المعروفة، أما إنسان الإسلام، فهو شيء آخر.

لقد كان من دلائل تكريم الله للإنسان في نظر الإسلام: أنه فتح له باب التقرب إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنَّى شاء، ومتى شاء، ولم يحوجه إلى وسطاء يتحكمون في ضميره، ويقفون حجابًا بينه وبين ربه. يقول الله تعالى مخاطبًا لرسوله الكريم: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: 186]، ويقول في آية

أخرى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: 60]، ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: 152].

ويعلن الحديث القدسي أنَّ: «من تقرب مني شبرًا تقربت منه ذراعًا، ومن تقرب مني ذراعًا تقربت منه باعًا»(56).

لا حاجة بالإنسان اذن إلى وساطة كاهن، يصل عن طريقه إلى الله، ولا يقبل الله منه عبادة بغير توسطه، ولا يستطيع التوبة من ذنب ارتكبه إلا بالجلوس أمامه في ذل وخنوع، على كرسي الاعتراف المشهور، فليس في الإسلام كاهن ولا كهنوت.

وبهذا يستطيع الإنسان المسلم أن يقرع باب ربه متى شاء، وأين شاء، بعيدًا عن سيطرة طبقة الدجاجلة المدعين؛ للسمسرة بين الله وعباده.

يستطيع أن يدعو ربه متى شاء، فيجده أقرب إليه من حبل الوريد، دون وسيط أو شفيع، وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: 186].

ويستطيع أن يصلي ويتعبد في أي مكان، وحده أو مع غيره، دون حجر أو تضييق، فالأرض كلها له مسجد، والله بين يديه حيث كان: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 115].

ويستطيع أن يناجي الله مباشرة في أي ساعة من ليل أو نهار، فليس على بابه حاجب ولا بواب(57).

---

(56) متفق عليه: رواه البخاري في «التوحيد» (7405)، ومسلم في «الذكر والدعاء» (2675)، عن أبي هريرة.

(57) انظر: كتابنا: «العبادة في الإسلام» موضوع: «تحرير العبادة من رق الكهنوت» (ص: 148 – 156)، ط. خامسة.

وليس هذا لخاصة الأتقياء والصالحين، دون العصاة والمذنبين.

كلا، فإن باب الله مفتوح على مصراعيه لكل من دعاه ورجاه، ووقف على عتبته ضارعًا مستغفرًا، وإن اقترف قبل ذلك كبائر الإثم وفواحش الذنوب. يقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 135].

وفي الحديث القدسي الصحيح: «يا عبادي، إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعًا، فاستغفروني أغفر لكم»(58).

وفي القرآن الكريم: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: 53]، وما أجمل وأرق هذا النداء: ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾ فرغم خطاياهم وإسرافهم على أنفسهم، لم يطردهم من ساحته، ولم يحرمهم شرف عبوديته، وأضافهم إلى ذاته القدسية، إيناسًا لهم، وتحببًا إليهم.

6 - **الاعتراف بالكيان الإنساني كله:**

وكان من تكريم الإسلام للإنسان أن اعترف به كله كما فطره الله: جسمه وروحه، عقله وقلبه، إرادته ووجدانه، فلم يغفل حق جانب من هذه الجوانب لحساب آخر.

1 - ولهذا أمره بالسعي في الأرض والمشي في مناكبها، والأكل من طيباتها والاستمتاع بزينة الله التي أخرج لعباده فيها، وحثه على النظافة والتجميل

---

(58) رواه مسلم في «البر والصلة» (2577)، عن أبي ذر.

والاعتدال ونهاه عن المسكرات والمفترات وكل ما يضر تناوله، وفاءً بحظ جسمه.

2 – وأمره بعبادة اللّٰه وحده، والتقرب إليه بأنواع الطاعات، من صلاة وصيام وصدقة وزكاة، وحج وعمرة، وذكر ودعاء، وإنابة وتوكل، وخوف ورجاء، وبر وإحسان، وجهاد في سبيل اللّٰه، وغير ذلك من ألوان العبادة الظاهرة والباطنة – وفاءً بحق الروح.

3 – وأمره بالنظر والتفكير في ملكوت السماوات والأرض، وما خلق اللّٰه من شيء، وفي مصاير الأمم، وسنن اللّٰه في المجتمعات، كما أمره بطلب العلم، والتماس الحكمة من أي وعاء خرجت منه، وأنكر عليه الجمود والتقليد للآباء والكبراء، كل ذلك وفاءً بحق العقل.

4 – ولفته إلى جمال الكون بأرضه وسمائه، ونباته وحيوانه، وما زانه اللّٰه به من مظاهر الحسن والبهجة، ليشبع حاسة الجمال في نفسه، ويشعر في أعماقه بعظمة ربه، الذي أحسن كل شيء خلقه. كما أنه أباح له التمتع بألوان من اللهو وترويح النفس، دفعًا للسآمة عنها، فإنها تمل كما تمل الأبدان، وتتعب كما تتعب، وفي هذا رعاية لجانب الوجدان والعاطفة[59].

7 – **تحرير الإنسان من اعتقاد وراثة الخطيئة الأولى:**

ومن كرامة الإنسان في الإسلام: أنه أزال عنه وصمة التلوث بالخطيئة، التي يولد عليها كل إنسان، كما هي دعوى المسيحية، التي زعمت أن خطيئة آدم –

---

(59) انظر: كتابنا: «الحلال والحرام في الإسلام» فصل: «اللهو والترفيه».

بالأكل من الشجرة المحرمة - وُرِّثت لبنيه ذكورًا وإناثًا، فلا يولد مولود إلا وفي عنقه هذه الخطيئة، ولا ينجو إنسان من إثمها وتبعتها إلا بكفارة وفداء، ولم يتحقق هذا الفداء إلا بصلب المسيح - فيما زعموا - ومن ثَمَّ كانت حتمية الإيمان بالمسيح فاديًا مخلصًا!

أما الإسلام فقد ألغى هذا كله، وأعلن أنَّه: «**ما من مولود إلا يولد على الفطرة**»[60]. غير ملوث بخطيئة، أو مثقل بذنب.

كما قرر الإسلام بوضوح وحسم مسئولية الإنسان عن نفسه، فلا يجوز في منطق العدل الإلهي أن يحمل الابن وزر أبيه، أو الحفيد وزر جده، ﴿**وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ**﴾ [الأنعام: 164].

على أن معصية آدم نفسها، قد غسلتها التوبة، وانتهى أمره بالاجتباء والهداية من ربه، كما قال تعالى: ﴿**وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ 121 ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ**﴾ [طه: 121، 122].

يقول الدكتور نظمي لوقا، المسيحي المصري في كتابه: «محمد: الرسالة والرسول»: «إن أنسَ لا أنسى ما ركبني صغيرًا، من الفزع والهول من جراء تلك الخطيئة الأولى، وما سيقت فيه من سياق مروع، يقترن بوصف جهنم، ذلك الوصف المخيف لمخيلة الأطفال وكيف تتجدد فيها الجلود كلما أكلتها النيران، جزاءً وفاقًا على خطيئة آدم، بإيعاز من حواء. وأنه لولا النجاة على يد المسيح، الذي فدى البشر بدمه الطهور! لكان مصير البشرية كلها الهلاك المبين!

---

(60) متفق عليه: رواه البخاري في «الجنائز» (1358)، ومسلم في «القدر» (2658)، عن أبي هريرة.

وإن أنسَ لا أنسى القلق الذي ساورني وشغل خاطري، عن ملايين البشر قبل المسيح: أين هم؟ وما ذنبهم حتى يهلكوا بغير فرصة للنجاة؟!

والحق أنه لا يمكن أن يقدر قيمة عقيدة خالية من أعباء الخطيئة الأولى الموروثة، إلا من نشأ في ظل تلك الفكرة القاتمة، التي تصبغ بصبغة الخجل والتأثم كل أفعال المرء، فيمضي في حياته مضي المريب المتردد، ولا يقبل عليها إقبال الواثق، بسبب ما أنقض ظهره من الوزر الموروث.

إن تلك الفكرة القاسية تسمم ينابيع الحياة كلها، ورفعها عن كاهل الإنسان منة عظمى، بمثابة نفخ نسمة حياة جديدة فيه، بل هو ولادة جديدة حقًّا، ورد اعتبار لا شك فيه. إنه تمزيق صحيفة السوابق، ووضع زمام كل إنسان بيد نفسه»[61].

تقرير حقوق الإنسان:

وقبل أن تسمع أذن الدنيا عن حقوق الإنسان باثنتي عشر قرنًا أو تزيد، ويوم كان العالم كله لا ينظر للإنسان، إلا من جهة ما عليه من واجبات يطالب بأدائها، وإلا كان عليه من العقاب ما يستحق ... جاء الإسلام ليقرر جهرة، أن للإنسان حقوقًا ينبغي أن تُرْعَى، كما أن عليه واجبات ينبغي أن تُؤَدَّى.

وكما أنه يُسأَل عما عليه، يجب أن يعطى ما له، فكل واجب يقابله حق، كما أن كل حق يقابله واجب.

وهذه الحقوق ليست منحة من مخلوق مثله له، يمن بها عليه إن شاء، ويسلبها

---

(61) انظر: «محمد الرسالة والرسول» لنظمي لوقا (ص: 75، 76)، دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية (1959م).

منه متى شاء ... كلا، ليست منحة من إمبراطور أو ملك أو أمير، أو حزب أو لجنة، إنما هي حقوق قررها الله له، بمقتضى فطرته الإنسانية، فهي حقوق ثابتة دائمة بحكم الطبيعة والشريعة جميعًا.

من هذه الحقوق: حق الحياة ... حق الكرامة ... حق التفكير ... حق التدين والاعتقاد ... حق التعبير ... حق التعلم ... حق التملك ... حق الكفاية من العيش ... حق الأمن من الخوف.

وسأقتصر هنا على الحديث الخاطف عن بعض هذه الحقوق، طلبًا للاختصار، وللتفصيل مجال آخر(62).

حق الحياة للإنسان:

قدس الإسلام حق الحياة وحماه بالتربية والتوجيه، وبالتشريع والقضاء، وبكل المؤيدات النفسية والفكرية والاجتماعية. واعتبر الحياة هبة من الله لا يجوز لأحد أن يسلبها غيره. لا يجوز لحاكم أن يسلب حياة المحكوم، ولا لسيد أن يسلب حياة عبده، ولا لزوج أن يسلب حياة زوجه، ولا لوالد أن يسلب حياة ولده.

ولا غرو أن أنكر القرآن على أهل الجاهلية من العرب، الذين قتلوا أولادهم سفهًا بغير علم: وأدوا البنات خاصة مخافة العار، وقتلوا البنين والبنات جميعًا من أجل الإملاق الواقع، أو خشية الإملاق المتوقع، وجعل القرآن ذلك من أكبر الآثام: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ 8 بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: 8، 9]، ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟

(62) وقد أُلِّفت في ذلك كتب يمكن الرجوع إليها من أراد التفصيل، أذكر منها: «حقوق الإنسان في الإسلام» للدكتور عليّ عبد الواحد وافي، و«حقوق الإنسان بين الإسلام وميثاق الأمم المتحدة» للشيخ محمد الغزالي.

أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـٔٗا كَبِيرٗا﴾ [الإسراء: 31].

لم يفرق الإسلام في حق الحياة بين أبيض وأسود، ولا بين شريف ومشروف، ولا بين حر وعبد، ولا بين رجل وامرأة، ولا بين كبير وصغير. حتى الجنين في بطن أمه له حرمة لا يجوز المساس بها، حتى الجنين الذي ينشأ عن طريق الحرام لا يجوز لأمه ولا لغيرها أن تسقطه؛ لأنه نفس محترمة لا يحل الاعتداء عليها. ولما جاءت امرأة إلى النبي ﷺ، وأقرت عنده أنها زنت، وأنها حبلى من الزنا، وطلبت إليه أن يطهرها بإقامة حد الله عليها، قال لها: «**اذهبي حتى تلدي**». فلما ولدت جاءت بطفلها، مطالبة بإقامة الحد مرة أخرى، فقال لها: «**اذهبي حتى تفطميه**»(63). ولم ينفذ فيها العقوبة إلا بعد أن جاءت به بعد أن أصبح يأكل الطعام. كل هذا رعاية لحق الجنين، ثم المولود الرضيع؛ لأنه لا ذنب له فيما جنته أمه، أو اقترفه أبوه، ولا تزر وازرة وزر أخرى

ومن أجل المحافظة على الحياة، جاءت آيات القرآن(64)، وأحاديث الرسول ﷺ(65) تنذر بأشد العذاب مَن اعتدى على نفس بغير حق، حتى ذهب بعض

---

(63) إشارة إلى الحديث: جاءت الغامدية، فقالت: يا رسول الله، إني قد زنيت فطهرني، وإنه ردها، فلما كان الغد، قالت: يا رسول الله، لم تردني؟ ... رواه مسلم في «الحدود» (1695)، عن بريدة بن الحصيب.

(64) منها: ﴿مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا﴾ [المائدة: 32].

﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: 93].

(65) منها: عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لن يزال المؤمن في فسحة من دينه، ما لم**

العلماء في الإسلام إلى أن القاتل لا تقبل له توبة(66).

وفي سبيل المحافظة على الحياة شرع الإسلام في قتل العمد القصاص، مع ترغيبه في العفو والصلح بعوض أو بغير عوض، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَى﴾ [البقرة: 178]، إلى أن يقول: ﴿فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖ﴾ [البقرة: 178]، و﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 179].

كما شرع الدية والكفارة في قتل الخطأ، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٍ أَن يَقۡتُلَ مُؤۡمِنًا إِلَّا خَطَـٔٗاۚ وَمَن قَتَلَ مُؤۡمِنًا خَطَـٔٗا فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ وَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْۚ فَإِن كَانَ مِن قَوۡمٍ عَدُوّٖ لَّكُمۡ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ وَإِن كَانَ مِن قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞ فَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ وَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ تَوۡبَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ [النساء: 92].

ونلاحظ في الآية الكريمة أن الكافر الذي بينه وبين المسلمين ميثاق وحلف، يجب في قتله خطأ ما يجب في قتل المؤمن من الدية والكفارة. وقد جاءت الأحاديث مؤكدة بأن: «**من قتل معاهدًا لم يرح رائحة الجنة**»(67).

يصب دمًا حرامًا». رواه البخاري في «الديات» (6862).

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كل ذنب عسى الله أن يغفره، إلا من مات مشركًا، أو مؤمن قتل مؤمنًا متعمدًا**». رواه أبو داود في «الفتن والملاحم» (4270)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (511).

(66) ذهب إلى هذا الرأي: ابن عباس، وأبو هريرة، وزيد بن ثابت، ومالك بن أنس، رضي الله عنهم. راجع: «البيان والتحصيل» لأبي الوليد ابن رشد (18/ 193).

(67) رواه البخاري في «الجزية» (3166)، عن عبد الله بن عمرو.

وكيف لا يحمي الإسلام حق الحياة للإنسان، وقد حمى حياة الحيوان إذا لم يكن منه أذى للناس، وفي الحديث الصحيح: «**أن امرأة دخلت النار في هرة، حبستها حتى ماتت، فلا هي أطعمتها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض**»(68).

وفي حديث آخر: «**لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها**»(69)، مشيرًا إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: 38].

فإذا كان هذا في شأن القطط والكلاب، واحترام حياتها، واعتبارها أممًا أمثالنا، فكيف تكون منزلة حياة الإنسان المكرم، خليفة الله في الأرض؟

حق الكرامة وحماية العرض:

أكد الإسلام حرمة العرض والكرامة للإنسان، مع حرمة الدماء والأموال، حتى إن النبي ﷺ أعلن ذلك في حجة الوداع، أمام الجموع المحتشدة في البلد الحرام، والشهر الحرام، واليوم الحرام: «**إن دماءكم، وأموالكم، وأعراضكم، بينكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا**»(70). فلا يجوز أن يؤذى إنسان في حضرته ولا أن يهان في غيبته، سواء أكان هذا الإيذاء للجسم بالفعل، أو للنفس بالقول. فربما كان جرح القلب بالكلام، أشد من جرح الأبدان، بالسياط أو

---

(68) متفق عليه: رواه البخاري في «المساقاة» (2365)، ومسلم في «السلام» (2242)، عن ابن عمر.

(69) رواه أحمد (16788)، وقال مخرجوه: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين. وأبو داود في «الصيد» (2845)، والترمذي في «الأحكام» (1486)، وابن ماجه في «الصيد» (3205)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (5322)، عن عبد الله بن مغفل.

(70) متفق عليه: رواه البخاري في «العلم» (67)، ومسلم في «القسامة» (1679)، عن أبي بكرة.

السنان.

وكيف لا يحرّم الإسلام القتل، وقد حرم ما دونه؟ أجل، لقد حرم الإسلام أشد التحريم أن يضرب إنسان بغير حق، وأن يجلد ظهره بغير حد، وأنذر باللعنة من ضرب إنسانًا ظلمًا، ومن شهده يُضرب ولم يدفع عنه؛ وبهذا حمى بدن الإنسان من الإيذاء.

كذلك حرم الإسلام الإيذاء الأدبي للإنسان: حرم الهمز واللمز والتنابز بالألقاب، والسخرية والغيبة وسوء الظن بالناس، وأنزل الله في ذلك آيات تتلى، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ 11 يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: 11، 12]، وبذلك حمى نفس الإنسان من الإهانة.

ولم يكتفِ الإسلام بحماية الإنسان في حالة حياته، فكفل له الاحترام بعد مماته، ومن هنا جاء الأمر بغسله وتكفينه ودفنه، والنهي عن كسر عظمه أو الاعتداء على جثته[71]، خلافًا للأمم التي تحرق جثث موتاها.

وفي هذا جاء الحديث النبوي: «**كسر عظم الميت ككسره حيًّا**»[72].

---

(71) ما لم تدفع إلى ذلك ضرورة أو حاجة، كمعرفة أسباب القتل وكيفيته، الذي يقوم به «الطب الشرعي» الآن، وقد يستلزم هذا تشريح الجثة أو كسر بعض العظام.

(72) رواه أحمد (24686)، وقال مخرجوه: رجاله ثقات، وأبو داود (3207)، وابن ماجه

وقال ابن حجر في «الفتح»:

يستفاد منه أن حرمة المؤمن بعد موته باقية كما كانت في حياته[73]. ا. هـ.

وكما حمى جسمه بعد الموت، حمى عرضه وسمعته أيضًا؛ لئلا تلوكها الأفواه. فقال الرسول ﷺ: «**لا تذكروا موتاكم إلا بخير**»[74].

حق الكفاية التامة:

ومن حق كل إنسان أن تهيأ له كفايته التامة من العيش، بحيث يتوافر له الحاجات الأساسية للمعيشة، من مأكل وملبس ومسكن وعلاج، وما يتصل بذلك مما يحتاج إليه الإنسان.

والواجب أن يكون للإنسان دخل كاف يحقق كفايته منه، عن طريق العمل المشروع، في زراعة أو تجارة أو صناعة، أو احتراف بحرفة نافعة للناس، سواء عمل الإنسان لنفسه أم لغيره، بأجر يكافئ جهده.

فإذا لم يكن للإنسان دخل يكفيه، كان على أقاربه الموسرين أن يحملوه؛ لأنه جزء منهم، وهم جزء منه، وقد قال تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: 75].

(1616)، كلاهما في «الجنائز». وصحح إسناده النووي في «المجموع» (5/ 300)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (1310)، عن عائشة.

(73) «فتح الباري» لابن حجر (9/ 113)، ط. دار المعرفة بيروت.

(74) رواه النسائي في «الجنائز» (1935)، وأبو داود «الطيالسي» (1597)، وجوَّد إسناده العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (1/ 1015)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (7271)، عن عائشة.

وإن لم يكن له أقارب موسرون، يستطيعون حمله معهم، وجبت كفايته من الزكاة، التي فرضها الله على المسلمين، تؤخذ من أغنيائهم لترد على فقرائهم، فهي من الأمة وإليها.

ومن الجميل هنا: أن الزكاة لم تجب لتحقيق الكفاية فحسب للإنسان الفقير، بل لتحقيق تمام الكفاية له ولمن يعول من أهل وأقربين، فالحد الأدنى المطلوب للفقير في المجتمع الإسلامي، ليس هو حد الكفاف، ولا حد الكفاية، بل تمام الكفاية.

ولقد ذكر الفقهاء: أن كتب العلم من تمام الكفاية، وأن آلات الحرفة من تمام الكفاية.

بل اعتبروا الزواج لمن لا زوجة له من تمام الكفاية.

والمطلوب: تمام الكفاية له ولأسرته لمدة سنة كاملة[75].

بل ذهب الإمام الشافعي – وهو قول في بعض المذاهب الأخرى – إلى وجوب كفاية العمر للفقير، بحيث لا يحتاج إلى الزكاة مرة أخرى[76]. وقد جاء عن عمر قوله: «إذا أعطيتم فأغنوا»[77]. وقوله: «والله، لأكررن عليهم الصدقة، ولو راح

---

(75) انظر في هذا، كتابنا: «فقه الزكاة» (2/ 567) وما بعدها.

(76) قال النووي في «المجموع» (6/ 194) ط. دار الفكر: «قال أصحابنا: فإن لم يكن – أي الفقير – محترفًا، ولا يحسن صنعة أصلًا، ولا تجارة، ولا شيئًا من أنواع المكاسب، أعطي كفاية العمر الغالب لأمثاله في بلاده ... وهو المذهب الصحيح الذي قطع به العراقيون، وكثيرون من الخراسانيين، ونص عليه الشافعي» ا. هـ. وانظر تفصيل المسألة في كتابنا: «فقه الزكاة» (ص: 564 – 567).

(77) رواه عبد الرزاق (7286)، وابن أبي شيبة (10526)، كلاهما في «الزكاة»، وضعفه الألباني في «تخريج مشكلة الفقر» (83).

على أحدهم مائة من الإبل»[78]. وهذا المقدار - مائة من الإبل - يساوي عشرين نصابًا من أنصبة الزكاة في الإبل.

وليست الزكاة هي الحق الوحيد في المال؛ بل هي الحق الدوري الثابت الذي وصل به الإسلام إلى أعلى درجات الإلزام، فاعتبر إيتاءها من أركان الإسلام الخمسة، وقرنها بالصلاة - عمود الدين - في عشرات المواضع من القرآن والحديث، وفرض أداءها طوعًا وبطيب نفس، وإلا أُخذت كرهًا، ولا بقوة السلاح، حتى لا يضيع حق الفقير في تمام كفايته وكفاية أهله. ولا يجهل أحد حروب الخليفة الأول أبي بكر الصديق، من أجل انتزاع حقوق الفقراء من براثن الأغنياء.

ومع هذا إذا لم تقم حصيلة الزكاة بتحقيق تمام الكفاية للفقراء والمساكين، وجب على أغنياء كل بلد أن يقوموا بكفاية فقرائهم، وإن لم يفعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم، ألزمهم السلطان بذلك باسم الشرع الذي أوجب التكافل بين المسلمين، واعتبرهم كالبنيان المرصوص، أو كالجسد الواحد، وليس بمؤمن من بات شبعان وجاره الى جنبه جائع.

على أن دائرة هذا التكافل ليست مغلقة على المسلمين وحدهم، بل تشمل معهم من يعيش في ظل دولة الإسلام من أهل الذمة.

وقد رأينا عمر الفاروق يأمر خازن بيت المال أن يفرض ليهودي - رآه يسأل الناس - من بيت مال المسلمين ما يكفيه، وجعل ذلك قاعدة له ولأمثاله من أهل

(78) رواه أبو عبيد في «الأموال» (1780).

الكتاب، وكتب بذلك عمر بن عبد العزيز إلى بعض ولاته لينفذه(79).

كما أن عمر - وهو في طريقه إلى الشام - وجد جماعة مجذومين من النصارى، فأمر بإجراء القوت عليهم من الصدقات(80).

ثم إن موارد الدولة كلها يجب أن تكون في خدمة هذا الحق - حق الكفاية التامة - إذا لم تكف الزكوات وغيرها، وذلك بحكم مسئولية الدولة عن رعاياها.

من ثمرات الإنسانية في الإسلام:

الإخاء والمساواة والحرية.

هذه النزعة الإنسانية الأصيلة في الإسلام، هي أساس هام لمبدأ الإخاء البشري الذي نادى به الإسلام. وهي أساس هام كذلك لمبدأ المساواة الإنسانية العام، الذي دعا إليه الإسلام، وهي أساس هام كذلك لمبدأ الحرية الذي قرره الإسلام.

أكد الإسلام الدعوة إلى هذه المبادئ الإنسانية الثلاثة، ووضع الصور العملية لتطبيقها، وربطها بعقائده وشعائره وآدابه ربطًا محكمًا، بحيث لا تظل مجرد أمنية شاعرية، تهفو إليها بعض النفوس، أو فكرة مثالية تتخيلها بعض الرءوس، أو حبر

---

(79) عن جسر أبي جعفر قال: شهدت كتاب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن أرطاة، قرئ علينا بالبصرة: أما بعد، فإن الله سبحانه إنما أمر أن تؤخذ الجزية ... بلغني أن أمير المؤمنين عمر مر بشيخ من أهل الذمة يسأل على أبواب الناس، فقال: «ما أنصفناك، أن كنا أخذنا منك الجزية في شبيبتك ثم ضيعناك في كبرك». قال: ثم أجرى عليه من بيت المال ما يصلحه. ا. هـ. رواه أبو عبيد في «الأموال» (119).

وانظر كتابنا: «مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام؟» (ص: 117) وما بعدها، مكتبة وهبة، الطبعة الثامنة (2008م).

(80) ذكره البلاذُري في «فتوح البلدان» (ص: 131)، دار الهلال ببيروت (1988م).

على ورق سطرته بعض الأقلام.

وأكتفي هنا بالحديث عن الإخاء والمساواة، فهما مبدآن متلازمان.

مبدأ الإخاء الإنساني:

أما مبدأ الإخاء البشري العام، فقد قرره الإسلام بناءً على أن البشر جميعًا أبناء رجل واحد وامرأة واحدة، ضمتهم هذه البنوة الواحدة المشتركة، والرحم الواصلة، ولهذا قال تعالى في أول سورة النساء: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: 1].

وما أحق كلمة «الأرحام» المذكورة في هذه الآية أن تفسر بحيث تشمل بعمومها الرحم الإنسانية العامة، لتتسق مع بداية الخطاب بـ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ ومع ذكر النفس الواحدة التي خلق الله منها جميع الناس، رجالًا ونساء، وهي نفس آدم عليه السلام، وعطفها على لفظ الجلالة «الله» في هذا المقام يدل على أن لهذه الأرحام شأنًا أي شأن.

وقد كان رسول الله ﷺ يقرر هذا الإخاء ويؤكده كل يوم أبلغ تأكيد وأوثقه.

فقد روى الإمام أحمد في «مسنده»، عن زيد بن أرقم رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ كان يقول دبر كل صلاة: «**اللهم ربنا ورب كل شيء، أنا شهيد أنك أنت الرب وحدك لا شريك لك ... ربنا ورب كل شيء، أنا شهيد أن محمدًا عبدك ورسولك، ربنا ورب كل شيء، أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة ...**»[81].

---

(81) رواه أحمد (19293)، وقال مخرجوه: إسناده ضعيف، وأبو داود في «أبواب الوتر» (1508)،

بهذا الدعاء كان يناجي رسول الله ﷺ ربه بعد كل صلاة، وإنه ليدلنا أوضح دلالة على قيمة الإخاء البشري في رسالة الإسلام:

1 - فهو - أولًا - يعلن الأخوة بين عباد الله كلهم، لا بين العرب وحدهم، ولا بين المسلمين وحدهم، مشيرًا إلى الجامع المشترك بينهم، الموحد بين أجناسهم وألوانهم وطبقاتهم؛ وهو العبودية لله تعالى.

2 - وهو ﷺ يقرر ذلك في صيغة دعاء يناجي به ربه، ويشهد بنفسه أمامه سبحانه، على حقية هذا المبدأ وصدقه، أي أن تقرير هذا المبدأ ليس مجرد كلام للاستهلاك المحلي، أو للتضليل العالمي، وإنما هو حقيقة دينية لا ريب فيها.

3 - أنه قرن هذا المبدأ بالمبدأين الأساسيين في عقيدة الإسلام، واللذين لا يدخل أحد هذا الدين إلا إذا آمن وشهد بهما، وهما: توحيد الله تعالى، ورسالة عبده محمد، وهذا الاقتران دليل على أهمية هذا المبدأ «الإخاء» لدى رسول الإسلام.

كما أن لهذا الاقتران دلالة أخرى في تأكيد مبدأ الإخاء، فإن توحيد الله تعالى معناه: إسقاطه كافة المتألهين في الأرض، المتعالين على غيرهم من عباد الله. وهذا أول ما يعمق أساس الأخوة بين الخلق. كما أن الشهادة بأن محمدًا عبد الله ورسوله - ليس إلهًا، ولا نصف إله، ولا ثلث إله، ولا ابن إله، ولا من سلالة الآلهة - يؤكد مضمون الأخوة العامة ويثبتها.

4 - ثم هو لا يكتفي بإعلانه مرة في العمر أو مرة كل عام، أو حتى كل شهر، أو كل أسبوع، بل يدل هذا الحديث أنه كان يكرر ذلك في كل يوم، وعقب كل

وضعفه الألباني في «ضعيف أبي داود» (266).

صلاة، أي خمس مرات في اليوم والليلة، وهذا دليل على مزيد العناية والاهتمام.

5 - أنه جعل ذلك من الأذكار والأدعية التي يتعبد بها، ويتقرب إلى الله بتكرارها، وربطه بالصلاة وختامها، وهذا يضفي عليه قدسية ومنزلة في قلوب المؤمنين، لا تعدلها منزلةُ مبدأ، يقرر بعيدًا عن الله وعن هداه.

ويزداد هذا الإخاء توثقًا وتأكدًا إذا أضيف إليه عنصر الإيمان، فتجتمع الأخوة الدينية إلى الأخوة الإنسانية، وتزيدها قوة على قوة، وإذا كان باب الإيمان مفتوحًا لكل الناس بلا قيد ولا شرط، ولا تحفظ على جنس أو لون، أو إقليم أو طبقة، فإن الإخاء الديني المتفرع عن الإيمان والعقيدة المشتركة، لا يضعف الإخاء العام، بل يشد عضده ويقويه، ويجعل له في واقع الناس كتلة حية ملموسة، تؤمن به وتطبقه، وتدعو إليه، وتدافع عنه، فلا تنافي إذن بين الإخاء البشري العام، وبين الإخاء الديني الذي نلمسه في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: 10]، وقوله ﷺ: «**المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه**»(82).

ولقد طبق الإسلام هذا الإخاء الرفيع، وأقام على أساسه مجتمعًا ربانيًّا إنسانيًّا فريدًا، شعاره: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»(83). وجد هذا المجتمع في المدينة بعد الهجرة، في ظل العقيدة، فانطفأت نار العداوة بين الأوس والخزرج، وذابت الحواجز بين القحطانيين والعدنانيين من العرب، كما رأينا ذلك في المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وانحلت العقد بين العربي والعجمي،

---

(82) متفق عليه: رواه البخاري في «المظالم والغصب» (2442)، ومسلم في «البر والصلة» (2580)، عن ابن عمر.

(83) متفق عليه: رواه البخاري (13)، ومسلم (45)، كلاهما في «الإيمان»، عن أنس.

وانمحت الفوارق بين الأغنياء والفقراء، وبين المتحضرين والبداة، وأصبح مسجد الرسول يضم في رحابه الفيحاء، الحبشي- كبلال، والفارسي كسلمان، والرومي كصهيب، إلى جوار إخوانهم العرب الأقحاح من الصحابة، كما يضم أغنياء كابن عوف وابن عفان، وفقراء كأبي ذر وأبي هريرة.

لم ينل من أخوتهم اختلاف الجنس أو اللون أو القبيلة أو الطبقة، أو أي اعتبار بشري مما يفرق الناس بعضهم من بعض.

لقد غسل الإسلام الأنفس من أرجاس الجاهلية، وطهرها من الغل والحسد والحقد، ونقاها من الأنانية والشح والبخل، بل ارتقى ببعض الأنفس إلى درجة الإيثار، كما رأينا في مثل موقف سعد بن الربيع الأنصاري، مع أخيه عبد الرحمن بن عوف المهاجر، فقد عرض عليه شطر ماله ليتملكه، كما عرض عليه إحدى زوجتيه، ليطلقها من أجله فيتزوجها، وهو طيب النفس قرير العين.

وكان هذا هو الطابع العام، لموقف الأنصار من إخوانهم المهاجرين، برغم ما ينشأ عادة من عقد بين أصحاب البلد والطارئين عليهم، وبرغم كيد اليهود، ودسائس المنافقين. ولا عجب أن سجل الله في كتابه هذا الموقف الخالد لهذه الجماعة المؤمنة بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: 9].

مبدأ المساواة الإنسانية:

وأما مبدأ المساواة الإنسانية الذي قرره الإسلام ونادى به، فأساسه: أن الإسلام يحترم الإنسان ويكرمه من حيث هو إنسان، لا من أي حيثية أخرى، الإنسان من

أي سلالة كان، ومن أي لون كان، من غير تفرقة بين عنصر وعنصر، وبين قوم وقوم، وبين لون ولون، مسقطًا كل أنواع التفرقة القبلية والعنصرية والقومية واللونية. يقول القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: 13].

وقد خطب النبي ﷺ الناس بمعنى هذه الآية في حجة الوداع في أوسط أيام التشريق، فقال: «**يا أيها الناس، إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى،** ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: 13]»[84]. وفي الحديث الآخر: «**الناس بنو آدم وآدم خلق من تراب**»[85].

الإنسان من أي وطن كان، وأي بلد كان، بلا فرق بين وطن ووطن، وبين إقليم وإقليم، فالبلاد كلها أرض الله، والناس كلهم عباد الله.

وبهذا تسقط كل ألوان العصبية الإقليمية والوطنية، التي تعلي أهل بلد على غيره.

الإنسان من أي طبقة كان، دون تفريق بين طبقة وطبقة، وبين فئة وأخرى. فكل الناس سواسية، وكل المؤمنين إخوة، ولا اعتبار للغنى أو للفقر في تقديم

---

(84) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (5137)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (2700)، عن جابر بن عبد الله.

(85) رواه أحمد في «المناقب» (8736)، وقال مخرجوه: إسناده حسن، وأبو داود في «الأدب» (5116)، والترمذي في «المناقب» (3955)، وقال: حديث حسن، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (1787)، عن أبي هريرة.

الناس أو تأخيرهم؛ بل الواجب إنزالهم منازلهم، وإعطاء كل ذي حق حقه، دون نظر إلى تلك الاعتبارات.

وبهذا تسقط الاعتبارات الطبقية، التي قام عليها كثير من المجتمعات قديمًا وحديثًا، والتي أقام عليها بعض الناس فلسفتهم الحاقدة السوداء، التي تبني طبقة واحدة بهدم كل الطبقات.

بل الإنسان من أي دين كان، فإن اختلاف الأديان لا يسقط عن المخالفين إنسانيتهم، ولا يخلعهم منها، حتى إن النبي ﷺ قام لجنازة، فقيل له: إنها جنازة يهودي، فقال: «**أليست نفسًا؟!**»(86). لا مكان إذن لجنس متفوق، ولا لشعب مختار، ولا لطبقة متسلطة، ولا لأسرة لها حق السيادة على غيرها.

قد يختلف الناس في أجناسهم وعناصرهم، فيكون منهم الآري والسامي والحامي، والعربي والعجمي.

وقد يختلفون في أنسابهم وأحسابهم، فيكون منهم من ينتهي إلى أسرة عريقة في المجد، ومن ينتهي إلى أسرة صغيرة مغمورة في الناس.

وقد يتفاوت الناس في ثرواتهم، فيكون منهم الغني، ومنهم الفقير، ومنهم المتوسط الحال.

وقد يتفاوتون في أعمالهم ومناصبهم، فيكون منهم الحاكم والمحكوم، ويكون منهم المهندس الكبير والعامل الصغير، ويكون منهم أستاذ الجامعة والحارس

---

(86) متفق عليه: رواه البخاري (1312)، ومسلم (961)، كلاهما في الجنائز، عن قيس بن سعد، وسهل بن حُنيف.

ببابها.

ولكن هذا الاختلاف أو التفاوت، لا يجعل لواحد منهم قيمة إنسانية أكبر من قيمة الآخر، بسبب جنسه أو لونه، أو حسبه أو ثروته، أو عمله أو طبقته أو أي اعتبار آخر.

إن القيمة الإنسانية واحدة للمجتمع، فالعربي إنسان والعجمي إنسان، والأبيض إنسان والأسود إنسان. والحاكم إنسان والمحكوم إنسان، والغني إنسان والفقير إنسان، ورب العمل إنسان والعامل إنسان، والرجل إنسان والمرأة إنسان، والحر إنسان والعبد إنسان، وما دام الكل إنسانًا، فهم إذن سواسية كأسنان المشط الواحد.

ومن هنا اعتبر الإسلام الاعتداء على نفس أي إنسان اعتداء على الإنسانية كلها، كما جعل إنقاذ أي نفس إنقاذًا للجميع، هذا ما قرره القرآن بوضوح: ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ﴾ [المائدة: 32].

شعائر الإسلام تثبت معنى المساواة:

ولم يكتف الإسلام بتقرير مبدأ المساواة نظريًّا، وتثبيته فكريًّا، بل أكده عمليًّا بجملة أحكام وتعاليم، نقلته من فكرة مجردة إلى واقع ملموس. من ذلك العبادات الشعائرية التي فرضها الإسلام، وجعلها الأركان العملية التي يقوم عليها بناؤه العظيم، من الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج.

ففي مساجد الإسلام – حيث تقام صلاة الجمعة والجماعة – تأخذ المساواة صورتها العملية، وتزول كل الفوارق التي تميز بين الناس، فمن ذهب إلى المسجد

أولًا أخذ مكانه في مقدمة الصفوف، وإن كان أقل الناس مالًا، وأضعفهم جاهًا. ومن تأخر حضوره تأخر مكانه، مهما يكن مركزه، ولو نظرت إلى صف واحد من صفوف المصلين، لراعك أن تجد فيه الغني بجانب الفقير، والعالِم بجانب الأمي، والشريف بجانب الوضيع، والحاكم بجوار الخادم.

لا فرق بين واحد وآخر، فكلهم سواسية أمام الله، في قيامهم وقعودهم، وركوعهم وسجودهم ... قبلتهم واحدة، وكتابهم واحد، وربهم واحد، وحركاتهم واحدة، خلف إمام واحد.

وفي الأرض المقدسة - حيث تؤدى مناسك الحج والعمرة - تتحقق المساواة بصورة أشد ظهورًا، وتتجسد تجسدًا تراه العين، وتلمسه اليد، فقد يظل الناس في صف الصلاة متمايزين، بما يلبسون من أنواع الثياب، التي تختلف باختلاف الأقوام، أو البلدان أو الطبقات، أما في الحج والعمرة، فإن شعيرة الإحرام تفرض على الحجاج والمعتمرين، أن يتجردوا من ملابسهم العادية، ويلبسوا ثيابًا بيضاء ساذجة لم يدخلها التكلف والتصنع والتفصيل، أشبه ما تكون بأكفان الموتى، يستوي فيها القادر والعاجز، والملك والسوقة، ثم ينطلق الجميع ملبين بهتاف واحد: «لبيك اللهم لبيك» ... مبتهلين إلى رب واحد، طائفين ببيت الله الحرام، معظمين لشعائره، لا فرق بين سيد ومسود، ولا بين آمر ومأمور.

المساواة أمام قانون الإسلام:

ومن المساواة العملية التي قررها الإسلام قولًا، وطبقها فعلًا: المساواة أمام قانون الشرع وأحكام الإسلام.

فالحلال حلال للجميع، والحرام حرام على الجميع والفرائض ملزمة للجميع،

والعقوبات مفروضة على الجميع.

حاولت إحدى القبائل عند الدخول في الإسلام أن تُعْفَى من الصلاة حينًا من الزمن، فأبى عليها ذلك الرسول ﷺ وقال: «**لا خير في دين لا ركوع فيه**»(87).

وحاول الصحابة أن يُشَفِّعوا أسامة بن زيد - حب رسول الله وابن حبه - في امرأة من قريش ومن بني مخزوم، سرقت فاستحقت أن يقام عليها حد السرقة: قطع اليد، فكلمه فيها أسامة، فغضب ﷺ غضبته التاريخية المعروفة، وقال كلمته التي خلدها التاريخ: «**إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله، لو أن فاطمة بنت محمد سرقتْ لقطعت يدها**»(88).

وفي عهود الخلفاء الراشدين رأينا كثيرًا من الصور والأمثلة لتطبيق مبدأ المساواة بين جميع الناس، دون تفريق أو تمييز.-. وحسبنا أن نشير هنا إلى قصة جبلة بن الأيهم - الأمير الغساني - مع الأعرابي الذي شكا إلى عمر أمير المؤمنين، كيف لطمه جبلة بغير حق، فلم يسع عمر إلا أن يحضر جبلة ويطلب إليه أن يمكن الأعرابي ليقتص منه، لطمة بلطمة، إلا أن يعفو عنه ويصفح، وعز على الأمير الغساني أن يفعل ذلك، وقال لعمر بصراحة: كيف يقتص مني وأنا ملك وهو سوقة؟

---

(87) رواه أحمد (17913)، وقال مخرجوه: رجاله ثقات، رجال الصحيح، غير أن في سماع الحسن من عثمان اختلاف، وضعفه الألباني في «الضعيفة» (4319)، عن عثمان بن أبي العاص.

(88) متفق عليه: رواه البخاري في «أحاديث الأنبياء» (3475)، ومسلم في «الحدود» (1688)، عن عائشة.

فقال عمر: إن الإسلام سوَّى بينكما[89].

ولم يسع الأمير المسكين هذا المعنى الكبير، وخرج من المدينة هاربًا مرتدًّا عن الإسلام الذي يفرض المساواة بين الملك والسوقة أمام شرع الله، وغلبت عليه شقوته فكان من الخاسرين.

ولم يبالِ عمر ولا الصحابة معه بهذه النتيجة؛ لأن ارتداد رجل عن الإسلام أهون بكثير من التهاون في تطبيق مبدأ عظيم من مبادئ الإسلام؛ كالمساواة، وخسارة فرد لا تقاس بخسارة المبدأ.

ومما نشير إليه هنا كذلك: قصة عمر مع واليه على مصر: عمرو بن العاص، حين ضرب ابنُه ابنَ القبطي، متطاولًا عليه بأنه «ابن الأكرمين»، وكيف سافر القبطي من مصر إلى المدينة شاكيًا الوالي، وطالبًا النصفة والعدل، فما كان من عمر إلا أن استدعى عمرًا وولده، وأمر ابن القبطي أن يضرب ابن عمرو كما ضربه، ثم قال لعمرو كلمته الشهيرة: متى استعبدتم الناس، وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا[90]؟!

ومما يلفت الانتباه ويجدر بالتسجيل هنا، موقف القبطي وسفره من مصر إلى المدينة على بعد المسافة، ومشقة الطريق، وضعف الوسائل، وقد كان هذا القبطي وألوف أمثاله، يُضربون ويُعذبون، ويُضرب أبناؤهم وأهلوهم في عهد الرومان، فما يرفعون بالشكاية رأسًا ولا يحركون ساكنًا.

ترى ما الذي طرأ عليهم؟ وما الذي غيّر نظرتهم، وجعلهم يحسون بالظلم،

---

(89) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (72/ 32)، وابن الجوزي في «المنتظم في التاريخ» (5/ 257، 258).

(90) رواه ابن عبد الحكم في «فتوح مصر» (ص: 183)، وإسناده منقطع.

ويشكون منه، ويركبون الصعب في سبيل الانتصاف لأنفسهم؟! إنه الإسلام بلا ريب. الإسلام أشعرهم بكرامتهم الإنسانية، وأفهمهم أن لهم حقوقًا يجب أن تُرعى، مثلما أن عليهم واجبات ينبغي أن تُؤدى، وعرفوا أن هذه المبادئ الإنسانية الجديدة ليست حبرًا على ورق، ولا مجرد لافتات للدعاية، وإنما هي دين يجب أن يحترم وينفذ.

فلا عجب أن قطع الرجل الفيافي، ليطالب بحقه، ويسترد كرامته التي صانها له الإسلام.

وفي عهد أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، سقطت درع له فالتقطها نصراني، فعرفها عليّ معه، فقال: هذه درعي. ولكن الرجل أنكر وادعى أنها ملكه، فلم يملك أمير المؤمنين إلا أن يقول للنصراني: بيني وبينك القضاء، وذهبا إلى القاضي شريح، وبعد سماع الخصمين طلب القاضي من الخليفة بينة على دعواه، أي شهودًا، فلم يكن عنده، فما كان من القاضي إلا أن حكم للرجل النصراني بالدرع، بحكم وضع يده عليه.

ودهش النصراني لهذا الحكم الذي لم يكن يتوقعه، فقال: أشهد أن هذه أحكام أنبياء، أمير المؤمنين يذهب معي إلى قاضيه فيحكم لي عليه، وهو يعلم أنه لا يكذب، أما أني أشهد أن لا إله إلا اللَّه، وأن محمدًا رسول اللَّه ... الدرع درعك يا أمير المؤمنين، سقطت منك فأخذتها. قال: أما إذ أسلمت فهي لك[91]!

أي نظام في الدنيا يعامل رئيس الدولة كما يعامل واحد من الرعية، غير

---

(91) رواه البيهقي في «آداب القاضي» (10/ 136)، عن الشعبي.

الإسلام؟!

كيف كانت المساواة في أمم الحضارة عند ظهور الإسلام؟

ولا يقدر قيمة المساواة في الإسلام حق قدرها، إلا من اطلع على تاريخ الأمم عند ظهور الإسلام، وكيف كان التمييز والتفاوت بين الناس، يأخذ أشكالًا حادة تهون معها كرامة الإنسان. ونكتفي هنا ببلدين شهيرين في التاريخ، هما: فارس، والهند.

ففي بلاد الفرس - كما يقول العلامة أبو الحسن النَّدْوي - : «كانت الأكاسرة ملوك فارس يَدَّعون أنه يجري في عروقهم دم إلهي، وكان الفرس ينظرون إليهم كالآلهة، ويعتقدون أن في طبيعتهم شيئًا علويًّا مقدسًا، فكانوا يكفِّرون(92) لهم وينشدون الأناشيد بألوهيتهم، ويرونهم فوق القانون، وفوق الانتقاد وفوق البشر، لا يجري اسمهم على لسانهم، ولا يجلس أحد في مجلسهم ويعتقدون أن لهم حقًّا على كل إنسان، وليس لإنسان حق عليهم»(93).

«وكذلك كان اعتقادهم في البيوتات الروحية والأشراف من قومهم، فيرونهم فوق العامة في طينتهم، وفوق مستوى الناس في عقولهم ونفوسهم، ويعطونهم سلطة لا حد لها ويخضعون لهم خضوعًا كاملًا.

يقول البروفسور «ارتهرسين» مؤلف: «تاريخ إيران في عهد الساسانيين»: كان

---

(92) أي يضعون أيديهم على صدورهم أمامهم، ويطأطئون رءوسهم، على عكس ما يفعلون في صلاتهم! وقد شددوا في هذه المسألة حتى حكموا ببطلان صلاة من كفَّر في صلاته!

(93) «ماذا خسر العالَم بانحطاط المسلمين» لأبي الحسن الندوي (ص: 42)، ط. مكتبة الإيمان بالمنصورة.

المجتمع الإيراني مؤسسًا على اعتبار النسب والحرف، وكان بين طبقات المجتمع هوة واسعة، لا يقوم عليها جسر، ولا تصل بينها صلة، وكانت الحكومة تحظر على العامة، أن يشتري أحد منهم عقارًا لأمير أو كبير، وكان من قواعد السياسة الساسانية أن يقنع كل واحد بمركزه الذي منحه نسبه، ولا يستشرف لما فوقه، ولم يكن لأحد أن يتخذ حرفة غير الحرفة التي خلقه اللَّه لها.

وكان ملوك إيران لا يولون وضيعًا وظيفة من وظائفهم، وكان العامة كذلك طبقات متميزة بعضها عن بعض تميزًا واضحًا، وكان لكل واحد مركز محدد في المجتمع.

وكان في هذا التفاوت بين طبقات الأمة امتهان للإنسانية، يظهر ذلك جليًّا في مجالس الأمراء والأشراف، حيث يقوم الناس على رءوس الأمراء، كأنهم جماد لا حراك بهم، ويجلسون مزجر الكلب»[94].

أما في الهند فيذكر العلامة السيد أبو الحسن الندوي: «أنه لم يُعرف في تاريخ أمة من الأمم نظام طبقي، أشد قسوة وأعظم فصلًا بين طبقة وطبقة، وأشد استهانة بشرف الإنسان، ومن النظام الذي اعترفت به الهند دينيًّا ومدنيًّا، وخضعت له آلافًا من السنين ولا تزال. فقبل ميلاد المسيح بثلاثة قرون، ازدهرت في الهند الحضارة البرهمية، ووضع فيها مرسوم جديد للمجتمع الهندي، وألف فيه قانون مدني وسياسي، اتفقت عليه البلاد، وأصبح قانونًا رسميًّا ومرجعًا دينيًّا في حياة البلاد ومدنيتها، وهو المعروف الآن بـ «منوشاستر».

(94) المرجع السابق: (ص: 43، 44).

يقسم هذا القانون أهل البلاد إلى أربع طبقات متميزة، وهي:

1 - البراهمة: طبقة الكهنة ورجال الدين.

2 - شتري: رجال الحرب.

3 - ويش: رجال الزراعة والتجارة.

4 - شودر: رجال الخدمة.

ويقول «منو» مؤلف هذا القانون:

إن القادر المطلق قد خلق لمصلحة العالم «البراهمة» من فمه، و«شتري» من سواعده، و«ويش» من أفخاذه، و«الشودر» من أرجله ... ووزع لهم فرائض وواجبات لصلاح العالم. فعلى البراهمة تعليم «ويد» «الكتاب المقدس»، أو تقديم النذور للآلهة وتعاطي الصدقات. وعلى «الشتري» حراسة الناس، والتصدق وتقديم النذور، ودراسة «ويد» والعزوف عن الشهوات ... وعلى «ويش» رعي السائمة والقيام بخدمتها، وتلاوة «ويد» والتجارة والزراعة، وليس لشودر إلا خدمة هذه الطبقات الثلاث ... .

وقد منح هذا القانون طبقة البراهمة امتيازات وحقوقًا ألحقتهم بالآلهة، فقد قال: إن البراهمة هم صفوة الله، وهم ملوك الخلق، وأن ما في العالم هو ملك لهم، فإنهم أفضل الخلائق وسادة الأرض، ولهم أن يأخذوا من مال عبيدهم «شودر» - من غير جريرة - ما شاءوا؛ لأن العبد لا يملك شيئًا، وكل ماله لسيده.

وأن البرهمي الذي يحفظ رك ويد «الكتاب المقدس» هو رجل مغفور له، ولو أباد العوالم الثلاثة بذنوبه وأعماله، ولا يجوز للملك - حتى في أشد ساعات

الاضطراب والفاقة – أن يجبي من البراهمة جباية، أو يأخذ منهم إتاوة، ولا يصح لبرهمي في بلاده أن يموت جوعًا، وإن استحق برهمي القتل، لم يجز للحاكم إلا أن يحلق رأسه، أما غيره فيقتل.

أما الشتري فإن كانوا فوق الطبقتين «ويش» و«شودر»، ولكنهم دون البراهمة بكثير فيقول «منو»: إن البرهمي الذي هو في العاشرة من عمره، يفوق الشتري الذي ناهز مائة، كما يفوق الوالدُ والدَه.

أما شودر «المنبوذون» فكانوا في المجتمع الهندي – بنص هذا القانون المدني الديني – أحط من البهائم، وأذل من الكلاب! فيصرح القانون بأن: من سعادة شودر أن يقوموا بخدمة البراهمة، وليس لهم أجر وثواب بغير ذلك.

وليس لهم أن يقتنوا مالًا أو يدخروا كنزًا، فإن ذلك يؤذي البراهمة. وإذا مد أحد من المنبوذين إلى برهمي يدًا أو عصا ليبطش به، قطعت يده، وإذا رفسه في غضب قطعت رجله، وإذا هم أحمد من المنبوذين أن يجالس برهميًّا، فعلى الملك أن يكوي استه وينفيه من البلاد!! وأما إذا مسه بيد أو سبه فيقتلع لسانه، وإذا ادعى أنه يعلمه سقي زيتًا فائرًا، وكفارة الكلب والقطة والضفدعة والوزغ والغراب والبومة، ورجل من الطبقة المنبوذة سواء.

وقد نزلت النساء في هذا المجتمع منزلة الإماء، وكان الرجل قد يخسر امرأته في القمار، وكان في بعض الأحيان للمرأة عدة أزواج، فإذا مات زوجها صارت كالموءدوة لا تتزوج، وتكون هدف الإهانات والتجريح، وكانت أمة بنت زوجها المتوفى، وخادم الأحماء، وقد تحرق نفسها على أثر وفاة زوجها؛ تفاديًا من عذاب

الحياة وشقاء الدنيا»[95].

فليوازن المنصف بين هذا كله، وبين ما جاء بـه الإسـلام، ليعـرف الفـرق بـين الظلمات والنور.

والمهم أن نعلم أن الإسلام نادى بالمساواة نظريًّا، وطبقها عمليًّا، وأقـام عليهـا مجتمعًا حطم كل الفوارق، التي تقيم الحواجز بين النـاس، مـن عنصريـة ولونيـة وإقليمية وطبقية، كما نرى ذلك واضحًا في صفحات الحضـارة الإسـلامية، وكـما نرى ذلك إلى اليوم في مجتمعات المسلمين، على ما فيها مـن انحـراف عـن حقيقـة الإسلام.

لقد محا الإسلام مـن نفـوس أبنائـه عقـد التمييـز، بـين الأجنـاس والألـوان والطبقات، التي سادت مجتمعات كثيرة، ولا زالـت تسـود مجتمعـات أخـرى إلى اليوم. إن ملايين المسلمين على امتداد القرون يقولون عـن بـلال – العبـد الأسـود الذي اشتراه أبو بكر وأعتقه – : سيدنا بلال رضي الله عنه، معتزين به ومفاخرين، حتى إن عمر – ثالث رجل في الإسلام – يقول عن أبي بكر: هو سيدنا وأعتـق سـيدنا، أي بلالًا[96].

أما الحضارة الغربية فقد أعلنت المساواة مبدءًا وفكـرةً، ولكنهـا عجـزت عـن تحقيقها في مجتمعاتها، ولا زالت مشكلة «التمييز العنصري» حية قائمة، نقرأ عنهـا ونسمع – إن لم نر ونشاهد – في «جنوب إفريقيا»، و«روديسيا»، وغيرهما من البلاد الإفريقية، وكذلك في الولايات المتحـدة الأمريكيـة، التـي فرقـت بـين الأبـيض

(95) «ماذا خسر العالَم بانحطاط المسلمين؟» لأبي الحسن الندوي (ص: 51 – 53).
(96) رواه البخاري في «أصحاب النبي ﷺ» (3754)، عن جابر بن عبد الله.

والأسود، حتى في مقام التعبد لله، فللبيض كنائسهم المستقلة، كما أن للسود كنائسهم الخاصة.

وقد حدث أن أخطأ رجل أسود فدخل كنيسة من كنائس البيض، في يوم من الأيام، وكان القسيس يعظ ويتحدث، فلمح هذا الوجه الغريب بين الحضور، لم يملك إلا أن أخرج ورقة مطوية أرسلها إليه، فلما فتحها الرجل الأسود، وجد فيها: عنوان كنيسة السود في شارع كذا ... !!

وفي «روسيا» أحب شاب إفريقي - كان يدرس في موسكو - فتاة شقراء وأحبته ... وغلا مرجل الغضب في صدور بعض الشباب السوفيتي، لا من أجل الحب، فهذا أمر مباح هناك، بل لانتهاك حرمة اللون ... وفي اليوم التالي وجدت جثة الشاب الأسود ملقاة في الطريق ... واحتج الطلاب الأفارقة بصورة جماعية ... فقابلهم الطلاب الروس بمثلها وهم يقولون في بذاءة ووقاحة: عودوا إلى غاباتكم أيها القردة!!

إن روح الحضارة الغربية - ليبرالية كانت أو شيوعية - روح تمييز واستعلاء، وليست روح إخاء ولا مساواة.

* * *

الفصل الثالث

الشمول

«الشمول» من الخصائص التي تميز بها الإسلام، عن كل ما عرفه الناس من الأديان والفلسفات والمذاهب، بكل ما تتضمنه كلمة «الشمول» من معان وأبعاد.

إنه شمول يستوعب الزمن كله، ويستوعب الحياة كلها، ويستوعب كيان الإنسان كله.

لقد عبر الشهيد حسن البنا عن أبعاد هذا الشمول في رسالة الإسلام، فقال وأجاد:

«إنها الرسالة التي امتدت طولًا حتى شملت آبا الزمن» ...

«وامتدت عرضًا حتى انتظمت آفاق الأمم» ...

«وامتدت عمقًا حتى استوعبت شئون الدنيا والآخرة» ...

رسالة الزمن كله:

إنها رسالة لكل الأزمنة والأجيال، ليست رسالة موقوتة بعصر معين أو زمن مخصوص، ينتهي أثرها بانتهائه، كما كان الشأن في رسالات الأنبياء السابقين على محمد ﷺ، فقد كان كل نبي يبعث لمرحلة زمنية محدودة، حتى إذا ما انقضت بعث الله نبيًّا آخر.

أما محمد ﷺ فهو خاتم النبيين، ورسالته هي رسالة الخلود التي قدر الله بقاءها إلى أن تقوم الساعة، ويُطوى بساط هذا العالم، فهي تتضمن هداية الله الأخيرة

للبشرية. فليس بعد الإسلام شريعة، ولا بعد القرآن كتاب، ولا بعد محمد نبي. ولم يسبق لنبي قبل محمد ﷺ أن أعلن أن رسالته هي الخاتمة وأن لا نبي بعده؛ بل بشرت التوراة بمن يأتي بعد موسى، وبشر الإنجيل بمن يأتي بعد المسيح عيسى، وهو «الفارقليط» الذي سيبين كل الحق: ولا يتكلم من عند نفسه.

إنها رسالة المستقبل المديد ولا شك، وهي أيضًا رسالة الماضي البعيد.

إنها – في جوهرها وأصولها الاعتقادية والأخلاقية – رسالة كل نبي أرسل، وكل كتاب أنزل. فالأنبياء جميعًا جاءوا بالإسلام، ونادوا بالتوحيد، واجتناب الطاغوت. وهذا ما يقرره القرآن في وضوح وتأكيد.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 25].

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: 36].

كل الأنبياء أعلنوا أنهم مسلمون، ودعوا إلى الإسلام.

نوح قال: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: 72].

وإبراهيم وإسماعيل قالا: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: 128].

ووصى إبراهيمُ بنيه ويعقوبُ فقالا: ﴿يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: 132].

ويوسف دعا ربه فقال: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: 101].

وموسى قال: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾

[يونس: 84].

وسحرة فرعون حين آمنوا بموسى، قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ﴾ [الأعراف: 126].

وسليمان بعث لبلقيس وقومها: ﴿أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾ [النمل: 31].

والحواريون قالوا لعيسى: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: 52].

إنها إذن – في جوهرها – رسالة كل نبي جاء من عند الله، منذ عهد نوح إلى محمد عليهم الصلاة والسلام ... إنها رسالة الزمن، كل الزمن.

رسالة العالم كله:

وإذا كانت هذه الرسالة غير محدودة بعصر ولا جيل – فهي كذلك غير محدودة بمكان ولا بأمة، ولا بشعب ولا بطبقة.

إنها الرسالة الشاملة، التي تخاطب كل الأمم، وكل الأجناس، وكل الشعوب، وكل الطبقات.

إنها ليست رسالة لشعب خاص، يزعم أنه وحده شعب الله المختار! وأن الناس جميعًا يجب أن يخضعوا له.

وليست رسالة لإقليم معين، يجب أن تدين له كل أقاليم الأرض، وتُجبى إليه ثمراتها وأرزاقها.

وليست رسالة لطبقة معينة، مهمتها أن تسخر الطبقات الأخرى لخدمة مصالحها أو اتباع أهوائها، أو السير في ركابها، سواء أكانت هذه الطبقة المسيطرة من الأقوياء أم الضعفاء، من السادة أم من العبيد، من الأغنياء أم من الفقراء

والصعاليك ... إنها رسالتهم جميعًا. وليست لمصلحة طائفة منهم دون سواها، وليس فهمها ولا تفسيرها ولا الدعوة إليها حكرًا على طبقة خاصة، كما قد يتوهم كثير من الناس ... إنها هداية رب الناس لكل الناس، ورحمة الله لكل عباد الله.

وهذا ما وضحه القرآن منذ العهد المكي. نقرأ في ذلك: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107]، ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: 158].

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: 1]، ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [ص: 87].

وقد زعم بعض المستشرقين أن محمدًا ﷺ لم يكن يعلن في أول أمره أنه مبعوث إلى الناس كافة، وإنما فعل ذلك بعد ما أتيح له الانتصار على قومه من العرب. ولكن الآيات التي ذكرناها ترد عليهم. فكلها - لسوء حظهم - من سور القرآن المكية. ومثلها مما نزل من أوائل القرآن كثير.

رسالة الإنسان كله:

وهي كذلك رسالة الإنسان من حيث هو إنسان متكامل.

إنها ليست رسالة لعقل الإنسان دون روحه، ولا لروحه دون جسمه، ولا لأفكاره دون عواطفه، ولا عكس ذلك.

إنها رسالة الإنسان كله: روحه وعقله، وجسمه وضميره، وإرادته ووجدانه، كما نبهنا على ذلك في «خصيصة الإنسانية».

إن الإسلام لم يشطر الإنسان شطرين، كما فعلت أديان أخر: شطر روحي

يوجهه الدين، ويتجه به للمعبد، وهذا الشطر أو النصف من اختصاص رجال الدين «الكهنوت» يتحكم فيه الكاهن أو القسيس، ويقود الإنسان من خلاله. وشطر آخر مادي لا سلطان للدين ولا لرجاله عليه، ولا مكان لله فيه ... إنه شطر للحياة، للدنيا، للسياسة، للمجتمع، للدولة، وهذا في الواقع هو الجزء الأكبر من حياة الإنسان.

ترى هل يتفق هذا مع فطرة الإنسان وطبيعته كما خلقه الله؟

كلا، فالإنسان – كما خلقه الله – ليس مجزءًا ولا مشطورًا، إنه «كل» متكامل، و«كيان» واحد، لا تنفصل فيه روح عن مادة، ولا مادة عن روح، ولا عقل عن عاطفة، ولا عاطفة عن عقل، إنه «وحدة» لا تتجزأ، من الجسم والروح والعقل والضمير.

فلهذا يجب أن تكون غايته واحدة، ووجهته واحدة، وطريقه واحدًا، وهذا ما صنعه الإسلام، فقد جعل الغاية الله، والوجهة الآخرة.

وبهذا لا يتمزق الإنسان بين توجيهين مختلفين، أو سلطتين متناقضتين، هذه تشرق به وتلك تغرب، كالعبد الذي له أكثر من سيد، كل واحد يأمره بغير ما يأمر به الآخر، فهمه شعَاع، وقلبه أوزاع كما ذكر القرآن الكريم في قوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [الزمر: 29].

رسالة الإنسان في أطوار حياته كلها:

إن الإسلام هو رسالة الإنسان كله، وهو رسالته كذلك في كل مراحل حياته ووجوده، فهذا مظهر آخر من مظاهر الشمول الإسلامي.

إنها هداية اللّه، تصحب الإنسان أَنّى اتجه وأَنّى سار في أطوار حياته. إنها تصحبه طفلًا ويافعًا وشابًّا وكهلًا وشيخًا، وترسم له في كل هذه المراحل المتعاقبة المنهج الأمثل الذي يحبه اللّه ويرضاه.

فلا عجب أن تجد في الإسلام أحكامًا وتعاليم تتعلق بالمولود منذ ساعة ميلاده مثل: إماطة الأذى عنه، والتأذين في أذنه، واختيار اسم حسن له، وذبح عقيقة عنه شكرًا للّه. وغير ذلك مما ضمنه إمام كابن القيم كتابًا مستقلًّا له، سمَّاه: «تحفة المودود في أحكام المولود».

ونجد أحكامًا تتعلق بإرضاع الرضيع ومدته وفصاله وفطامه، ومن يرضعه وعلى من تكون نفقة المرضعة أو أجرتها، وخصوصًا عند الطلاق وانفصال أم الرضيع عن أبيه. فهنا ينزل القرآن الكريم موضحًا مفصلًا كل ذلك، فيقول: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: 233].

وبعد ذلك نجد أحكامًا تتعلق بالإنسان صبيًّا وشابًّا وكهلًا وشيخًا، فلا توجد مرحلة من حياته إلا وللإسلام فيها توجيه وتشريع.

وأكثر من ذلك أنها تُعنى بالإنسان قبل أن يولد، وبالإنسان بعد أن يموت.

ولا غرو أن وجدنا في الإسلام أحكامًا تتعلق بالجنين، من حيث وجوب حمايته، والحرص على حياته واستمرار غذائه بمقدار كاف. ولهذا حرم الشرع الإجهاض،

وقدر دية محددة تجب على من تسبب في إسقاط الجنين، وشرع للحامل أن تفطر في رمضان إذا خافت على جنينها أن يقل غذاؤه، وتتأثر صحته. إلى غير ذلك من الأحكام التي تتعلق بالحمل وميراثه، وبالحامل ونفقتها مدة الحمل، وإن كانت مطلقة، ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: 6].

كما وجدنا في الإسلام أحكامًا أخرى تتعلق بالإنسان بعد موته: من وجوب تغسيله وتكفينه والصلاة عليه، ودفنه بكيفية خاصة، ومن شرعية التعزية فيه، والدعاء له، وتنفيذ وصاياه، وقضاء ديونه التي عليه للعباد أو لله تعالى، وغير ذلك مما يشمله كتاب: «الجنائز» وغيره في الفقه الإسلامي.

رسالة الإنسان في كل مجالات حياته:

ومن معاني الشمول في الإسلام أيضًا: أنه رسالة للإنسان في كل مجالات الحياة، وفي كل ميادين النشاط البشري، فلا يدع جانبًا من جوانب الحياة الإنسانية إلا كان له فيه موقف: قد يتمثل في الإقرار والتأييد، أو في التصحيح والتعديل، أو في الإتمام والتكميل، أو في التغيير والتبديل، وقد يتدخل بالإرشاد والتوجيه، أو بالتشريع والتقنين، قد يسلك سبيل الموعظة الحسنة، وقد يتخذ أسلوب العقوبة الرادعة، كلٌّ في موضعه.

المهم هنا أنه لا يدع الإنسان وحده - بدون هداية الله - في أي طريق يسلكه، وفي أي نشاط يقوم به: ماديًّا كان أو روحيًّا، فرديًّا أو اجتماعيًّا، فكريًّا أو عمليًّا، دينيًّا أو سياسيًّا، اقتصاديًّا أو أخلاقيًّا.

إن الإسلام - كما قال المرحوم العقاد - هو العقيدة المثلى للإنسان منفردًا أو مجتمعًا، وعاملًا لروحه أو عاملًا لجسده، وناظرًا إلى دنياه، أو ناظرًا إلى آخرته،

ومسالمًا أو محاربًا، ومعطيًا حق نفسه، أو معطيًا حق حاكمه وحكومته. فلا يكـون مسلمًا وهو يطلب الآخرة دون الدنيا، ولا يكون مسلمًا وهـو يطلـب الـدنيا دون الآخرة، ولا يكون مسلمًا لأنه روح تنكر الجسد، أو لأنه جسـد ينكـر الـروح، أو لأنه يصحب إسلامه في حالة ويدعه في حالة أخرى ... ولكنما هو المسلم بعقيدتـه كلها مجتمعة لديه، في جميع حالاته، سواء تفـرد وحـده، أو جمعتـه بالنـاس أواصر الاجتماع.

«إن شمول العقيدة في ظواهرها الفرديـة، وظواهرهـا الاجتماعيـة، هـو المزيـة الخاصة في العقيدة الإسلامية، وهو المزية التي توحي إلى الإنسان أنه «كل» شـامل، فيستريح من «فصام» العقائد التي تشطر السريرة شطرين، ثـم تعيـا بـالجمع بـين الشطرين على وفاق»[97].

يريد الكاتب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أن بعض الديانات كالمسيحية، ارتضـت أن تقسـم الحيـاة نصفين: نصف للدين تقوده الكنيسة، ونصف للدنيا تقوده الدولة. كما ذكرنا مـن قبل

وسند رجال المسيحية في ذلك، ما حكاه إنجيلهم عن المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، أنه قال لمـن سأله عن قيصر قولته المشهورة: «أعط ما لقيصر لقيصر، وما للّه للّه»!

ولكن الإسلام ينكر هذه القسمة للحياة، ويرفضها لأمرين:

الأول: أن الإسلام يجعل الكون كله والخلق كلهم ملكًا للّه، وليس لقيصر فيـه ذرة واحدة، فقيصر إذن وما لقيصر للّه الواحد القهار. وفي هذا يقول القـرآن: ﴿أَلَآ

---

(97) انظر: «الإسلام في القرن العشرين» للعقاد (ص: 15، 16)، طبعة نهضة مصر.

﴿إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: 66]، ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ [طه: 6]، ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران: 83].

فلا يجوز في عقيدة الإسلام أن يخضع المسلم - مختارًا - لأمر قيصر، وهو قادر على إخضاع قيصر لأمر الله، ولا يجوز أن يعطي ظاهره لقيصر، وباطنه لله: ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد: 31].

والثاني: أن الحياة بكل جوانبها كتلة واحدة، لا تقبل الانقسام والتفريق، إلا في الورق أو الرءوس، أما في الواقع فالحياة كل لا يتجزأ، ولا ينفصل فيه دين عن دولة، ولا اقتصاد عن أخلاق، ولا فرد عن أسرة، ولا أسرة عن مجتمع.

ولهذا تحاول كل المذاهب الكبرى السيطرة على كل نواحي الحياة، وتوجيهها حسب فكرتها وعقيدتها. حتى الكنيسة نفسها في العصور الوسطى بأوروبا، لم تطبق عمليًا ما جاء في الإنجيل نظريًا، وحاولت هي أن تأخذ مكان قيصر أو - على الأقل - تسيطر عليه، وتدير السياسة من خلاله.

شمول التعاليم الإسلامية:

وإذا كان الإسلام هو رسالة الإنسان كله، في كل أطواره، ورسالة الحياة كلها، بكل جوانبها ومجالاتها، فلا عجب أن نجد التعاليم الإسلامية كلها، تتميز بهذا الشمول والاستيعاب لكل شئون الحياة والإنسان.

نجد هذا الشمول يتجلى في العقيدة والتصور، ويتجلى في العبادة والتقرب، ويتجلى في الأخلاق والفضائل، ويتجلى في التشريع والتنظيم.

شمول العقيدة الإسلامية:

فالعقيدة الإسلامية عقيدة شاملة من أي جانب نظرت إليها:

1 - فهي توصف بالشمول، باعتبار أنها تفسر كل القضايا الكبرى في هذا الوجود، القضايا التي شغلت الفكر الإنساني، ولا تزال تشغله، وتلح عليه بالسؤال، وتتطلب الجواب الحاسم الذي يخرج الإنسان من الضياع والشك والحيرة، وينتشله من متاهات الفلسفات والنحل المتضاربة قديمًا وحديثًا: قضية الألوهية ... قضية الكون ... قضية الإنسان ... قضية النبوة ... قضية المصير.

فإذا كانت بعض العقائد تُعْنى بقضية الإنسان، دون قضية الألوهية والتوحيد، أو بقضية الألوهية، دون قضية النبوة والرسالة، أو بقضية النبوة، دون قضية الجزاء الأخروي، فإن عقيدة الإسلام قد عنيت بهذه القضايا كلها، وقالت كلمتها فيها، بشمول واضح، ووضوح شامل.

وتوصف العقيدة الإسلامية بالشمول كذلك، لأنها لا تجزئ الإنسان بين إلهين اثنين: إله الخير والنور، وإله الشر والظلمة، كما كان في المجوسية. أو بين اللَّه والشيطان الذي سُمي في الأناجيل باسم: «رئيس هذا العالم» واسم: «إله هذا الدهر»، وانقسم العالم بينه وبين اللَّه، فله مملكة الدنيا، وللَّه ملكوت السماوات، فيوشك أن يكون عمله في نظر المسيحية مضارعًا لعمل «أهريمان» إله الظلام في المجوسية»![98].

إن الشيطان في نظر الإسلام، يمثل قوة الشر لا مراء، ولكنها قوة لا سلطان لها

(98) انظر: «حقائق الإسلام وأباطيل خصومه» للعقاد (ص: 103)، نشر المكتبة العصرية ببيروت، الطبعة الأولى.

على ضمير الإنسان، إلا سلطان الوسوسة والإغراء، والدعوة إلى الشر وتزيينه في الأنفس، فهذا مبلغ كيده وجهده، وهو كيد ضعيف أمام يقين المؤمنين المعتصمين بالله، المتوكلين عليه.

يقول الله تعالى، على لسان الشيطان نفسه في مخاطبة من أغواهم: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِي﴾ [إبراهيم: 22].

ويقول سبحانه في مخاطبة الشيطان: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾ [الإسراء: 65]، ويقول: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ 99 إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ﴾ [النحل: 99، 100]، ويقول: ﴿إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: 76].

وتوصف العقيدة الإسلامية بالشمول من ناحية أخرى، وهي أنها لا تعتمد في ثبوتها على الوجدان أو الشعور وحده، كما هو شأن الفلسفات الإشرافية والمذاهب الصوفية، وكما هو شأن المسيحية التي ترفض تدخل العقل في العقيدة رفضًا باتًّا، بحيث لا تؤخذ إلا بالتسليم المطلق، على حد قولهم: اعتقد وأنت أعمى.

وهي كذلك لا تعتمد على العقل وحده، كما هو شأن جل الفلسفات البشرية التي تتخذ العقل وسيلتها الفذة في معرفة الله، وحل ألغاز الوجود.

وإنما تعتمد على الفكر والشعور معًا، أو العقل والقلب جميعًا، باعتبارهما أداتين متكاملتين من أدوات المعرفة الإنسانية، والوعي الإنساني.

إن الإيمان الإسلامي الصحيح هو الذي ينبعث من ضياء العقل وحرارة القلب، وبذلك يؤدي دوره ويؤتي أكله في الحياة.

وتوصف العقيدة الإسلامية بالشمول أيضًا؛ لأنها عقيدة لا تقبل التجزئة، لا بد

أن تؤخذ كلها بكل محتوياتها دون إنكار، أو حتى شك في أي جزء منها. فمن آمن بـ (99٪) من مضمون هذه العقيدة، وكفر بـ (1٪) لم يعد بذلك مسلمًا؛ فالإسلام يقتضي أن يسلم الإنسان قياده كله لله، ويؤمن بكل ما جاء من عنده.

لا يجوز في نظر العقيدة الإسلامية، أن يقول مسلم: أنا مؤمن بالقرآن الكريم في شأن الشعائر والعبادات – مثلًا – ولكن لا أؤمن بما جاء به في شأن الأخلاق والآداب، أو يقول: آخذ من القرآن العبادة والأخلاق، ولكن لا أستمد النظام والتشريع، أو آخذ منه ذلك كله، ولكن لا أصدقه في كل ما يرويه من أحداث التاريخ، أو أصدقه وأسلم له في كل ما ذكرنا، ولكن لا أعتقد بحقيقة ما جاء في وصف الآخرة، وحقيقة الجنة والنار.

ومن ثَمَّ أنكر القرآن أشد الإنكار على بني إسرائيل إيمانهم ببعض الرسل دون بعض، وببعض الكتاب الإلهي دون بعض، يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا 150 أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ [النساء: 150، 151]، ويقول سبحانه: ﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [البقرة: 85].

شمول العبادة في الإسلام:

وتتمثل ظاهرة الشمول الإسلامي في عبادته كما تمثلت في عقيدته.

فالعبادة في الإسلام تستوعب الكيان البشري كله، فالمسلم لا يعبد الله بلسانه فحسب، أو ببدنه فقط، أو بقلبه لا غير، أو بعقله مجردًا، أو بحواسه وحدها؛ بل

يعبد الله بهذه كلها: بلسانه: ذاكرًا داعيًا تاليًا، وببدنه: مصليًا صائمًا مجاهدًا، وبقلبه: خائفًا راجيًا محبًّا متوكلًا، وبعقله متفكرًا متأملًا، وبحواسه كلها، مستعملًا لها في طاعته سبحانه.

إن عبادة كالصلاة تتجلى فيها عبادة اللسان بالتلاوة والتكبير، والتسبيح والدعاء، وعبادة الجسم بالقيام والقعود، والركوع والسجود، وعبادة العقل بالتفكر والتأمل في معاني القرآن وأسرار الصلاة، وعبادة القلب بالخضوع والحب لله، والشعور بمراقبة الله.

ومعنى آخر للشمول في العبادة، وهو أنها تتسع للحياة كلها، فلا تقتصر على الشعائر التعبدية المعروفة من صلاة وزكاة وصيام وحج، بل تشمل كل حركة وكل عمل، ترتقي به الحياة ويسعد به الناس.

فالجهاد في سبيل الله، دفاعًا عن الحق، وذودًا عن الحرمات، ومنعًا للفتنة، وإعلاءً لكلمة الله ... عبادة لا تعدلها عبادة.

عن أبي هريرة ﷺ قال: مر رجل من أصحاب رسول الله ﷺ بِشِعْبٍ فيه عيينة من ماء عذبة، فأعجبته، فقال: لو اعتزلت الناس، فأقمت في هذا الشِّعْبِ! «يعني: لأتعبد» ولن أفعل حتى أستأذن رسول الله ﷺ فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: **«لا تفعل، فإن مقام أحدكم في سبيل الله تعالى، أفضل من صلاته في بيته سبعين عامًا! ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة؟ اغزوا في سبيل الله ... من قاتل في سبيل الله فواق ناقة وجبت له الجنة»**[99].

---

(99) رواه أحمد (10786)، وقال مخرِّجوه: إسناده حسن، والترمذي (1650)، وقال: حديث

وعنه أيضًا، قال: قيل: يا رسول الله، ما يعدل الجهاد في سبيل الله؟ قال: «**لا تستطيعونه**». فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثًا، كل ذلك يقول: «**لا تستطيعونه**». ثم قال: «**مثل المجاهد في سبيل الله، كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله، لا يفتر من صيام، ولا صلاة، حتى يرجع المجاهد في سبيل الله تعالى**»(100).

وكل عمل نافع يقوم به المسلم، لخدمة المجتمع، أو مساعدة أفراده، وخصوصًا الضعفاء وذوي العجز والفاقة منهم ... هو كذلك عبادة، أي عبادة.

من ذلك ما جاءت به الأحاديث الكثيرة، التي تحث على الصدقة كل يوم تطلع فيه الشمس، حتى جعلت إماطة الأذى عن الطريق صدقة، وحمل الرجل الضعيف على دابته صدقة، بل تبسمك في وجه أخيك صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وكل معروف صدقة.

ويدخل في دائرة العبادة: سعي الإنسان على معاشه ومعاش أسرته، ليغنيهم بالحلال، ويعفهم عن السؤال، فالرسول ﷺ قد اعتبر من فعل ذلك «**في سبيل الله**»، أي في جهاد كجهاد الميدان وقتال أعداء الله.

وأكثر من ذلك أنه جعل من وضع شهوته في حلال كان له بها أجر، ولما عجب الصحابة من ذلك، قال لهم النبي – كما في «الصحيح» – : «**أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر**»(101). وزاد

حسن، والحاكم (2/ 68)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، كلاهما في «الجهاد»، وحسَّنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (1301). وقد ذكرها شيخنا البهي الخولي وعلَّق عليها في كتابه: «تذكرة الدعاة».

(100) متفق عليه: رواه البخاري في «الجهاد» (2787)، ومسلم في «الإمارة» (1878).

(101) رواه مسلم في «الزكاة» (1006)، عن أبي ذر.

أحمد: «**أفتحتسبون بالشر ولا تحتسبون بالخير**»[102].

شمول الأخلاق في الإسلام:

ويبرز الشمول كذلك في ميدان الأخلاق والفضائل. فالأخلاق الإسلامية ليست هي التي تعرف عند بعض الناس بـ «الأخلاق الدينية» التي تتمثل في أداء الشعائر التعبدية، واجتناب أكل لحم الخنزير وشرب الخمر، ونحو ذلك لا غير ... إنها أخلاق تسع الحياة بكل جوانبها، وكافة مجالاتها.

إن الأخلاق في الإسلام لم تدع جانبًا من جوانب الحياة الإنسانية: روحية أو جسمية، دينية أو دنيوية، عقلية أو عاطفية، فردية أو اجتماعية، إلا رسمت له المنهج الأمثل للسلوك الرفيع. فما فرقه الناس في مجال الأخلاق، باسم الدين وباسم الفلسفة، وباسم العرف أو المجتمع، قد ضمه قانون الأخلاق في الإسلام في تناسق وتكامل وزاد عليه.

1 - إن من أخلاق الإسلام ما يتعلق بالفرد في كافة نواحيه:

(أ) جسمًا له ضروراته وحاجاته؛ بمثل قوله تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ [الأعراف: 31]، وقول الرسول ﷺ: «**إن لجسدك عليك حقًّا**»[103].

(ب) وعقلًا له مواهبه وآفاقه، يقول القرآن: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: 101]، ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾ [سبأ: 46].

---

(102) رواه أحمد (21469).

(103) متفق عليه: رواه البخاري (1975)، ومسلم (1159)، كلاهما في «الصوم»، عن عبد الله بن عمرو.

(جـ) ونفسًا لها مشاعرها ودوافعها وأشواقها: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا 9 وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: 9، 10].

2 – ومن أخلاق الإسلام ما يتعلق بالأسرة:

(أ) كالعلاقة بين الزوجين: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 19].

(ب) وكالعلاقة بين الأبوين والأولاد: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾ [الأحقاف: 15]، ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: 31].

(جـ) وكالعلاقة بين الأقارب والأرحام: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: 90]، ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الإسراء: 26].

3 – ومن أخلاق الإسلام ما يتعلق بالمجتمع:

(أ) في آدابه ومجاملاته، مثل: ﴿لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَاۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور: 27].

(ب) وفي اقتصاده ومعاملاته: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ 1 ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ 2 وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: 1 – 3]. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: 282].

(جـ) وفي سياسته وحكمه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا

حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء: 58].

4 – ومن أخلاق الإسلام، ما يتعلق بغير العقلاء من الحيوان والطير، كما في الحديث: «**اتقوا الله في البهائم المعجمة، فاركبوها صالحة، وكلوها صالحة**»[104]، وفي الحديث الآخر: «**في كل كبد رطبة أجر**»[105].

5 – ومن أخلاق الإسلام ما يتعلق بالكون الكبير:

من حيث إنه مجال التأمل والاعتبار، والنظر والتفكر، والاستدلال بما فيه من إبداع وإتقان، على وجود مبدعه وقدرته، وعلى علمه وحكمته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ 190 ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾ [آل عمران: 190، 191].

ومن حيث إنه مجال للانتفاع والاستمتاع، بما أودع الله فيه من خيرات، وما بث فيه من قوى مسخرة لمنفعة الإنسان، وما أسبغ فيه من نعم، تستوجب الشكر لواهبها والمنعم بها، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: 20].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ﴾ [البقرة: 172].

---

(104) رواه أبو داود في «الجهاد» (2548)، وابن خزيمة في «المناسك» (2545)، وصحح إسناده النووي في «رياض الصالحين» (966)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (23)، عن سهل بن الحنظلية.

(105) متفق عليه: رواه البخاري في «المساقاة» (2363)، ومسلم في «السلام» (2244)، عن أبي هريرة.

6 – وقبل ذلك كله وفوق ذلك كله، ما يتعلق بحق الخالق العظيم الذي منه كل النعم وله كل الحمد: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ 2 ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ 3 مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ 4 إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ 5 ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: 2 – 6]، فهو وحده الحقيق بأن يحمد الحمد كله، وأن تُرجى رحمته الواسعة، وأن يُخشى عقابه العادل يوم الجزاء، وهو وحده الذي يستحق أن يُعْبَد ويُسْتَعان، وأن تُطْلَب منه الهداية إلى الصراط المستقيم.

وبهذا، يتجلى شمول الأخلاق الإسلامية، من حيث موضوعها ومحتواها، ولكن الشمول في الأخلاق الإسلامية يبدو كذلك، إذا نظرنا إلى فلسفتها ومصدر الإلزام بها.

لقد شاء الله للإسلام أن يكون الرسالة العامة الخالدة، فهو هداية الله للناس كافة، من كل الأمم، وكل الطبقات وكل الأفراد، وكل الأجيال. والناس تختلف مواهبهم وطاقاتهم الروحية والعقلية والوجدانية، وتتفاوت مطامحهم وآمالهم، ودرجات اهتمامهم.

ولهذا جمعت الفكرة الأخلاقية في الإسلام ما فرقته الطوائف الدينية، والمذاهب الفلسفية – مثالية وواقعية – في نظرتها إلى الأخلاق، وتفسيرها لمصدر الإلزام الخلقي، فلم يكن كل ما قالته هذه المذاهب والنظريات باطلًا، كما لم يكن كله حقًّا، إنما كان عيب كل نظرية أنها نظرت من زاوية، وأغفلت أخرى، وهو أمر لازم لتفكير البشر، الذي يستحيل عليه أن ينظر في قضية ما، نظرًا يستوعب كل الأزمنة والأمكنة، وكل الأجناس والأشخاص، وكل الأحوال والجوانب، فهذا يحتاج إلى إحاطة إله عليم حكيم.

فلا غرو إذا كانت نظرة الإسلام، جامعة محيطة مستوعبة؛ لأنها ليست نظرية بشر، بل وحي من أحاط بكل شيء علمًا، وأحصى كل شيء عددًا.

لهذا أودع الله في هذا الدين ما يشبع كل نهمة معتدلة، وما يقنع كل ذي وجهة، ويلائم كل تطور، فمن كان مثاليًا ينزع إلى الخير لذات الخير، وجد في أخلاقية الإسلام ما يرضي مثاليته، ومن كان يؤمن بمقياس السعادة، وجد في الفكرة الإسلامية ما يحقق سعادته وسعادة المجموع معه، ومن كان يؤمن بمقياس المنفعة - فردية أو اجتماعية - وجد في الإسلام ما يرضي نفعيته، ومن كان يؤمن بالترقي إلى الكمال، وجد فيه ما يحقق طلبته، ومن كان همه التكيف مع المجتمع، وجد فيه ما يلائم اجتماعيته، حتى الذي يؤمن بأهمية اللذة الحسية يستطيع أن يجدها فيما أعد الله للمؤمنين في الجنة من نعيم مادي، ومتاع حسي: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: 71].

وبهذا تسمع كل أذن الأنشودة التي تحبها، وتجد كل نفس الأمنية التي تهفو إليها[106].

شمول التشريع في الإسلام:

والتشريع في الإسلام تشريع شامل كذلك.

إنه لا يشرع للفرد دون الأسرة، ولا للأسرة دون المجتمع، ولا للمجتمع منعزلًا عن غيره من المجتمعات.

---

(106) للاستزادة انظر: «كلمات في مبادئ علم الأخلاق» لأستاذنا المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز.

إن تشريع الإسلام يشمل التشريع للفرد في تعبده وصلته بربه، وهذا ما يُفَصِّله قسم «العبادات» في الفقه الإسلامي، وهو ما لا يوجد في التشريعات الوضعية.

ويشمل التشريع للفرد في سلوكه الخاص والعام، وهذا يشمل ما يسمى: «الحلال والحرام» أو الحظر والإباحة.

ويشمل التشريع ما يتعلق بأحوال الأسرة، من زواج وطلاق ونفقات، ورضاع وميراث، وولاية على النفس والمال ونحوها. وهذا يشمل ما يسمى في عصرنا: «الأحوال الشخصية».

ويشمل التشريع للمجتمع في علاقاته المدنية والتجارية، وما يتصل بتبادل الأموال والمنافع، بعوض أو بغير عوض، من البيوع والإجارات، والقروض والمدانيات، والرهن والحوالة، والكفالة والضمان وغيرها، مما تتضمنه في عصرنا القوانين المدنية والتجارية.

ويشمل التشريع ما يتصل بالجرائم وعقوباتها المقدرة شرعًا، الحدود والقصاص، والمتروكة لتقدير أهل الشأن كالتعازير، وهذا يشمل ما يشمل الآن بـ «التشريع الجنائي» أو «الجزائي» وقوانين العقوبات.

ويشمل التشريع الإسلامي ما يتعلق بواجب الحكومة نحو المحكومين، وواجب المحكومين نحو الحكام، وتنظيم الصلة بين الطرفين، مما عنيت به كتب السياسة الشرعية والخراج، والأحكام السلطانية في الفقه الإسلامي، وتضمنه في عصرنا «التشريع الدستوري» أو «الإداري» و«المالي».

ويشمل التشريع الإسلامي ما ينظم العلاقات الدولية في السلم والحرب، بين المسلمين وغيرهم، مما عنيت به كتب «السير» أو «الجهاد» في فقهنا الإسلامي، وما

ينظمه في عصرنا «القانون الدولي».

ومن هنا لا توجد ناحية من نواحي الحياة إلا دخل فيها التشريع الإسلامي آمرًا أو ناهيًا، أو مخيرًا.

وحسبنا أن أطول آية نزلت في كتاب اللَّه تعالى، نزلت في تنظيم شأن من الشئون المدنية، وهو المداينة، وكتابة الدَّيْن.

ويبدو شمول التشريع الإسلامي في أمر آخر، أو بعد آخر، وهو النفاذ إلى أعماق المشكلات المختلفة، وما يؤثر فيها، وما يتأثر بها، والنظر إليها نظرة محيطة مستوعبة، مبنية على معرفة النفس الإنسانية، وحقيقة دوافعها وتطلعاتها وأشواقها، ومعرفة الحياة البشرية وتنوع احتياجاتها وتقلباتها، وربط التشريع بالقيم الدينية والأخلاقية، بحيث يكون التشريع في خدمتها وحمايتها، ولا يكون معولًا لهدمها.

ومن عرف هذا جيدًا، استطاع أن يفهم موقف التشريع الإسلامي وروعته من قضايا كثيرة، كالطلاق وتعدد الزوجات، والميراث، والربا، والحدود والقصاص، وغيرها. مما أثبتت الدراسات المقارنة، وأثبت الاستقراء التاريخي والواقعي فضل الإسلام فيه وتفوقه على كل تشريع سابق أو لاحق.

إن عيب البشر الذي هو من لوازم ذواتهم المحدودة، أنهم ينظرون إلى الأمور والأشياء من جانب واحد، غافلين من جانب أو أكثر من جوانبها الأخرى. والحقيقة أنهم لا ذنب لهم في هذا القصور ولا حيلة؛ لأن النظرة المحيطة الشاملة، التي تستوعب الشيء من جميع جوانبه، وتعرف كل احتياجاته، وتدرك كل احتمالاته وتوقعاته، لا يقدر عليها إلا رب البشر وخالق الكون: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ

﴿خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: 14].

شمول الالتزام بالإسلام كله:

هذا الشمول الذي تميز به الإسلام - بحيث استوعب الحياة كلها، والإنسان كله، في كل أطوار حياته، وفي كل مجالات حياته - يجب أن يقابله شمول مماثل من جانب التزام المسلمين: أعني الالتزام بهذا الإسلام كله، في شموله وعمومه وسعته. فلا يجوز الأخذ بجانب من تعاليمه وأحكامه، وطرح جانب آخر، أو جوانب أخرى منها، قصدًا أو إهمالًا، لأنها «كل» لا يتجزأ.

وقد عاب القرآن الكريم على بني إسرائيل تجزئتهم أحكام دينهم تبعًا لأهوائهم، يأخذون منها ما راق لهم، ويدعون ما لم يرق لهم، فقرعهم الله أشد التقريع على ذلك فقال: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ 85 أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: 85، 86].

فلا يجوز في نظر الإسلام أخذ جانب العقيدة والإيمان من تعاليمه، وإغفال جانب العبادة أو الأخلاق، كالذين قالوا: لا تضر مع الإيمان معصية، كما لا تنفع مع الكفر طاعة. فإن عمل الصالحات مكمل للإيمان، وسياج له، وثمرة لازمة للإيمان الصادق، كما بيّن ذلك القرآن والسنة: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ 2 ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ 3 أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: 2 - 4].

ولا يجوز في نظر الإسلام العناية بالعبادات والشعائر، وإهمال جانب الأخلاق

والفضائل؛ لأن الفضائل الأخلاقية، من شعب الإيمان الحق، وثمرة للعبادة الصحيحة: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة، والحياء شعبة من الإيمان**»(107). ﴿**وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ**﴾ [العنكبوت: 45]، وفي «الصحيحين»: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان**». وزاد مسلم: «**وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم**»(108).

ولا يجوز في نظر الإسلام كذلك الاهتمام بالجانب الأخلاقي، وإغفال الجانب التعبدي، فإن الناس إنما خلقوا ليعرفوا الله ويعبدوه: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾ [الذاريات: 56]، وإنما يعبد الله تعالى بما شرع وفرض من شعائر وفرائض اعتبرها رسوله الأركان التي بني عليها الإسلام.

وأول خُلق يجب أن يتحلى به المسلم هو الوفاء لله بعهده، وشكر نعمته، وأداء أمانته، وذلك بأداء حقه الذي افترضه على عباده من صلاة وزكاة وصيام وحج: ﴿**وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ**﴾ [آل عمران: 97].

ولا يجوز في نظر الإسلام الأخذ بكل ما ذكر من عقيدة وعبادة وأخلاق، مع إغفال جانب الشريعة التي نظم الله بها حياة الخلق، وأنزل بها الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط - فلا يحل لمن يؤمن بعدل الله تعالى، وكمال علمه وحكمته وبره بخلقه، أن يدع شرع الله عمدًا، ليحكم بشرائع البشر الممثلة لقصورهم وأهوائهم. ولهذا حذر الله رسوله - وبالتالي كل حاكم من بعده - أن يدع: ﴿**بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ**﴾ [المائدة: 49]، تأثرًا بأهواء الآخرين وفتنتهم، فإن من ترك حكم الله

---

(107) متفق عليه: رواه البخاري (9)، ومسلم (35)، كلاهما في «الإيمان»، عن أبي هريرة.

(108) متفق عليه: رواه البخاري (33)، ومسلم (59)، كلاهما في «الإيمان»، عن أبي هريرة.

سقط لا محالة في حكم الجاهلية، ولا ثالث لهما. قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَـٰسِقُونَ 49 أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: 49، 50].

* * *

الفصل الرابع

الوَسَطِيَّة

وهذه خصيصة أخرى من أبرز خصائص الإسلام، وهي «الوسطية»، ويُعبَّر عنها أيضًا بـ «التوازن»، ونعني بها: التوسط، أو التعادل بين طرفين متقابلين أو متضادين، بحيث لا ينفرد أحدهما بالتأثير، ويطرد الطرف المقابل، وبحيث لا يأخذ أحد الطرفين أكثر من حقه، ويطغى على مقابله ويحيف عليه.

مثال الأطراف المتقابلة أو المتضادة: الروحية والمادية، والفردية والجماعية، والواقعية والمثالية، والثبات والتغير، وما شابهها. ومعنى التوازن بينها: أن يفسح لكل طرف منها مجاله، ويعطي حقه «بالقسط» أو «بالقسطاس المستقيم»، بلا وكس ولا شطط، ولا غلو ولا تقصير، ولا طغيان ولا إخسار. كما أشار إلى ذلك كتاب الله بقوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ 7 أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ 8 وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ﴾ [الرحمن: 7 – 9].

عجز الإنسان عن إنشاء نظام متوازن:

وهذا في الحقيقة أكبر من أن يقدر عليه الإنسان، بعقله المحدود، وعلمه القاصر، فضلًا عن تأثير ميوله ونزعاته الشخصية والأُسَرية والحزبية والإقليمية والعنصرية، وغلبتها عليه من حيث يشعر أو لا يشعر.

ولهذا لا يخلو منهج أو نظام يصنعه بشر – فرد أو جماعة – من الإفراط أو التفريط. كما يدل على ذلك استقراء الواقع وقراءة التاريخ.

إن القادر على إعطاء كل شيء في الوجود – ماديًّا كان أو معنويًّا – حقه بحساب

وميزان، هو اللَّه الذي خلق كـل شيء فقـدَّره تقـديرًا، وأحـاط بكـل شيء خـبرًا، وأحصى كل شيء عددًا، ووسع كل شيء رحمة وعلمًا.

ولا عجب أن نرى هذا التوازن الدقيق في خلـق اللَّه، وفي أمـر اللَّه جميعًـا، فهـو صاحب الخلق والأمر. فظاهرة التوازن، تبدو فيها أمر اللَّه بـه وشرعـه مـن الهُـدَى ودين الحق، أي في نظام الإسلام ومنهجه للحياة، كما تبـدو في هـذا الكـون الـذي أبدعته يد اللَّه، فأتقنت فيه كل شيء.

ظاهرة التوازن في الكون كله:

ننظر في هذا العالم من حولنا فنجد الليل والنهـار، والظـلام والنـور، والحـرارة والبرودة، والماء واليابس، والغازات المختلفة، كلهـا بقـدر وميـزان وحسـاب، لا يطغى شيء منها على مقابله، ولا يخرج عن حده الْمُقدَّر له.

وكذلك الشمس والقمر والنجوم والمجموعـات الكونيـة السـابحة في فضـاء الكون الفسيح، إن كلًّا منها يسبح في مداره، ويدور في فلكه، دون أن يصدم غيره، أو يخرج عن دائرته. وصدق اللَّه العظيم إذ يقـول: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: 49]، ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: 3]، ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: 40]، ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ 5 وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ 6 وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: 5 – 7].

وقد لاحظ الأديب المعروف الأسـتاذ توفيـق الحكـيم هـذه الظـاهرة الكونيـة العامة: ظاهرة التوازن، أو التعادل بين المتقابلات في شتى جوانب الكون والحيـاة. فبنى عليها نظريته في الأدب والفن والثقافة، وأطلق عليها عنوان: «التعادلية».

فهو يتحدث عن الأرض التي يعيش عليها الإنسان، مؤكدًا أن أهم صفة للأرض أنها كرة تعيش بالتوازن والتعادل بينها وبين كرة أضخم هي الشمس.

يقول: « ... فإذا اختل هذا التعادل ابتلعتها الشمس أو ضاعت في الفضاء ... التعادل إذن هو الحقيقة الأولى لحياة الأرض.

فهل صفة التعادل هي أيضًا الحقيقة الأولى في كيان الإنسان؟

فلننظر أولًا كيف يعيش الإنسان مِنْ حيث هو كائن مادي؟ ... إنه يعيش طبعًا بالتنفُّس.

ما هو التنفس؟ ... هو حركة تعادل بين الشهيق والزفير.

فإذا اختل هذا التعادل، بأن طال الشهيق أكثر مما ينبغي طاغيًا على الزفير، أو امتد الزفير أكثر مما ينبغي جائرًا على الشهيق، وقفت حياة الإنسان. فإذا تركنا التركيب المادي إلى التركيب الروحي، وجدنا عين القانون.

فالتركيب الروحي للإنسان له هو أيضًا شهيقه وزفيره، فيما يمكن أن نسميه: الفكر والشعور. أو بعبارة أخرى: العقل والقلب.

والحياة الروحية السليمة: هي أيضًا تعادل بين الفكر والشعور.

وما يطلق عليه وصف الأمراض العقلية والعصبية، ما هو إلا اختلال في هذا التعادل، إما بتضخم الشعور تضخمًا يلغي إلى جانبه أو يعطل مهمة الفكر، فيرتد الإنسان طفلًا في أعوامه الأولى، وإما أن يطغى الفكر ويكبت الشعور، فترتبك أداة الإدراك في الإنسان ... .

فالإنسان إذن كائن متعادل ماديًّا وروحيًّا، وهو ليس وحده الذي ينطبق عليه

هذا التعريف، كل الكائنات التي تحملها هذه الأرض المتعادلة هي أيضًا كأمها في تركيبها تعادلًا، هو سر حياتها.

فالحيوان والنبات والجماد ... كلها تخضع لقانون «التعادل» في تركيبها البيولوجي والكيميائي والطبيعي، حتى في نظر العلم الحديث الذي غير معتقدات القرن التاسع عشر، حول «المادة» وبيّن بنظرياته عن «المادة» و«المجال». أن ما نصفه بالمادة ليس سوى «الطاقة» مركزة تركيزًا شديدًا.

كما أنه صاغ أيضًا القوانين الجديدة في مجال الجاذبية بين جزئيات المادة، والجاذبية: هي أساس التعادل؛ أن الجاذبية تعني وجود قوتين. والتعادل يعني: المحافظة على بقاء القوتين، دون أن تتلاشى إحداهما في الأخرى»[109].

والذي لاحظه الأستاذ الحكيم في الكون الصغير: الإنسان، والكون الكبير: العالم، من ظاهرة التعادل، أو التوازن بين أجزائه، من الذرة إلى المجموعة الشمسية، والتي بنى عليها مذهبه في الأدب والفن، حقيقة لا ريب فيها، قد سبق القرآن بالإرشاد إليها، والتنبيه عليها، كما ذكرنا من قبل، وبنى على ذلك فلسفته ومنهجه للحياة كلها: مادية وروحية، فردية واجتماعية، وأعلن تميز أمته بهذه الخصيصة الكبيرة: الوسطية أو التوازن.

وإلى هذه الخصيصة البارزة يشير قوله تعالى مخاطبًا أمة الإسلام: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا﴾ [البقرة: 143].

---

(109) «التعادلية» لتوفيق الحكيم (ص: 39 – 41)، مكتبة الآداب بالقاهرة.

ووسطية الأمة الإسلامية إنما هي مستمدة من وسطية منهجها ونظامها، فهـي منهج وسط لأمة وسط. مـنهج الاعتـدال والتـوازن، الـذي سـلم مـن الإفـراط والتفريط، أو من الغلو والتقصير.

مزايا الوسطية وفوائدها:

ولقد كان من حكمة الله تعالى أن اختار الوسطية أو التوازن شـعارًا مميـزًا لهـذه الأمة التي هي آخر الأمم، ولهذه الرسالة التي ختم بها الرسالات الإلهية، وبعث بها خاتم أنبيائه رسولًا للناس جميعًا، ورحمة للعالمين.

الوسطية أليق بالرسالة الخالدة:

فقد يجوز في رسالة مرحلية محدودة الزمن والإطار أن تعالج بعض التطـرف في قضية ما بتطرف مضاد، فإذا كان هناك مبالغـة في الـدعوة إلى الواقعيـة، قوومِـتْ بمبالغة مقابلة في الدعوة إلى المثالية، وإذا كان هناك غلو في النزعة المادية، وُدَّ عليها بغلو معاكس في النزعة إلى الروحية. كما رأينا ذلك في الديانة المسيحية وموقفها من النزعة المادية الواقعية عند اليهود والرومـان. فـإذا أدت الـدعوة المرحليـة دورهـا الموقوت، وحدَّتْ من الغلو، ولو بغلو مثله، كان لا بد من العودة إلى الحد الوسط، وإلى الصراط السوي، فتعتدل كفتا الميزان. وهـذا مـا جـاءت بـه رسـالة الإسـلام بوصفها رسالة عالمية خالدة.

على أن في الوسطية معاني أخرى تميز منهج الإسلام وأمـة الإسـلام، وتجعلهـما أهلًا للسيادة والخلود.

الوسطية تعني العدل:

1 - فمن معاني الوسطية التي وُصِفَتْ بها الأمة في الآيـة الكريمـة ورتبـت عليهـا

شهادتها على البشرية كلها: العدل، الذي هو ضرورة لقبول شهادة الشاهد، فما لم يكن عدلًا، فإن شهادته مردودة مرفوضة. أما الشاهد العدل، والحاكم العدل، فهو المرضيُّ بين كافة الناس.

وتفسير الوسط في الآية بالعدل مرويٌّ عن النبي ﷺ، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾ [البقرة: 143]، فقال: «عدلًا»(110). والعدل والتوسط والتوازن: عبارات متقاربة المعنى، فالعدل في الحقيقة: توسط بين الطرفين المتنازعين، أو الأطراف المتنازعة، دون ميل أو تحيز إلى أحدهما أو أحدها. وهو بعبارة أخرى: موازنة بين هذه الأطراف، بحيث يُعَطى كلّ منها حقه دون بخس، ولا جور عليه. ومن ثَمَّ قال زهير في المدح:

هُمُ وَسَطٌ يَرْضَى الأَنَامُ   إذا نزلتْ إحَدى الليالي بِمُعْظَمِ

يصفهم بالعدل والقسط وعدم التحيز.

وقال المفسرون في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ﴾ [القلم: 28]، أي: أعدلهم(111). يؤكد هذا الإمام الرازي في تفسيره لقول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾ [البقرة: 143]، بقوله: إن أعدل بقاع الشيء وسطه؛ لأن حكمه مع سائر أطرافه على سواء، وعلى اعتدال(112).

ويقول المفسر أبو السعود: الوسط في الأصل: اسم لما تستوي نسبة الجوانب

---

(110) رواه البخاري في «الاعتصام» (7349)، عن أبي سعيد الخدري.

(111) انظر: «تفسير الفخر الرازي» (30/ 609)، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثالثة (1420هـ).

(112) المرجع السابق (4/ 84).

إليه، كمركز الدائرة، ثم استعير للخصال البشرية المحمودة ... لكون تلك الخصال أوساطًا للخصال الذميمة المكتنفة بها من طرفي الإفراط والتفريط(113).

فالوسط يعني إذن العدل والاعتدال. وبعبارة أخرى: يعني التعادل والتوازن، بلا جنوح إلى الغلو، ولا إلى التقصير.

الوسطية تعني الاستقامة:

2 - والوسطية تعني كذلك: استقامة المنهج، والبعد عن الميل والانحراف. فالمنهج المستقيم، وبتعبير القرآن: ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: 6] هو - كما عبر عنه العلامة المفسر أبو السعود - : الطريق السوي الواقع وسط الطرق الجائرة عن القصد إلى الجوانب، فإذن، إذا فرضنا خطوطًا كثيرة واصلة بين نقطتين متقابلتين، فالخط المستقيم إنما هو الخط الواقع في وسط تلك الخطوط المنحنية، ومن ضرورة كونه وسطًا بين الطرق الجائرة أن تكون الأمة المهدية إليه وسطًا بين الأمم السالكة إلى تلك الطرق الزائغة(114).

ومن هنا علّم الإسلامُ المسلم أن يسأل الله الهداية للصراط المستقيم كل يوم ما لا يقل عن سبع عشرة مرة، هي عدد ركعات الصلوات الخمس المفروضة في اليوم والليلة، وذلك حين يقرأ فاتحة الكتاب في صلاته فيقول داعيًا ربه: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ 6 صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: 6، 7].

---

(113) انظر: «تفسير أبو السعود» (1/ 172)، طبعة إحياء دار التراث العربي ببيروت.

(114) انظر: «تفسير أبو السعود» (1/ 172)، طبعة إحياء دار التراث العربي ببيروت.

وقد مثل النبي ﷺ للمغضوب عليهم باليهود، وللضالين بالنصارى(115). ولا شك أن كلًّا من اليهود والنصارى يمثلون الإفراط والتفريط في كثير من القضايا، فاليهود قتلوا الأنبياء، والنصارى أَلَّهوهم. اليهود أسرفوا في التحريم، والنصارى أسرفوا في الإباحة، حتى قالوا: كل شيء طيب للطيبين ... اليهود غلوا في الجانب المادي، والنصارى قصروا فيه ... اليهود تطرفوا في اعتبار الرسوم في الشعائر والتعبدات، والنصارى تطرفوا في إلغائها.

والإسلام يعلم المسلم أن يحذر من تطرف كلا الفريقين، وأن يلتزم المنهج الوسط، أو الصراط المستقيم، الذي سار عليه كل من رضي الله عنهم، وأنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

الوسطية دليل الخيرية:

3 - والوسطية كذلك دليل الخيرية، ومظهر الفضل والتمييز، في الماديات والمعنويات. ففي الأمور المادية نرى أفضل حبات العقد واسطته، ونرى رئيس القوم في الوسط والأتباع مِنْ حوله ... وفي الأمور المعنوية نجد التوسط دائمًا خيرًا من التطرف.

ولهذا قال العرب في حِكَمهم: خير الأمور الوسط. وقال أرسطو: الفضيلة وسط بين رذيلتين. ومن هنا قال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: 143]:

---

(115) إشارة إلى الحديث: يا رسول الله، من هؤلاء؟ قال: «**هؤلاء المغضوب عليهم**»، فأشار إلى اليهود، فقال: من هؤلاء؟ قال: «**هؤلاء الضالون**»، يعني: النصارى. والحديث: رواه أحمد (20736)، وقال مخرجوه: إسناده صحيح، وصححه الألباني في «الصحيحة» (3263)، عمن سمع النبي ﷺ.

الوسط ههنا: الخيار والأجود. كما يقال: قريش أوسط العرب نسبًا ودارًا، أي خيرها. «وكان رسول الله ﷺ وسطًا في قومه، أي أشرفهم نسبًا. ومنه: الصلاة الوسطى، التي هي أفضل الصلوات»(116).

الوسطية تمثل الأمان:

4 – والوسطية تمثل منطقة الأمان، والبعد عن الخطر، فالأطراف عادة تتعرض للخطر والفساد، بخلاف الوسط، فهو محمي ومحروس بما حوله، وفي هذا قال الشاعر:

كانت هي الوسط المحميُّ فاكتنفتْ   بها الحوادث حتى أصبحت

وكذلك شأن النظام الوسط، والأمة الوسط.

الوسطية دليل القوة:

5 – والوسطية دليل القوة، فالوسط هو مركز القوة ... ألا ترى الشباب الذي يمثل مرحلة القوة وسطًا بين ضعف الطفولة وضعف الشيخوخة؟! والشمس في وسط النهار أقوى منها في أول النهار وآخره؟!

الوسطية مركز الوحدة:

6 – والوسطية تمثل مركز الوحدة، ونقطة التلاقي ... فعلى حين تتعدد الأطراف تعددًا قد لا يتناهى، يبقى الوسط واحدًا، يمكن لكل الأطرف أن تلتقي عنده. فهو المنتصف، وهو المركز. وهذا واضح في الجانب المادي والجانب الفكري

---

(116) انظر: «تفسير ابن كثير» (1/ 327)، دار الكتب العلمية ببيروت، الأولى (1419هـ).

(117) من شعر أبو تمام الطائي.

والمعنوي على سواء.

ومركز الدائرة في وسطها يمكن لكل الخطوط الآتية من المحيط أن تلتقي عنده. والفكرة الوسطى يمكن أن تلتقي بها الأفكار المتطرفة في نقطة ما، هي نقطة التوازن والاعتدال، كما أن التعدد والاختلاف الفكري يكون حتميًّا كلما وجد التطرف، وتكون حِدّته وشدّته بقدر حدة هذا التطرف. أما التوسط والاعتدال فهو طريق الوحدة الفكرية ومركزها ومنبعها. ولهذا تثير المذاهب والأفكار المتطرفة من الفرقة والخلاف بين أبناء الأمة الواحدة ما لا تثيره المذاهب المعتدلة في العادة.

مظاهر الوسطية في الإسلام:

وإذا كان للوسطية كل هذه المزايا، فلا عجب أن تتجلَّى واضحة في كل جوانب الإسلام، نظرية وعملية، تربوية وتشريعية.

فالإسلام وسط في الاعتقاد والتصور ... وسط في التعبد والتنسُّك ... وسط في الأخلاق والآداب ... وسط في التشريع والنظام.

وسطية الإسلام في الاعتقاد:

1 – فهو وسط في الاعتقاد بين الخرافيين الذين يسرفون في الاعتقاد، فيصدقون بكل شيء، ويؤمنون بغير برهان ... وبين الماديين الذين ينكرون كل ما وراء الحس ولا يستمعون لصوت الفطرة، ولا نداء العقل، ولا صراخ المعجزة.

فالإسلام يدعو إلى الاعتقاد والإيمان، ولكن بما قام عليه الدليل القطعي والبرهان اليقيني، وما عدا ذلك يرفضه ويعده من الأوهام، وشعاره دائمًا: ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: 111].

2 – وسط بين الملاحدة الذين لا يؤمنون بإله قط، خانقين صوت الفطرة في

صدورهم، متحدين منطق العقل في رءوسهم ... وبين الذين يُعـدِّدون الآلهـة حتى عبدوا الأغنام والأبقار، وألَّهوا الأوثان والأحجار!

فالإسلام يدعو إلى الإيمان بإله واحد لا شريك له، لم يلد ولم يولـد، ولم يكـن لـه كفوًا أحد. وكل من عداه وما عداه مخلوقات، لا تملك ضرًّا ولا نفعًا، ولا موتًـا ولا حياة ولا نشورًا. فتأليهها شرك وظلم وضلال مبين: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الأحقاف: 5].

3 – وهو وسط بين الذين يعتبرون الكون هو الوجود الحق وحده، وما عداه – مما لا تراه العين ولا تلمسه اليد – خرافة ووهم ... وبين الـذين يعتـبرون الكـون وهما لا حقيقة له، وسرابًا بقيعة يحسبه الظمآن ماء، حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا.

فالإسلام يعتبر وجود الكون حقيقة لا ريب فيها، ولكنه يَعْبُر من هذه الحقيقـة إلى حقيقة أكبر منها وهي: مَنْ كوّنه ونظمه ودبـر أمـره. وهـو الله تعـالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ 190 ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾ [آل عمران: 190، 191].

4 – وهو وسط بين الذين يؤلِّهون الإنسان، ويضـفون عليـه خصـائص الربوبيـة، ويعتبرونه إله نفسه، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، وبين الذين جعلـوه أسـير جبرية اقتصادية أو اجتماعية أو دينية، فهو كريشـة في مهـب الـريح، أو دميـة يحرك خيوطها المجتمع، أو الاقتصاد، أو القدر.

فالإنسان في نظر الإسلام مخلوق مكلف مسئول، سيد في الكون، عبد لله، قـادر

على تغيير ما حوله، بقدر ما يغير ما بنفسه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11].

5 – وهو وسط بين الذين يقدسون الأنبياء، حتى رفعوهم إلى مرتبة الألوهية أو البنوة للإله ... وبين الذين كذبوهم واتهموهم، وصبوا عليهم كؤوس العذاب.

فالأنبياء بشر مثلنا، يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، ولكثير منهم أزواج وذرية، وكل ما بينهم وبين غيرهم من فرق، أن الله مَنَّ عليهم بالوحي، وأيدهم بالمعجزات: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [إبراهيم: 11].

6 – وهو وسط بين الذين يؤمنون بالعقل وحده مصدرًا لمعرفة حقائق الوجود، وبين الذين لا يؤمنون إلا بالوحي والإلهام، ولا يعترفون للعقل بدور في نفي أو إثبات.

فالإسلام يؤمن بالعقل، ويدعوه للنظر والتفكير، وينكر عليه الجمود والتقليد ويخاطبه بالأوامر والنواهي، ويعتمد عليه إثبات أعظم حقيقتين في الوجود، وهما وجود الله تعالى(118) وصدق دعوى النبوة، ولكنه يؤمن بالوحي، مكملًا للعقل، ومعينًا له فيما تضل فيه العقول وتختلف، وما تغلب عليه الأهواء، وهاديًا له إلى ما

(118) هذه الحقيقة الأولى والكبرى: لم تثبت بطريق الوحي إلى رسول، فإن الوحي والرسالة فرع عن ثبوت الْمُوحِي والْمُرسِل: وهو الله، وإنما ثبتت هذه الحقيقة بضرورة العقل، وغريزة الفطرة معًا.

ليس من اختصاصه، ولا هو في مقدوره، من الغيبيات والسمعيات، وطرائق التعبد لله تعالى.

وسطية الإسلام في العبادات والشعائر:

والإسلام وسط في عباداته وشعائره بين الأديان والنحل، التي ألغت الجانب «الرباني» - جانب العبادة والتنسُّك والتألُّه - من فلسفتها وواجباتها، كالبوذية التي اقتصرت فروضها على الجانب الأخلاقي الإنساني وحده ... وبين الأديان والنحل التي طلبت من أتباعها التفرغ للعبادة، والانقطاع عن الحياة والإنتاج، كالرهبانية المسيحية.

فالإسلام يكلف المسلم أداء شعائر محدودة في اليوم كالصلاة، أو في السنة كالصوم، أو في العُمْر مرة كالحج، ليظل دائمًا موصولًا بالله، غير مقطوع عن رضاه، ثم يطلقه بعد ذلك ساعيًا منتجًا، يمشي في مناكب الأرض، ويأكل من رزق الله.

ولعل أوضح دليل نذكره هنا: الآيات الآمرة بصلاة الجمعة:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ 9 فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الجمعة: 9، 10].

فهذا هو شأن المسلم مع الدين والحياة حتى في يوم الجمعة: بيع وعمل للدنيا قبل الصلاة، ثم سعي إلى ذكر الله وإلى الصلاة، وترك للبيع والشراء وما أشبهه من مشاغل الحياة. ثم انتشار في الأرض وابتغاء الرزق من جديد بعد انقضاء الصلاة، مع عدم الغفلة عن ذكر الله كثيرًا في كل حال، فهو أساس الفلاح والنجاح.

وسطية الإسلام في الأخلاق:

1 – والإسلام وسط في الأخلاق بين غلاة المثاليين الذي تخيلوا الإنسان ملاكًا أو شبه ملاك، فوضعوا له من القيم والآداب ما لا يمكن له، وبين غلاة الواقعيين، الذين حسبوه حيوانًا أو كالحيوان، فأرادوا له من السلوك ما لا يليق به، فأولئك أحسنوا الظن بالفطرة الإنسانية، فاعتبروها خيرًا محضًا، وهؤلاء أساءوا بها الظن، فعدوها شرًّا خالصًا. وكانت نظرة الإسلام وسطًا بين أولئك وهؤلاء.

فالإنسان في نظر الإسلام مخلوق مركب فيه العقل، وفيه الشهوة، فيه غريزة الحيوان، وروحانية الملاك، قد هُدِي للنجدين، وتهيأ بفطرته لسلوك السبيلين، إما شاكرًا وإما كفورًا. فيه استعداد للفجور استعدادَه للتقوى. ومهمته جهاد نفسه ورياضتها حتى تتزكى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا 7 فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا 8 قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا 9 وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: 7 – 10].

2 – وهو كذلك وسط في نظرته إلى حقيقة الإنسان بين النِّحَل والمذاهب، التي تقوم على اعتباره روحًا علويًّا سجن في جسد أرضي، ولا يصفو هذا الروح ولا يسمو إلا بتعذيب هذا الجسد وحرمانه، كالبرهمية وغيرها ... وبين المذاهب المادية التي تعتبر الإنسان جسدًا محضًا، وكيانًا ماديًّا صرفًا، لا يسكنه روح علوي، ولا يختص بأي نعمة سماوية.

أما الإنسان في الإسلام فهو كيان روحي ومادي، كما يشير إلى ذلك خلْق الإنسان الأول آدم عليه السلام، فقد خلقه الله من تراب أو طين أو صلصال وكلها تومئ إلى الأصل المادي لبدن الإنسان، ثم أودع الله في هذه المادة شيئًا آخر، هو سر تميّز

الإنسان، ومنبع كرامته، وفيه يقول للملائكة: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر: 29].

وما دام الإنسان مؤلفًا من الروح والبدن، فإن لروحه عليه حقًّا، ولبدنه عليه حقًّا.

3 - وهو وسط في النظرة إلى الحياة بين الذين أنكروا الآخرة، واعتبروا هذه الحياة الدنيا هي كل شيء، هي البداية والنهاية: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: 29]، وبهذا غرقوا في الشهوات. وعبَّدوا أنفسهم للماديات، ولم يعرفوا لهم هدفًا يركضون وراءه غير المنافع الفردية الدنيوية العاجلة ... وهذا شأن الماديين في كل زمان ومكان ... وبين الذين رفضوا هذه الحياة، وألغوا اعتبارها من وجودهم، واعتبروها شرًّا يجب مقاومته والفرار منه، فحرموا على أنفسهم طيباتها وزينتها، وفرضوا عليها العزلة عن أهلها، والانقطاع عن عمارتها والإنتاج لها.

فالإسلام يعتبر الحياتين، ويجمع بين الحُسنيين، ويجعل الدنيا مزرعة للآخرة، ويرى العمل في عمارتها عبادة الله، وأداء لرسالة الإنسان، وينكر على غلاة المتدينين تحريم الزينة والطيبات، كما ينكر على الآخرين انهماكهم في الترف والشهوات. يقول الله في كتابه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد: 12]. ويقول تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ 31 قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف: 31، 32]، ويذكر القرآن أن السعادة والحياة الطيبة في الدنيا من مثوبة الله لعباده المؤمنين فيقول: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: 148]، ويعلِّم المؤمنين هذا

الدعاء الجامع لحسنتي الدارين: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: 201].

التوازن بين الروحية والمادية:

ولا عجب أن نجد من أبرز مظاهر الوسطية، أو التوازن في رسالة الإسلام: التوازن بين الروحية والمادية، أو بعبارة أخرى: بين الدين والدنيا.

1 - لقد وجدت في التاريخ جماعات وأفراد، كل همهم إشباع الجانب المادي في الإنسان، وعمارة الجانب المادي في الحياة، دون التفات إلى الجوانب الأخرى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: 29].

وهذه النزعة المغالية في المادية، وفي قيمة الدنيا؛ جديرة بأن تولد الترف والطغيان، والتكالب على متاع الحياة، والغرور والاستكبار عند النعمة، واليأس والقنوط عند الشدة.

نرى ذلك واضحًا فيما قصه الله علينا من مصارع الأفراد والأقوام الذين عاشوا للدنيا وحدها، ولم يلقوا للدين بالًا، ولا للآخرة حسابًا، ولا للروح مكانًا.

فهذا صاحب الجنتين يفخر على صاحبه، منتفخًا بثروته، مختالًا بجنته، قائلًا: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا 34 وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا 35 وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ [الكهف: 34 - 36].

فأرسل الله على جنته حسبانًا من السماء، فأصبحت صعيدًا زلقًا. وأصبح ماؤها غورًا.

وهذا قارون، الذي آتاه الله من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة،

بغى على قومه، واغتر بماله، وعزا الفضل فيه إلى نفسه، قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص: 78]، فخسف الله به وبداره الأرض.

وهذا فرعون الذي قال: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف: 51].

وغير هؤلاء، من الأمم التي أترفت في الحياة الدنيا فقتلها الترف، ودمرها التحلل، وحقت عليها كلمة العذاب، وحرمت نصر الله وعونه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ 64 لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ 65 قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ [المؤمنون: 64 - 66]، ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ 11 فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ 12 لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: 11 - 13].

2 - وفي الطرف المقابل لهذه النزعة وأصحابها، وجد آخرون من الأفراد والجماعات، نظروا إلى الدنيا نظرة احتقار وعداوة، فحرَّموا على أنفسهم طيبات الحياة وزينتها، وعطَّلوا قواهم من عمارتها، والإسهام في تنميتها وترقيتها، واكتشاف ما أودع الله فيها.

عرف ذلك في برهمية الهند، ومانوية فارس، وبدا ذلك بوضوح وجلاء في نظام الرهبانية الذي ابتدعه النصارى، فعزلوا به جماهير غفيرة عن الحياة، والتمتع بها، والإنتاج فيها.

وأصبح الشائع في مفهوم الناس عن الدين والتدين الحق: هو الانقطاع عن العالم، والتفرغ للعبادة، وأن المتدين الحق: هو الذي يتبطَّل فلا يعمل، ويتقشف فلا

يتمتع، ويتبتل فلا يتزوج، ويتعبد فلا يفتر، ليله قائم، ونهاره صائم، يده من الدنيا صفر، وحظه من الحياة خبز الشعير، ولبس المرقع، واتخاذ الفلوات دارًا!

3 – وبين هاتين النزعتين قام الإسلام، يدعو إلى التوازن والاعتدال، فصحح مفهوم الناس عن حقيقة الإنسان، وعن حقيقة الحياة.

فالإنسان مخلوق مزدوج الطبيعة، يقوم كيانه على قبضة من طين الأرض، ونفخة من روح الله، ففيه عنصر أرضي، يتمثل في جسمه الذي يطلب حظه مما خرج من الأرض من متاع وزينة. وفيه عنصر سماوي يتمثل في روحه التي تتطلع إلى هداها مما نزل من السماء.

وقد أشار القرآن إلى هذه الطبيعة المزدوجة في خلق الإنسان الأول: آدم أبي البشر، فقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ 71 فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ﴾ [ص: 71، 72].

وأشار إلى هذه الطبيعة نفسها في خلق ذرية آدم حيث قال: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ 7 ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ 8 ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: 7 – 9].

وكان من حكمة الله سبحانه أن خلق الإنسان على هذه الطبيعة؛ لأنها تتفق مع الرسالة التي كلف القيام بها، وهي الخلافة في الأرض.

فهو – بعنصره الطيني المادي – قادر على أن يسعى في الأرض ويعمرها ويحسنها، ويكتشف ما أودع الله فيها من كنوز ونعم، ويسخر قواها المتنوعة بإذن الله – لمنفعته والنهوض بمهمته، فالجسم المادي في الإنسان ليس إذن شرًّا ولا لعنة، ولو كان الإنسان روحًا خالصًا كالملائكة، ما وجدت لديه الدوافع التي تحفزه على

استخدام المادة، والمشي في مناكب الأرض، والكشف عن مكنونها، والعمل على تعميرها.

وهو - بعنصرها الروحي السماوي - مهيَّأ للتحليق في أفق أعلى، والتطلع إلى عالم أرقى، وإلى حياة هي خير وأبقى، وبهذا يسخر المادةَ ولا تُسخِّره. ويستخدم ما على الأرض من ثروات وخيرات، دون أن تستخدمه هي وتستعبده.

إن الأرض وما عليها خُلقِتْ له، أمَّا هو فقد خُلِق لله: لعبادته ومعرفته وإحسان الصلة به.

والحياة ليست سجنًا عوقب الإنسان به، ولا عبئًا فرض عليه حمله، إنما هي نعمة يجب أن تُشكر، ورسالة يجب أن تُؤدى، ومزرعة لحياة أخرى هي خير وأبقى، يجب ألا تشغل عنها، ولا تحيف عليها.

والقرآن الكريم يدعو إلى العمل للحياة، والضرب في الأرض، والمشي في مناكبها، والاستمتاع بطيباتها، بجوار الحث على الاستعداد للآخرة، والتزود ليوم الحساب، وذلك بالإيمان والعبادة وحسن الصلة بالله، ودوام ذكره الذي تطمئن به القلوب.

يقول سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ 87 وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾ [المائدة: 87، 88].

ويقول تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: 15]، ويقول: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الجمعة: 10]، ويقول:

﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: 77].

والرسول ﷺ كان يأكل من طيبات هذه الحياة ولا يحرمها على نفسه، ولكنه لم يجعلها شغل نفسه، ولا محور تفكيره، وكان من دعائه: «**اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا**»(119).

وإنما كان يعطيها حقها، وللآخرة حقها، بالقسطاس المستقيم، وكان من دعائه: «**اللهم أصلح لي ديني، الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي، التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي، التي إليها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شر**»(120).

فهذا الدعاء النبوي المأثور، يبين موقف المسلم من الدين والدنيا والآخرة، إنه يطلبها جميعًا، ويسأل الله أن يصلحها له جميعًا، الدين والدنيا والآخرة؛ إذ لا غنى له عن واحد منها، فالدين عصمة أمره، وملاك حياته، والدنيا فيها معاشه، ومتاعه إلى حين، والآخرة إليها معاده ومصيره.

وهو مثل الدعاء القرآني الموجز، الذي كان ﷺ كثيرًا ما يدعو به: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: 201].

وكان ﷺ حريصًا على توجيه أصحابه إلى التوازن المقسط بين دينهم ودنياهم،

---

(119) رواه الترمذي في «الدعوات» (3502)، وقال الترمذي: حسن غريب، وحسنه الألباني في «صحيح الترمذي» (2783)، النسائي في «الكبرى»، في «عمل اليوم والليلة» (10161)، عن ابن عمر.

(120) رواه مسلم في «الذكر» (2720)، عن أبي هريرة.

بين حظ أنفسهم، وحق ربهم، بين متعة البدن، ونعيم الروح. فإذا رأى في بعضهم غلوًّا في جانب، قوَّمه بالحكمة وردَّه إلى سواء الصراط.

ولما رأى في بعض أصحابه إفراطًا في التعبد والصيام والقيام، على حساب جسمه وأهله ومجتمعه، قال له: **«إن لجسدك عليك حقًّا، وإن لعينك عليك حقًّا، وإن لزوجك عليك حقًّا، وإن لزَوْرِك - يعني: زوَّارك وضيوفك - عليك حقًّا»**(121).

وقال للجماعة الذين التزم أحدهم. أن يصوم فلا يفطر، والتزم الثاني: أن يقوم فلا ينام، والتزم الثالث: أن يعتزل النساء، فلا يتزوج أبدًا - قال لهم: **«أما إني أخشاكم لله وأتقاكم له، ولكني أصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»**(122).

وحين أقبل أبو عبيدة بمال من البحرين، وأحس بعض الصحابة بقدومه، فهرولوا مسرعين، ينتظرون أن ينالهم شيء منه، وبدا منهم الحرص على هذا المتاع الأدنى، انتهزها النبي ﷺ فرصة، ليحذِّرهم من فتنة الدنيا، وغرورها، والحرص على زخارفها، فخطب فيهم قائلًا: **«أبشروا وأملوا، فوالله، ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا، كما بُسطتْ على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم»**(123).

---

(121) متفق عليه: رواه البخاري (1975)، ومسلم (1159)، كلاهما في «الصوم»، عن عبد الله بن عمرو.

(122) متفق عليه: رواه البخاري (5063)، ومسلم (1401)، كلاهما في «النكاح»، عن أنس.

(123) متفق عليه: رواه البخاري في «الجزية» (3158)، ومسلم في «الزهد» (2961)، عن عمرو بن عوف.

وهكذا تعلَّم الصحابة أن يوازنوا بين مطالب دنياهم وآخرتهم، وأن يعملوا للدنيا، كأحسن ما يعمل أهل الدنيا، ويعملوا للآخرة، كأحسن ما يعمل أهل الآخرة، يقول عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه: «**اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا. واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا**»(124).

ولم يشعروا بتعارض قط بين عملهم لدينهم، وعملهم لدنياهم، بل شعروا بالوحدة والانسجام والامتزاج، كانت شعائرهم وواجباتهم الدينية، تعطيهم زادًا، وشخصية قوية، يواصلون بها الكفاح لدنياهم. وكانت أعمالهم الدنيوية، عونًا لهم على أداء فرائضهم الدينية ... كانوا يعتقدون أنهم – في عبادتهم ومساجدهم – ليسوا مقطوعين عن الدنيا، كما أنهم – في مزارعهم ومتاجرهم وحرفهم – غير بعيدين عن الدين، فأعمالهم هذه عبادة، إذا صحت فيها النية، والتزمت حدود الله.

وسطية الإسلام في التشريع:

والإسلام وسط كذلك في تشريعه ونظامه القانوني والاجتماعي.

فهو وسط في التحليل والتحريم بين اليهودية، التي أسرفت في التحريم، وكثرت فيها المحرمات، مما حرمه إسرائيل على نفسه، ومما حرمه الله على اليهود، جزاء بغيهم وظلمهم، كما قال الله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا 160 وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [النساء: 160، 161]. وبين المسيحية، التي أسرفت في الإباحة، حتى أحلَّت الأشياء المنصوص على تحريمها في التوراة، مع أن الإنجيل يعلن أن المسيح لم يجئ لينقض ناموس التوراة، بل ليكمله، ومع هذا أعلن رجال

---

(124) رواه الحارث في «مسنده» (1093)، البغية.

المسيحية. أن كل شيء طاهر للطاهرين!

فالإسلام قد أحل وحرم، ولكنه لم يجعل التحليل ولا التحريم من حق بشر، بل من حق الله وحده، ولم يحرم إلا الخبيث الضار، كما لم يحل إلا الطيب النافع. ولهذا كان من أوصاف الرسول عند أهل الكتاب أنه: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: 157].

والتشريع الإسلامي وسط في شئون الأسرة، كما هو وسط في شئونه كلها. وسط بين الذين شرعوا تعدد الزوجات بغير عدد ولا قيد، وبين الذين رفضوه وأنكروه، ولو اقتضته المصلحة، وفرضته الضرورة والحاجة.

فقد شرع الإسلام هذا الزواج بشرط القدرة على الإحصان والإنفاق، والثقة بالعدل بين الزوجتين، فإن خاف ألا يعدل، لزمه الاقتصاد على واحدة. كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً﴾ [النساء: 3].

وهو وسط في الطلاق، بين الذين حرموا الطلاق، لأي سبب كان، ولو استحالت الحياة الزوجية إلى جحيم لا يطاق، كالكاثوليك، وقريب منهم الذين حرموه إلا لعلة الزنا والخيانة الزوجية كالأرثوذوكس ... وبين الذين أرخوا العنان في أمر الطلاق، فلم يقيدوه بقيد أو شرط، فمن طلب الطلاق من امرأة أو رجل كان أمره بيده، وبذلك سَهُلَ هدم الحياة الزوجية بأوهى سبب، وأصبح هذا الميثاق الغليظ: أَوْهَى من بيت العنكبوت.

إنما شرع الإسلام الطلاق، عندما تفشل كل وسائل العلاج الأخرى، ولا يجدي تحكيم ولا إصلاح. ومع هذا فهو أبغض الحلال إلى الله، ويستطيع المطلق مرة ومرة

أن يراجع مطلقته، ويعيدها إلى حظيرة الزوجية من جديد. كما قال تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٍ﴾ [البقرة: 229].

والإسلام وسط في تشريعه ونظامه الاجتماعي، بين «الليبراليين» أو «الرأسماليين» الذين يدللون الفرد على حسن المجتمع، بكثرة ما يُعْطَى له من حقوق يُطالِب بها، وقلة ما يُفْرَض عليه من واجبات يُسْأَل عنها. فهو دائمًا يقول: لي، وقلَّما يقول: عليَّ ... وبين الماركسيين والجماعيين الذين يضخمون دور المجتمع، بالضغط على الفرد، والتقليل من حقوقه، والحَجْر على حريته، ومصادرة نوازعه الذاتية.

التوازن بين الفردية والجماعية:

وفي النظام الإسلامي تلتقي الفردية والجماعية في صورة متزنة رائعة، تتوازن فيها حرية الفرد ومصلحة الجماعة، وتتكافأ فيها الحقوق والواجبات، وتتوزع فيها المغانم والتبعات بالقسطاس المستقيم.

لقد تخبَّطت الفلسفات والمذاهب من قديم، في قضية الفرد والمجتمع، والعلاقة بينهما: هل الفرد هو الأصل، والمجتمع طارئ مفروض عليه؛ لأن المجتمع إنما يتكون من الأفراد؟ أم المجتمع هو الأساس، والفرد نافلة؛ لأن الفرد بدون المجتمع مادة غُفْل «خام»، والمجتمع هو الذي يشكلها ويعطيها صورتها، فالمجتمع هو الذي يورث الفرد ثقافته وآدابه وعاداته وغير ذلك؟

من الناس من جنح إلى هذا، ومنهم من مال إلى ذاك، وامتد الخلاف بين الفلاسفة والمشرعين، والاجتماعيين والاقتصاديين والسياسيين في هذه القضية، فلم يصلوا إلى نتيجة.

كان «أرسطو» يؤمن بفردية الإنسان، ويحبذ النظام الذي يقوم على الفردية، وكان أستاذه «أفلاطون» يؤمن بالجماعية – الاشتراكية – كما يتضح ذلك في كتابه: «الجمهورية».

وبهذا لم تستطع الفلسفة الإغريقية – أشهر الفلسفات البشرية القديمة – أن تحل هذه العقدة، وأن تخرج الناس من هذه الحيرة، كشأن الفلسفة دائمًا في كل القضايا الكبيرة، تعطي الرأي وضده، ولا يكاد أقطابها يتفقون على حقيقة، حتى قال أحد أساتذتها: الفلسفة لا رأي لها!!

وفي فارس ظهر مذهبان متناقضان: أحدهما فردي يدعو إلى التقشف والزهد، والامتناع عن الزواج، ليعجل الإنسان بفناء العالم، الذي يعجُّ بالشرور والآلام، وهذا هو مذهب «ماني» ويمثل أقصى الفردية.

وقام في مقابله مذهب آخر يمثل أقصى (الجماعية) وهو مذهب «مزدك» الذي دعا إلى شيوعية الأموال والنساء، وتبعه كثير من الغوغاء، الذين عاثوا في الأرض فسادًا، وضجت منهم البلاد والعباد.

وقد جاءت الأديان السماوية لتقيم التوازن في الحياة، والقسط بين الناس، كما قرر ذلك القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: 25]، ولكن أتباعها سرعان ما حرفوها وبدلوا كلمات الله، ففقدت بذلك وظيفتها في الحياة، حين فقدت مزيتها الأولى، وهي: ربانية المصدر.

لهذا؛ لم تقدم الأديان السابقة قبل الإسلام حلًّا لهذه المشكلة، فقد كان اليهود الذين تفرقوا في الأرض يؤيدون الفردية، بتفكيرهم وسلوكهم القائم على الأنانية:

﴿وَأَخۡذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدۡ نُهُواْ عَنۡهُ وَأَكۡلِهِمۡ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ [النساء: 161]، كما سجل عليهم القرآن العزيز.

وجاءت المسيحية أيضًا تهتم بنجاة الفرد قبل كل شيء، تاركة شأن المجتمع لقيصر، أو على الأقل، هذا ما يفهم من ظاهر ما يحكيه الإنجيل عن المسيح. حين قال: أعطِ ما لقيصر لقيصر، وما لله لله!!

وإذا طوينا كتاب التاريخ وتأملنا صفحات الواقع، فماذا نرى؟

إن عالمنا اليوم يقوم فيه صراع ضخم بين المذهب الفردي، والمذهب الجماعي، فالرأسمالية تقوم على تقديس الفردية، واعتبار الفرد هو المحور الأساسي، فهي تُدلِّله بإعطاء الحقوق الكثيرة، التي تكاد تكون مطلقة، فله حرية التملك، وحرية القول، وحرية التصرف، وحرية التمتع، ولو أدت هذه الحريات إلى إضرار نفسه، وإضرار غيره، ما دام يستعمل حقه في «الحرية الشخصية»، فهو يتملك المال بالاحتكار والحيل والربا، وينفقه في اللهو والخمر والفجور، ويمسكه عن الفقراء والمساكين والمعوزين، ولا سلطان لأحد عليه؛ لأنه «هو حر».

والمذاهب الاشتراكية - وبخاصة المتطرفة منها كالماركسية - تقوم على الحط من قيمة الفرد والتقليل من حقوقه، والإكثار من واجباته، واعتبار المجتمع هو الغاية، وهو الأصل، وما الأفراد إلا أجزاء، أو تروس صغيرة في تلك «الآلة» الجبارة، التي هي المجتمع، والمجتمع في الحقيقة هو الدولة، والدولة في الحقيقة هي الحزب الحاكم، وإن شئت قلت: هي اللجنة العليا للحزب، وربما كانت هي زعيم الحزب فحسب، هي الدكتاتور!!

إن الفرد ليس له حق التملك إلا في بعض الأمتعة، والمنقولات، وليس له حق

المعارضة، ولا حق التوجيه لسياسة بلده وأمته، وإذا حدثته نفسه بالنقد العلني أو الخفي، فإن السجون والمنافي وحبال المشانق له بالمرصاد!

ذلك هو شأن فلسفات البشر، ومذاهب البشر، والديانات التي حرّفها البشر، وموقفها من الفردية والجماعية، فماذا كان موقف الإسلام؟

لقد كان موقفه فريدًا حقًّا، لم يمل مع هؤلاء ولا هؤلاء، ولم يتطرف إلى اليمين، ولا إلى اليسار.

إن شارع هذا الإسلام هو خالق هذا الإنسان، فمن المحال أن يشرع هذا الخالق من الأحكام والنظم ما يعطل فطرة الإنسان أو يصادمها. وقد خلقه سبحانه على طبيعة مزدوجة: فردية واجتماعية في آن واحد، فالفردية جزء أصيل في كيانه؛ ولهذا يحب ذاته، ويميل إلى إثباتها وإبرازها، ويرغب في الاستقلال بشئونه الخاصة.

ومع هذا نرى فيه نزعة فطرية إلى الاجتماع بغيره؛ ولهذا عُدَّ السجن الانفرادي عقوبة قاسية للإنسان، ولو كان يتمتع داخله بما لذ وطاب من الطعام والشراب.

والنظام الصالح هو الذي يراعي هذين الجانبين: الفردية والجماعية، ولا يطغى أحدهما على الآخر. فلا عجب أن جاء الإسلام - وهو دين الفطرة - نظامًا وسطًا عدلًا، لا يجور على الفرد لحساب المجتمع، ولا يحيف على المجتمع من أجل الفرد، لا يدلل الفرد بكثرة الحقوق التي تمنح له، ولا يرهقه بكثرة الواجبات التي تلقى عليه، وإنما يكلفه من الواجبات في حدود وَسْعِه. دون حرج ولا إعنات، ويقرر له من الحقوق ما يكافئ واجباته، ويلبي حاجته، ويحفظ كرامته، ويصون إنسانيته:

1 - من هنا قرر الإسلام حرمة الدم، فحفظ للفرد «حق الحياة» وأعلن القرآن أن: ﴿مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ

أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: 32].

وأوجبت الشريعة في قتل العمد القصاص، إلا أن يعفو أولياء المقتول، أو يقبلوا بدلًا، وأوجبت في قتل الخطأ الدية والكفارة.

2 – وقرر حرمة العرض، فصان الفرد «حق الكرامة»، فلا يجوز أن يهان في حضرته، أو يؤذى في غيبته، بأي كلمة أو إشارة تسوؤه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ﴾ [الحجرات: 11]، ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ [الحجرات: 12].

3 – وقرر حرمة المال، فصان للفرد «حق التملك»، فلا يحل أخذ ماله إلا بطيب نفسه منه، ولا يجوز للدولة، ولا لفرد آخر نهب ماله وأخذه بغير حق. قال النبي ﷺ في حجة الوداع: **«إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا»**(125).

4 – وقرر حرمة البيت، فصان بذلك للفرد «حق الاستقلال الشخصي»، فلا يجوز لأحد أن يتجسس عليه، أو يقتحم عليه بيته بغير إذنه، قال تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النور: 27]، وقال: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا۟﴾ [الحجرات: 12].

5 – وقرر للفرد «حرية الاعتقاد»، فلا يجوز أن يُكْرَه على ترك دينه، واعتناق دين

---

(125) متفق عليه: رواه البخاري في «العلم» (67)، ومسلم في «القسامة» (1679)، عن أبي بكرة.

آخر: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ [البقرة: 256]، ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: 99].

6 – وقرر للفرد «حرية النقد»، فمن حق كل فرد أن يعارض ما يراه من عوج، وما يلاحظه من تقصير، بل من واجبه ذلك، إذا لم يقم غيره به، وهو ما سمَّاه الإسلام: «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر».

7 – وقرر «حرية الرأي والفكر»، فمن حق كل إنسان، بل من واجبه أن يفكر وينظر، فقد أمر الإسلام الناس أن يتفكروا، وما دام التفكير حقًّا – أو واجبًا – لكل بشر، فمن حق كل مفكر أن يخطئ، ولا لوم عليه في ذلك. إن الإسلام لا يحرم المجتهد من المثوبة والأجر، وإن أخطأ إصابة الحقيقة، ففي الحديث: «**إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر**»(126).

وليس في الدنيا دين ولا نظام يشجع على استعمال الفكر، ويرحب بنتائجه – أيًّا كانت – مثل هذا الإسلام، الذي يثيب على الاجتهاد الخطأ.

ثم تتعايش هذه الأفكار والاجتهادات المختلفة جنبًا إلى جنب، دون ضيق ولا تبرم، كما رأينا ذلك في عهد الصحابة، ومن تبعهم بإحسان.

وفي ظل هذه الحرية الفكرية ظهرت المدارس والمشارب المختلفة: في الفقه والتفسير والكلام وغيرها، من غير نكير، إلا ما توجبه المناقشة العلمية.

---

(126) متفق عليه: رواه البخاري في «الاعتصام بالكتاب والسنة» (7352)، ومسلم في «الأقضية» (1716)، عن عمرو بن العاص.

8 – وقرر الإسلام «المسئولية الفردية»، وأكدها تأكيدًا بليغًا في كتابه، فقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: 38]، ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: 286]، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: 15].

وهذه الآيات تُطبَّق على الإنسان في الدنيا وفي الآخرة، فهو في الحياتين لا يحمل وزر غيره.

ومع هذه الحقوق والحريات، التي منحها الإسلام للفرد، فقد فرض عليه للمجتمع واجبات تكافئها، وقيد هذه الحقوق والحريات الفردية، بأن تكون في حدود مصلحة الجماعة، وألا يكون فيها مضرة للغير، وليس للفرد أن يستخدم حقه فيما يؤذي الجماعة ويضرها، إذ لا ضرر ولا ضرار في الإسلام، أي لا يضر الإنسان نفسه، ولا يضار غيره. كما أن حق الفرد، إذا تعارض مع حقوق الجماعة، فإن حق الجماعة أولى بالتقديم:

1 – فالحياة التي صانها الإسلام للفرد، إذا اقتضى المجتمع المسلم بذلها لحمايته، وجب عليه أن يقدمها راضيَ النفسِ، قرير العين، معتقدًا أن الموت هنا هو عين الحياة، وكذلك إذا اعتدى على حق نفس أخرى كقاتل العمد، أو على حق المجتمع في الأمن والاستقرار، كقاطع الطريق، أو خرج على دينه وفارق الجماعة كالمرتد – فقدت حياته ما لها من عصمة.

2 – وحق التملك مقيد بأن يأخذ المال من حِلَّه، وينفقه في محلِّه، ولا يبخل به إذا طلبته الجماعة، فملكية الفرد للمال ليست مطلقة كما ينادي أنصار «المذهب الحر»، بل هي مقيدة بحدود الله وحقوق المجتمع، حتى إن انتزاعَ هذا الملك من صاحبه: يجوز للمصلحة العامة، على أن يعوض عنه ثَمَن المثل، ذلك أن

المال مال الله، وهو مستخلف فيه، وبعبارة أخرى، هو وكيل الجماعة في رعايته وتثميره وإنفاقه، فإذا أساء التصرف في المال، كان من حق الجماعة أن تغُلَّ يده، وتحْجر عليه، كما أن للجماعة عليه حقوقًا في هذا المال، بعضها دوري ثابت، كالزكاة بأنواعها، وبعضها غير دوري، كما في الحديث: «**إن في المال حقًّا سوى الزكاة**»[127]. وبعضها يفرضه ولي الأمر عند الحاجة.

3 - والحريات والحقوق كلها مقيدة برعاية أخلاق المجتمع وعقائده ومثله العليا، فليس معنى حرية الاعتقاد أو الرأي، إباحة الطعن على الإسلام وأهله، وإذاعة الكفر بالله ورسوله وكتابه، والتشكيك في القيم العليا، ونشر الخلاعة والفجور، فإن حرية الإفساد لا يقرها عقل ولا شرع.

4 - ومع المسئولية الفردية التي أكدها الإسلام، نراه قد أكد كذلك مسئولية الفرد عن الجماعة، فكل فرد في المجتمع المسلم راعٍ في مجال من المجالات، كما في الحديث الصحيح: «**كلكم راعٍ، ومسئول عن رعيته، فالإمام راع، ومسئول عن رعيته، والرجل في أهله راع، وهو مسئول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها راعية، وهي مسئولة عن رعيتها، والخادم في مال سيده راع، وهو مسئول عن رعيته، والرجل في مال أبيه راع، ومسئول عن رعيته، فكلكم راع، وكلكم**

---

(127) رواه الترمذي (660)، عن فاطمة بنت قيس مرفوعًا، وقال: هذا حديث إسناده ليس بذاك، وأبو حمزة ميمون الأعور يضعف، وصححه من قول الشعبي. وقال القرطبي في «تفسيره» معقبًا على هذا الحديث (2/ 241، 242): والحديث وإن كان فيه مقال دل على صحته معنى ما في الآية نفسها من قوله تعالى: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: 177]، فذكر الزكاة مع الصلاة، وذلك دليل على أن المراد بقوله: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [البقرة: 177] ليس الزكاة المفروضة، فإن ذلك كان يكون تكرارًا. وانظر: كتاب: «فقه الزكاة» (2/ 973 - 1001) ط. الخامسة والعشرون، مكتبة وهبة.

مسئول عن رعيته»(128). فكما أن الإمام راع مسئول عن الأمة، فإن الرجل في بيته راع مسئول عن الأسرة. والمرأة راعية في بيت زوجها، والخادم راع في مال مخدومه، والابن راع في ملك أبيه. وكلٌّ على ثُغرة من ثُغر الإسلام، فلا يجوز له أهمالها ... وفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تقتضي مسئولية المسلم عن المجتمع، وتوجب عليه مراقبة أحواله، وتقويم عوجه إن اعوج بكل ما استطاع، بيده أولًا، «**فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»**(129).

إن النصيحة لكافة المسلمين: خاصتهم وعامتهم، ركن ركين من الإسلام، ومن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم.

وليس لمسلم أن يعتزل الحياة والناس ويقول: نفسي نفسي! ويدع نار الفساد تلتهم الأخضر واليابس من حوله، فإن هذه النار إذا تُركت وشأنها، لم تلبث أن تحرقه هو، وتحرق كل ما يحرص عليه. ولهذا يقول القرآن: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الأنفال: 25]، وفي الحديث: «**إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه، أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده»**(130).

---

(128) متفق عليه: رواه البخاري في «العتق» (2558)، ومسلم في «الإمارة» (1829)، عن ابن عمر.

(129) رواه مسلم في «الإيمان» (49)، عن طارق بن شهاب.

(130) رواه أحمد (1)، وقال مخرجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وأبو داود في «الملاحم» (4338)، والترمذي في «الفتن» (3057)، وقال: حسن صحيح، وابن ماجه في «الفتن» (4005)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (1564)، عن أبي بكر الصديق.

5 – ومن معاني الجماعة في الإسلام ما عرف في الشريعة باسم: «فروض الكفاية»، فكل علم أو صناعة أو حرفة أو نظام أو مؤسسة، تحتاج إليها الجماعة المسلمة في دينها أو دنياها، فتحقيقها فرض كفاية على المسلمين، على معنى أنه إذا قام بها عدد كافٍ، فقد ارتفع الحرج، وسقط الإثم عن باقي الجماعة، وإلا أثمت الجماعة كلها، واستحقت عقوبة الله.

6 – والمسلمون مسئولون مسئولية تضامنية عن تنفيذ شريعة الإسلام، وإقامة حدوده، ومن هنا كان خطاب التكليف في القرآن إلى الجماعة. وتكرر قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾(131) [المائدة: 106، وآيات أخرى]، بهذه الصيغة الجماعية؛ ليؤكد وجوب التكافل بين الجماعة في تنفيذ ما أمر الله به، واجتناب ما نهى عنه. خوطبت الجماعة كلها بمثل قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: 38]، ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: 2]، وإن كان الذي يقوم على هذه الحدود هو الدولة والحكام؛ لأن الجماعة كلها مسئولة عن إقامتها، مؤاخذة بعقاب الله إذا عطلتها.

7 – حتى العبادة التي هي صلة بين العبد وربه، أَبَى الإسلامُ إلا أن يُضْفي عليها روحًا جماعية، وصبغة جماعية، فدعا إلى صلاة الجماعة ورغب فيها، حتى جعلها أفضل من صلاة المسلم وحده، بسبع وعشرين درجة(132)، وكلما كان عدد الجماعة أكبر، كان ثواب الله عليها أعظم. بل هَمَّ الرسول أن يَحْرق على

---

(131) ذكر هذا النداء في القرآن كثيرًا.

(132) إشارة إلى الحديث المتفق عليه: **«صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة»**، رواه البخاري في «الأذان» (645)، ومسلم في «المساجد» (650)، عن ابن عمر.

قوم بيوتهم، لتخلُّفهم عن الجماعة في المسجد(133)، ولم يرخِّص لأعمى، يسمع الأذان، أن يصلي في بيته ويترك صلاة الجماعة(134)، وقال: «**لا صلاة لِفَرْدٍ خلف الصف**»(135). كراهية منه للشذوذ والانفراد، ولو في المظهر. وإذا صلى المسلم منفردًا في خلوة لم تزل الجماعة في وجدانه وضميره، فهو إذا ناجى اللَّه، ناجاه بصيغة الجمع، وإذا دعاه، دعاه باسم الجميع: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ 5 ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ**﴾ [الفاتحة: 5، 6].

كما شرع صلاة الجمعة في كل أسبوع مرة، وصلاة العيد في كل عام مرتين، وفرض الحج في العُمْر مرة على كل مسلم. وكلها شعائر لا بد أن تؤدى في صورة جماعية.

8 - وفي مجال الآداب والتقاليد، حث الإسلام على جملة من الآداب الاجتماعية، أراد بها أن يُخرِج المسلم من الفردية والانعزالية، التي قد تروق للانطوائيين من الناس، فتحيّة الإسلام، والمصافحة عند اللقاء، وتشميت العاطس، والتزاور

---

(133) إشارة إلى الحديث المتفق عليه: «**والذي نفسي بيده، لقد هممت أن آمر بحطب، فيحطب، ثم آمر بالصلاة، فيؤذن لها، ثم آمر رجلًا فيؤم الناس، ثم أخالف إلى رجال، فأحرق عليهم بيوتهم**»، رواه البخاري في «الأذان» (644)، ومسلم في «المساجد» (651)، عن أبي هريرة.

(134) إشارة إلى الحديث: أتى النبيَّ ﷺ رجلٌ أعمى، فقال: يا رسول اللَّه، إنه ليس لي قائد يقودني إلى المسجد، فسأل رسول اللَّه ﷺ أن يرخص له، فيصلي في بيته، فرخص له، فلما ولى، دعاه، فقال: «**هل تسمع النداء بالصلاة؟**» قال: نعم. قال: «**فأجب**». رواه مسلم في «المساجد» (653)، عن أبي هريرة.

(135) رواه أحمد (16297)، وقال مخرّجوه: إسناده صحيح، وابن ماجه (1003)، وابن حبان (2202)، وابن خزيمة (1569)، ثلاثتهم في «الصلاة»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (949)، عن عليّ بن شيبان.

والتهادي، وعيادة المريض، وتعزية المصاب، وصلة الأرحام، وإحسان الجوار، وإكرام الضيف، وحسن الصحبة في السفر والحضر، والبر باليتامى والمساكين وابن السبيل، وغير ذلك من الآداب والواجبات: هي التي جعلت الشعور الجماعي، والتفكير الجماعي، والسلوك الجماعي، جزءًا لا يتجزأ من حياة المسلم.

9 - وفي مجال الأخلاق، حث الإسلام على المحبة والإخاء والإيثار، وأمر بالتعاون على البر والتقوى، ودعا إلى توحيد الكلمة وجمع الصف، كما دعا إلى التراحم والتسامح، وإلى البذل والتضحية، واحترام النظام، والطاعة لأولي الأمر في المعروف.

وبجوار ذلك حذر من الحسد والبغضاء والحقد، والفرقة والتنازع، وسائر الرذائل التي تنشأ من الأنانية والغلو في حب الذات وحب الشهوات.

وبهذا كله، نعلم كيف أقام الإسلام - بالتشريع والتربية - الموازين القسط بين الفرد والمجتمع، أو بين الفردية والجماعية في حياة الإنسان. كما نتبين أن نظام الإسلام لا يُعَدُّ في المذاهب الفردية، كما لا يُحْسَبُ في المذاهب الجماعية؛ ذلك لأنه أخذ من كل منهما خيرَ ما فيه، كما تنزَّه عن شر ما فيه، فقد اعترف بالفرد والمجتمع، وقرر لكل منهما حقوقه بالعدل، وألزمه واجبات تقابلها بالمعروف. وهذه هي الوسطية، وإن شئت قلت: هو التوازن الذي اختُصَّ به هذا الإسلام.

* * *

الفصل الخامس

الواقعيَّة

وهذه خصيصة أخرى من الخصائص العامة للإسلام، وهي: «الواقعية».

ماذا نريد بالواقعية؟

لسنا نعني بالواقعية ما عناه بعض الفلاسفة الغربيين من «الماديين» أو «الوضعيين»: مِنْ إنكار كل ما وراء الحس، وما بعد الطبيعة، واعتبار «الواقع» هو الأشياء الْمُحسَّة، والمادة المتحيزة، وما عدا ذلك - مما أثبته الوحي أو العقل أو الفطرة - لا يُعدّ واقعًا موجودًا: فلا إله عندهم للكون، ولا روح للإنسان، وليس وراء هذا العالم المشهود غيب أو عالم غير منظور، ولا بعد هذه الحياة الدنيا حياة! لأن هذه كلها لا يثبتها الواقع المشاهد الملموس.

هذا المفهوم للواقعية لا نعنيه قطعًا، لمصادمته للوحي وللفطرة وللعقل، وكذلك لا نعني بالواقعية قبول الواقع على علاته، والخضوع له على ما فيه من قذارة وهبوط، دون محاولة للارتفاع به، وبذل الجهد في تنظيفه وترقيته.

كلا، إنما نعني بـ «الواقعية»: مراعاة واقع الكون من حيث هو حقيقة واقعة، ووجود مشاهد، ولكنه يدل على حقيقة أكبر منه، ووجود أسبق وأبقى من وجوده، هو وجود الواجب لذاته، وهو وجود الله الذي خلق كل شيء فقدره تقديرًا.

ومراعاة واقع الحياة، من حيث هي مرحلة حافلة بالخير والشر، تنتهي بالموت، وتُمهِّد لحياة أخرى بعد الموت، تُوَفَّ فيها كل نفس ما كسبت، وتَخْلُد فيما عملت.

ومراعاة واقع الإنسان، من حيث هو مخلوق مزدوج الطبيعة، فهو نفخة من

روح الله في غلاف من الطين، ففيه العنصر السماوي، والعنصر الأرضي، ومن حيث هو ذكر أو أنثى لكل منهما تكوينه ونزعاته ووظيفته، ومن حيث هو عضو في مجتمع، لا يستطيع أن يعيش وحده، ولا أن يفنى تمامًا في المجتمع. ولهذا تصطرع في نفسه عوامل الأنانية والغيرية.

ومن هنا لم ينسَ الإسلام – في توجيهاته الفكرية، وفي تعليماته الأخلاقية، وفي تشريعاته القانونية: واقع الكون وواقع الحياة، وواقع هذا الإنسان بكل ظروفه وملابساته؛ لأن الذي يشرع للإنسان ويوجهه ويعلمه: هو الذي خلق الكون والحياة وهو الذي خلق الإنسان، فهو أعلم بما يصلحه وما يفسده، وما يرقى به إلى درجة الملاك، وما يهبط به إلى حضيض البهائم: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: 14].

والواقعية بهذا المعنى ليست نقيضًا للنزعة المثالية المعتدلة في الفلسفة والأخلاق، فإن هذه النزعة مبنية على فطرة الإنسان، وتطلعها إلى الترقي، وشوقها إلى المثل الأعلى.

فهي إذن واقعية مثالية، أو مثالية واقعية. فقد سلمت من إفراط غلاة المثاليين، ومن تفريط الواقعيين من البشر.

موقف المذاهب والفلسفات الأرضية:

وهذا بخلاف الفلسفات والمذاهب و«الأيديولوجيات» الأرضية الوضعية كلها، فقد وضعها بشر محدود القدرة والمعرفة، تنقصهم الإحاطة التامة بواقع الكون وواقع الحياة، وواقع الإنسان، والإحاطة بحاجاته كلها، وبدوافعه كلها، وبطاقاته كلها، وبتطوراته كلها ... الإنسان في كل مكان، وفي كل زمان، وفي كل

حال.

فهم حين يضعون منهجًا، أو «نظام حياة» للإنسان، يضعونه متأثرين بالواقع للإنسان في بيئة معينة في عصر معين، غافلين عما كان عليه إنسان الأمس، وما يكون عليه إنسان الغد، بل ما عليه إنسان الحاضر في بيئته أو بيئات أخرى، لم يتح لهم الاطلاع عليها، فضلًا عن الغفلة عن واقع الكون الكبير الذي يعيشون فوق أرضه، وتحت سمائه، والذي يعرفون منه شيئًا، ويجهلون أشياء، مما يبصرون، وما لا يبصرون.

هذا إذا افترضنا فيهم النزاهة التامة، والتجرد الكامل، والبعد عن كل تأثر بمؤثرات وراثية أو بيئية، وعدم الخضوع لأي ضغوط نفسية أو خارجية، وهيهات هيهات!

ومن ثَمَّ تأتي هذه الفلسفات أو الأنظمة أو المذاهب أو الأيديولوجيات، قاصرة في نظرتها لواقع الإنسان والحياة، وفي رعايتها له؛ ولهذا تجد فيها كثيرًا من الأوهام والتخيلات التي لا يقوم عليها الواقع المشاهد.

خذ مثلًا: الشيوعية؛ لقد بنت فلسفتها على أساس إقامة مساواة اقتصادية بين الناس جميعًا، بحيث لا يأخذ أحد في المجتمع الشيوعي أكثر من حاجته، وفقًا لمبدئها القائل: «مِن كُلٍّ حسب قدرته، ولِكلٍّ حسب حاجته».

وقد استولى الشيوعيون على الحكم في روسيا منذ أكثر من نصف قرن «أكتوبر (1917م)»، ومع هذا لم يتحقق هذا الحلم، ولم يقتربوا منه، بل بالعكس ما يزيدهم الواقع ومرور الأيام عنه إلا بُعدًا، إنهم بين حين وآخر يعترفون بشيء من الملكية للأفراد في صورة من الصور.

ومن المقرر المعروف أن تباين «الدخول» في الاتحاد السوفييتي أمر لا ينكره السوفييت أنفسهم، فأين العمال والفلاحون وصغار الموظفين؛ من الفنانين والمهندسين وأعضاء الحزب، وأشباههم من المحظوظين المقربين؟!

ففكرة «المساواة الاقتصادية» - التي ضحى الشيوعيون من أجلها بالحريات الفردية - فكرة وهمية لا تستند إلى الواقع؛ ولهذا خسر الناس الحرية، ولم يكسبوا المساواة!

وأبعد من ذلك عن الواقع: ما نادى به الشيوعيون من زوال فكرة الدولة، وما يتبعها من شرطة وسجون ومحاكم وعقوبات ... إلخ. وكل هذه أوهام لم تتحقق من قبل، ولن تتحقق من بعد، ما دام الإنسان هو الإنسان.

وإذا كان دعاة المذهب الجماعي «الشيوعي» قد غفلوا عن الواقع في فلسفتهم، وركضوا وراء الأوهام والتخيلات، فإن دعاة «المذهب الفردي» لم يسلموا مما سقط فيه إخوانهم - أو خصومهم - الجماعيون. ولهذا سخر بعض المفكرين الغربيين من الديمقراطية، فقال: إنها نظام لا يتحقق إلا إذا حكم الآلهة!!

موقف الأديان الوضعية والمرحلية:

ومثل المذاهب والفلسفات الأرضية: الديانات الوضعية كالبوذية والكونفشوسية وغيرها، وكذلك الأديان السماوية التي شرعها الله لمرحلة محدودة وقوم معينين، وعلاجًا لأوضاع وتطرفات خاصة، ولم يردها رسالة عامة خالدة، لكل البشر، في كل الأزمان، وفي شتى البيئات، فجاءت تحمل طابع زمنها ومرحلتها ... كما أن الله لم يتكفل بحفظها وبقائها، فامتدت إليها يد التغيير والتحريف اللفظي والمعنوي: اللفظي بحذف بعض كلمات الله، ووضع كلمات

البشر مكانها، أو تركها إلى غير بَدَلٍ ... والمعنوي بتفسير كلام الله على غير ما أراد بإنزاله ... وكلاهما تحريف للكلم عن مواضعه.

والديانة المسيحية مثال بارز لما نقول، فقد جاءت علاجًا وقتيًّا لحالة خاصة تتمثل في تكالب اليهود على المادة، وبعدهم عن روح التدين الحق، وعن فضائل المتدينين المثلى، هذا إلى طغيان الرومان واستغراقهم في متاع الحياة الأدنى.

فعالجت الإغراق في الماديات بإغراق مقابل في الروحانيات، وحاولت أن ترفع الهابطين من وحل الواقع إلى التحليق في سماء المثالية، وكثيرًا ما يكون علاج التطرف بتطرف عكسي، ولكن هذا في العلاج الوقتي المحدود، لا العلاج الدائم الشامل. وهذا سر اشتمال المسيحية - وهي دين سماوي الأصل - على تعاليم مثالية لا تصلح للتطبيق على جماهير البشر في كل زمان ومكان، وعلى تعاليم أخرى لا توافق العقل، ولا تلائم الفطرة، دلالةً على أنها مما دخل عليه التحريف، وخالطته أوهام البشر، وأهواء البشر، وشطحات البشر.

ميزة الإسلام:

أما الإسلام فهو كلمات الله الباقية لكافة الخلق، وهو الهداية العامة الخالدة للأحمر والأسود، ورحمة الله الشاملة للعالمين، وهو الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. ولهذا ضمَّنه الله من التعاليم ما يليق بحال البشر، أين كانوا، ومتى كانوا، وكيف كانوا؟

ولا غرو، أنْ راعى الإسلام الواقع في كل ما دعا إليه الناس من عقائد وعبادات، وأخلاق وتشريعات.

واقعية العقيدة الإسلامية:

جاء الإسلام بعقيدة واقعية؛ لأنها تصف حقائق قائمة في الوجود، لا أوهامًا متخيلة في العقول، حقائق يقبلها العقل، وتستريح إليها النفس، وتستجيب لها الفطرة السليمة.

فالعقيدة الإسلامية تدعو إلى الإيمان بإله واحد دل على نفسه بآياته التكوينية، في الأنفس والآفاق، وآياته التنزيلية، مما أوحى به إلى رسله، فهو ليس كإله الأساطير الذي تتحدث عنه أقاصيص اليونان، وحكايات الرومان، وغيرهم من الشعوب.

وقد وصف القرآن هذا الإله الواحد بأوصاف، ونَعَتَه بأسماء، وهي أسماء وصفات تُقنع عقول الفلاسفة، كما تُرضي عواطف العامة معًا. تجمع بين الجلال والجمال، والقوة والرحمة، وهي أيضًا أسماء وصفات متسقة مع عمله سبحانه في الكون، وصلته بالخلق، فهو الرحمن الرحيم، الملك القدوس السلام، المؤمن المهيمن، العزيز الجبار المتكبر، الخالق البارئ المصور، العليم الحكيم، البر الكريم، العفوّ الغفور، الحليم الشكور، الرزاق الوهاب، الرءوف التواب، ذو الجلال والإكرام.

كما تدعو هذه العقيدة أيضًا إلى الإيمان برسول بعثه اللَّه، ليختم به النبوات، ويتمم به مكارم الأخلاق، رسول هو بشر مثلنا، لا يتميز عن الناس إلا بالوحي: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف: 110] ليس إلهًا، ولا ابن إله، ولا ملكًا، إنما هو إنسان يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق، عاش ومات، كما يعيش الناس ويموتون، باع واشترى، وصادق وعادى، وسالم وحارب، وتزوج وأنجب ... كان يَرْضى ويَسْخط، ويَفْرح ويَحْزن، ويُحِب ويَكْره. دلَّ على صدقه: سيرته

الزاكية، ودعوته الهادية، وتأييدُ اللّه إياه، ونصرُه على أعدائه، وأثرُه في أصحابه، وفي العالم من حوله، وكتابُه الذي تحدى به المعارضين، فعجزوا عن الإتيان بسورة من مثله، وأعلن أنه محفوظ من اللّه، فلم يزل محفوظًا إلى اليوم، لم يبدل فيه كلمة ولا حرف.

هذا الكتاب الإلهي: هو القرآن المكتوب في المصاحف، المتلوُّ بالألسنة، المحفوظ في الصدور، الذي يخاطب في الناس عقولهم وقلوبهم معًا، ويستثير فيهم عوامل الرغبة والرهبة جميعًا، فهو بشير ونذير، يقرن الوعد بالوعيد، والترغيب بالترهيب، ويشوق إلى الجنة، ويخوف من النار، فقد علم مُنَزِّلُه تعالى، أن الإنسان لا يحركه إلى الخير، ولا يبعده عن الشر، إلا شوق يحفزه ويدفعه، أو خشية تحجزه وتمنعه، وليس كالشوق إلى مثوبة اللّه حافز، ولا كالخوف من عذابه حاجز.

كما تدعو هذه العقيدة أيضًا إلى الإيمان بحياة أخرى بعد هذه الحياة ، يُجْزى فيها كل مكلف بما عمل من خير أو شر، ثوابًا وعقابًا، نعيمًا وجحيمًا، جنة ونارًا.

وفي إيمان هذه العقيدة بالخلود: ما يغذّي رغبة الإنسان في طول البقاء، وما يطابق شعوره بخلود النفس، الذي تكاد تتفق عليه كل الأديان والفلسفات في الشرق والغرب من المصريين، إلى الهنود، إلى اليونان، إلى غيرهم من الأمم والشعوب.

وفي الإيمان بالجزاء الإلهي العادل على الخير والشر في الدنيا، ثوابًا وعقابًا في الأخرى: ما يغذي الإحساس الفطري الأصيل بضرورة القصاص من الظالم الفاجر الذي أفلت من يد العادلة الدنيوية، والمثوبة لمن فعل الخير ودعا إليه، ولم يجز إلا بالتنكر والاضطهاد ... وعدم التسوية بين الأخيار والأشرار، والأبرار والفجار، والمصلحين والمفسدين: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ

كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ 21 وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَلِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [الجاثية: 21، 22].

وفي الإيمان بالجنة والنار، وما فيهما من نعيم وعذاب، حسي ومعنوي: مطابقةٌ لواقع الإنسان، من حيث هو جسم وروح، لكل منهما مطالبه وحاجاته، ومن حيث إن في الناس من لا يكفيه نعيم الروح أو عذابها وحدها مجردة عن الجسم، كما أن منهم من لا يقنعه نعيم الجسم أو عذابه بمعزل عن الروح؛ لهذا كان في الجنة الطعام والشراب، والحور العين، ورضوان من الله أكبر ... وكان في النار سلاسل وأغلال، وزقوم وغِسْلين، وطعام من ضريع، لا يسمن ولا يغني من جوع، ولهم فوق ذلك من الخزي والهوان ما هو أشد وأنكى.

واقعية العبادات الإسلامية:

وجاء الإسلام بعبادات واقعية؛ لأنه عرف ظَمَأَ الكائن الروحي في الإنسان إلى الاتصال بالله، ففرض عليه من العبادات ما يروي ظمَأه، ويشبع نهمه، ويملأ فراغ نفسه، ولكنه راعى الطاقة المحدودة للإنسان، فلم يكلفه ما يعنته ويحرجه: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾ [الحج: 78].

1 - لقد راعى واقع الحياة وظروفها الأسرية والاجتماعية والاقتصادية، وما تفرضه على الإنسان من طلب المعيشة، والسعي في مناكب الأرض الذلول، فلم يطلب من المسلم الانقطاع للعبادة، كالرهبان في الأديار، بل لم يسمح له بهذا الانقطاع لو أراد، وإنما كلف المسلم عبادات محدودة، تصله بربه، ولا تقطعه عن مجتمعه، يعمر بها آخرته، ولا تخرب من ورائها دنياه، لم يرد منهم أن تكون حياتهم كلها

تحليقًا عاليًا في أجواء الروحانية الخالصة، بل قال الرسول لبعض أصحابه: «**ساعة وساعة**»[136].

2 - وعَرَفَ الإسلام طبيعة الْمَلَل في الإنسان، فنوَّع العبادات ولوَّنها، بين عبادات بدنية، كالصلاة والصيام، وأخرى مالية كالزكاة والصدقات، وثالثة جامعة بينهما كالحج والعمرة، وجعل بعضها يوميًّا كالصلاة، وبعضها سنويًّا أو موسميًّا كالصيام والزكاة، وبعضها مرة في العمر كالحج. ثم فتح الباب لمن أراد مزيدًا من الخير والقرب من الله، فشرع التطوع بنوافل العبادات: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ﴾ [البقرة: 184].

3 - وراعى الإسلام الظروف الطارئة للإنسان كالسفر والمرض ونحوهما، فشرع الرُّخص والتخفيفات التي يحبها الله، وذلك مثل صلاة المريض قاعدًا أو مضطجعًا على جنب، حسب استطاعته، وتيمُّم الجريح إذا كان استعمال الماء للغسل أو الوضوء يضره، وفِطْر المريض في رمضان، مع وجوب القضاء، وفطر الحامل والمرضع إذا خافتا على أنفسهما أو ولديهما. وفِطْر الشيخ الكبير والمرأة العجوز مع الفدية: إطعام مسكين عن كل يوم.

ومثل ذلك قصر الصلاة الرباعية للمسافر، والجمع بين صلاتي الظهر والعصر، أو بين المغرب والعشاء تقديمًا أو تأخيرًا، وشرعية الفطر للمسافر في الصيام ... وهذه الرخص كلها رعاية لواقع الناس، وتقدير لظروفهم المتغيرة، وتيسير من الله عليهم، كما قال في آية الصوم: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: 185].

---

(136) رواه مسلم في «التوبة» (2750)، عن حنظلة الأسيدي.

واقعية الأخلاق الإسلامية:

وجاء الإسلام بأخلاق واقعية، راعت الطاقة المتوسطة المقدورة لجماهير الناس، فاعترفت بالضعف البشري، وبالدوافع البشرية، وبالحاجات البشرية المادية والنفسية:

1 - لم يوجب الإسلام على من يريد الدخول في الإسلام أن يتخلَّى عن ثروته وأمور معيشته، كما يحكي الإنجيل عن المسيح أنه قال لمن أراد اتباعه: بع ما لك واتبعني! ولا قال القرآن ما قال الإنجيل: «إن الغني لا يدخل ملكوت السماوات حتى يدخل الجمل في سم الخياط»!

بل راعى الإسلام حاجة الفرد والمجتمع إلى المال، فاعتبره قوامًا للحياة، وأمر بتنميته والمحافظة عليه، وامتنَّ القرآن بنعمة الغنى والمال في غير موضع، وقال الله لرسوله: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغۡنَىٰ﴾ [الضحى: 8]، وقال الرسول: «**ما نفعني مال كمال أبي بكر**»[137]، وقال لعمرو بن العاص: «**نعم المال الصالح للرجل الصالح**»[138].

2 - ولم يجئ في القرآن ولا السنة: ما جاء في الإنجيل من قول المسيح: «أحبوا أعداءكم ... باركوا لاعنيكم ... من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر ... ومن سرق قميصك فأعطه إزارك».

---

(137) رواه أحمد (7446)، وقال مخرجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وابن ماجه في المقدمة (94)، وصححه الألباني في «تخريج مشكلة الفقر» (13)، عن أبي هريرة.

(138) رواه أحمد (17763)، وقال مخرجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، والحاكم في «البيوع» (2/ 2)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في «مشكلة الفقر» (19)، عن عمرو بن العاص.

فقد يجوز هذا في مرحلة محدودة، ولعلاج ظرف خاص، ولكنه لا يصلح توجيهًا عامًّا خالدًا، لكل الناس، في كل عصر، وفي كل بيئة، وفي كل حال، فإن مطالبة الإنسان العادي بمحبة عدوه ومباركة لاعنه، قد يكون شيئًا فوق ما يحتمله؛ ولهذا اكتفى الإسلام بمطالبته بالعدل مع عدوه: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: 8].

كما أن إدارة الخد الأيسر لمن ضرب الخد الأيمن، أمر يشق على النفوس، بل يتعذر على كثير من الناس أن يفعلوه، وربما جرأ الفجرة الأشرار على الصالحين الأخيار، وقد يتعين في بعض الأحوال، ومع بعض الناس، أن يُعاقَبوا بمثل ما اعتدوا، ولا يُعفَى عنهم، فيتبجحوا ويزدادوا بغيًا وطغيانًا. وقديمًا قال شاعر عربي:

لئن كنت محتاجًا إلى الحلم، إنني ... إلى الجهل في بعض الأحايين
ولي فرس للحلم بالحلم ملجم ... ولي فرس للجهل بالجهل مُسْرَجُ
فمن رام تقويمي فإني مقوَّم ... ومن رام تعويجي فإني معوَّجُ
وما كنت أرضى الجهل خدنًا ولكنني أرضى به حين أُحْرَجُ[139]

ولهذا تجلت واقعية الإسلام حين شرع مقابلة السيئة بمثلها، بلا حيف ولا عدوان، فأَقَرَّ بذلك مرتبة العدل، ودَرْء العدوان، ولكنه حث على العفو والصبر والمغفرة للمسيء، على أن يكون ذلك مَكْرُمة يُرَغَّب فيها، لا فريضة يُلزَم بها. وهذا واضح في مثل قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشورى: 40]، ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ

(139) من شعر محمد بن حازم الباهلي.

﴿وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل: 126].

3 - ومن واقعية الأخلاق الإسلامية: أنها أقرت التفاوت الفطري والعملي بين الناس، فليس كل الناس في درجة واحدة، من حيث قوة الإيمان، والالتزام بما أمر الله به من أوامر، والانتهاء عما نهى عنه من نواهٍ، والتقيد بالْمُثل العليا.

فهناك مرتبة الإسلام، ومرتبة الإيمان، ومرتبة الإحسان، وهي أعلاهن، كما أشار إلى ذلك حديث جبريل المشهور، ولكل مرتبة أهلها.

وهناك الظالم لنفسه، والمقتصد، والسابق بالخيرات، كما أرشد إلى ذلك القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [فاطر: 32].

فالظالم لنفسه هو: المقصر، التارك لبعض الواجبات، المرتكب لبعض المحرمات.

والمقتصد هو: المقتصر على فعل الواجبات، وإن ترك المندوبات، وعلى ترك المحرمات، وإن فعل المكروهات.

والسابق هو: الذي يزيد على فعل الواجبات، أداء السنن والمستحبات، وعلى ترك المحرمات، ترك الشبهات والمكروهات، بل ربما ترك بعض الحلال خشية الوقوع فيما يحرم أو يكره.

والآية الكريمة تجعل هؤلاء الأصناف الثلاثة - على تفاوت مراتبهم: من الأمة التي اصطفاها الله من عباده، وأورثها الكتاب.

4 – ومما يكمل هذا المعنى: أن الأخلاق الإسلامية لم تفترض في أهل التقوى أن يكونوا برآء من كل عيب، معصومين من كل ذنب، كأنما هم ملائكة أولو أجنحة، بل قدرت أن الإنسان مكوَّن من طين وروح، فإذا كانت الروح تعلو به تارة، فإن الطين يهبط به طورًا. ومزية المتقين إنما هي في التوبة والرجوع إلى اللَّه، كما وصفهم اللَّه بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [آل عمران: 135].

5 – ومن واقعية الأخلاق الإسلامية: أنها راعت الظروف الاستثنائية كالحرب، فأباحت من أجلها ما لا يباح في ظروف السِّلْم، كهدم المباني، أو تحريق الأشجار ونحوها، ومثل ذلك: الكذب لتضليل العدو عن حقيقة أوضاع الجيش الإسلامي وعدده وعتاده وخططه، فإن الحرب – كما جاء في الحديث – خدعة.

واقعية التربية الإسلامية:

والتربية الإسلامية كذلك: تربية واقعية تتعامل مع الإنسان كما هو: لحمًا ودمًا، وفكرًا وشعورًا، وانفعالًا ونزوعًا، وروحًا وتحليقًا.

ولما رأى بعض الصحابة – واسمه: حنظلة – أنه يكون مع أسرته وأهله في حال تغاير الحال التي يكون عليها مع النبي ﷺ، من حيث الصفاء والشفافية، والشعور بخشية اللَّه تعالى ومراقبته، فرأى هذا لونًا من النفاق، وخرج يعدو في الطريق، وهو يقول عن نفسه: نافق حنظلة، حتى انتهى إلى الرسول ﷺ، وشرح له ما يحس به من تباين حاله عنده عن حاله في البيت، فأجابه الرسول بقوله: «**والذي نفسي بيده، إن**

لو تدومون على ما تكونون عندي، وفي الذكر، لصافحتكم الملائكة على فُرُشكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة، ساعة وساعة» ثلاث مرات[140]. ومن هنا جاء المثل العامي الذي يقول: ساعة لقلبك، وساعة لربك.

وعلى هذه الحياة الواقعية المتوازنة يربي الإسلام المسلم، فلا يدعه يغرق في اللهو إلى رأسه، فلا يبقى له شيء لربه، كما لا يدعه يغلو في التعبد فلا يبقى له شيء لقلبه.

ومع أن الإسلام لا يقر بأن أحدًا يولد ملوثًا بالخطيئة، نراه يعترف بأثر البيئة، وخطرها، وبخاصة البيئة الأسرية، حتى إنها لتشكل عقيدة الطفل، واتجاهه الديني الأَوَّليّ. وفي الحديث: «**كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه**»[141].

ولهذا حمل الإسلام الآباء تبعة توجيه أولادهم، وحسن تربيتهم، كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: 6].

وقال ﷺ: «**كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته ... والرجل في أهل بيته راعٍ، وهو مسئول عن رعيته**»[142].

ويهتم الإسلام بسن الطفولة؛ لأنها أكثر قابلية للتعلم والتأثر والمحاكاة، وهنا يأمر الآباء والمربين بتدريب الأطفال على الطاعات، وأداء الفرائض، وفعل

---

(140) رواه مسلم في «التوبة» (2750)، عن حنظلة.

(141) متفق عليه: رواه البخاري في «الجنائز» (1358)، ومسلم في «القدر» (2658)، عن أبي هريرة.

(142) سبق تخريجه.

الخيرات، متى بلغوا سن التمييز، وقد حددها الحديث النبوي بالسابعة، كما أمر بأخذهم بالحزم والشدة، إذا قاربوا المراهقة، وذلك إذا أتمُّوا العاشرة، وفي هذا يقول عليه الصلاة والسلام: «**مُرُوا أبناكم بالصلاة لسبع سنين، واضربوهم عليها لعشر سنين**»[143].

والضرب هنا ليس مقصودًا لذاته، وإنما المراد به إشعار الولد بأهمية ما يؤمر به، وجدِّية الأب في أمره به، وحرصه على تنفيذ الأمر وعدم التهاون فيه. فإن بعض الآباء يأمر الطفل من طرف لسانه، بحيث لا يشعر الطفل منه أنه حريص على الامتثال. فلهذا جاء الأمر بالضرب للإشعار بأن الأمر جد لا هزل، وفعل لا قول.

والضرب المطلوب: أن يؤلم ويوجع، ولكنه لا يشوه ولا يجرح، ولا يؤذي إيذاءً شديدًا. والإسلام يقرر هذا للضرورة أو للحاجة، ولا يحلِّق مع المحلِّقين في عالم الخيال، الذين ينادون بإلغاء الضرب نهائيًّا من دنيا التربية، في البيت، أو في المدرسة. هذه مثالية لا تصلح لكل البيئات، ولا لكل الأفراد، ولا لكل الأحوال.

وخير الآباء والمربين: من لا يحتاج إلى الضرب، كما جاء في الحديث في مخاطبة الأزواج: «**ولن يضرب خياركم**»[144]. وقد صح أن النبي ﷺ «ما ضرب بيده شيئًا قط»[145]، لا صبيًّا، ولا امرأة، ولا جارية، ولا عبدًا، ولا دابة. وهذا أفق رفيع، لا

(143) رواه أحمد (6756)، وقال مخرّجوه: إسناده حسن، وأبو داود في «الصلاة» (495)، وحسنه النووي في «رياض الصالحين» (301)، قال الألباني في «صحيح أبي داود» (509): إسناده حسن صحيح، عن عبد الله بن عمرو.

(144) رواه الحاكم في «النكاح» (2/ 191)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، والبيهقي في «الكبرى» في «النكاح» (7/ 304)، عن أم كلثوم بنت أبي بكر.

(145) رواه مسلم في «الفضائل» (2328)، عن عائشة.

يتسامى إليه كل الناس.

واقعية الشريعة الإسلامية:

وجاء الإسلام كذلك بشريعة واقعية، لم تغفل الواقع في كل ما أحلت وحرمت، ولم تهمل هذا الواقع في كل ما وضعت من أنظمة وقوانين للفرد، وللأسرة، وللمجتمع، وللدولة، وللإنسانية.

في التحليل والتحريم:

فمن مظاهر هذه الواقعية في مجال الحلال والحرام، وهو ما يتعلق غالبًا بشئون الفرد، رجلًا أو امرأة:

1 - أن شريعة الإسلام لم تحرم شيئًا يحتاج إليه الإنسان في واقع حياته، كما لم تُبِحْ له شيئًا يضره في الواقع.

ومن ثَمَّ أنكر القرآن تحريم الزينة والطيبات، معلنًا إباحتها لبني الإنسان جميعًا بشرط القصد والاعتدال، وعدم الإسراف في استعمالها: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ 31 قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِ﴾ [الأعراف: 31، 32].

2 - وراعت الشريعة فطرة البشر في الميل إلى اللهو، والترويح عن النفس، فرخصت في أنواع من اللهو، كالسباق وألعاب الفروسية وغيرها، إذا لم تقترن بقمار ولا بحرام، ولم تصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وخصوصًا في المناسبات السارة، كالأعراس والأعياد. وقد غنت جاريتان عند عائشة في بيت النبي ﷺ

فانتهرهما أبو بكر، فقال النبي ﷺ: «**دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد**»(146)، وقال يومئذ: «**لتعلم اليهود أن في ديننا فسحة ... وأني بعثت بحنيفية سمحة!**»(147). وأذن للحبشة أن يلعبوا في مسجده بالحراب، وسمح لزوجه عائشة أن تنظر إليهم حتى اكتفت(148).

وقد راعت الشريعة فطرة المرأة وواقعها في حب الزينة، وعمق الرغبة في التجمل، فأباحت لها بعض ما حرمت على الرجال كالتحلي بالذهب، ولبس الحرير.

3 - ومن واقعية الشريعة: أنها قدرت الضرورات، التي تعرض للإنسان وتضغط عليه، حقَّ قدرها، فرخصت في تناول المحرمات على قدر ما توجب الضرورة، وقرر فقهاء الشريعة: أن الضرورات تبيح المحظورات، استنادًا إلى ما جاء في القرآن عند ذكر الأطعمة المحرمة، مِنْ مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: 173].

4 - ومن واقعية الشريعة: أنها عرفت ضعف الإنسان أمام كثير من المحرمات، فسدت الباب إليها بالكلية؛ ولهذا حرمت قليلها وكثيرها، كما في الخمر؛ لأن

---

(146) متفق عليه: رواه البخاري (987)، ومسلم (892)، كلاهما في «العيدين»، عن عائشة.

(147) رواه أحمد في «المسند» (24855)، وقال مخرِّجوه: حديث قوي، وهذا سند حسن، وحسَّن إسناده الحافظ ابن حجر في «تغليق التعليق» (2/ 43)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (1829)، عن عائشة.

(148) إشارة إلى الحديث المتفق عليه: «لقد رأيت رسول الله ﷺ يومًا على باب حجرتي والحبشة يلعبون في المسجد، ورسول الله ﷺ يسترني بردائه، أنظر إلى لعبهم»، رواه البخاري في «الصلاة» (454)، ومسلم في «صلاة العيدين» (892).

القليل يجر إلى الكثير، كما أنها عدت ما يوصل إلى الحرام حرامًا، سدًّا للذريعة وإقرارًا بواقع الكثير من البشر، الذين لا يملكون أنفسهم إذا فتح لهم طريق إلى الحرام. ومن هنا كان تحريم الخلوة بالمرأة الأجنبية، إغلاقًا لباب قد تهب منه رياح الشر، فلا يستطاع صدها، ومثل ذلك النظر بشهوة إلى الجنس الآخر، فإن العين رسول القلب، والنظرة المتشهّية بريد الفتنة، وقديمًا قال الشاعر:

كل الحوادث مبدأها من النظر ومُعْظَمُ النار من مُسْتَصْغَرِ

وحديثًا قال شوقي:

نظرة، فابتسامة، فسلام فكلام، فموعد، فلقاء!

في تشريعات الزواج والأسرة:

5 - ومن واقعية الشريعة الإسلامية: أنها راعت قوة الدوافع الجنسية لدى الإنسان فلم تطرحها دبر الأذن، ولم تنظر إليها باستخفاف، ولا باستقذار، كما فعلت بعض الملل والنِّحَل، ولم ترضَ للإنسان أن يقاد من غرائزه وحدها، كما فعلت بعض الفلسفات ... فشرعت إشباع الدافع الجنسي بطريقة نظيفة، تضمن بقاء الإنسان، وكرامة الإنسان، وارتفاع الإنسان عن الحيوان، وذلك بشرعية «نظام الزواج»، وقد أشار القرآن إلى ذلك بعد ما ذكر ما حرم الله من النساء، وما أحله وراء ذلك بشرطه، ثم قال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ 26 وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا 27 يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا﴾ [النساء: 26 - 28].

فالمفهوم من وصف الإنسان بالضعف في هذا المقام: ضعفه أمام الغريزة

الجنسية.

تعدد الزوجات:

6 - وانطلاقًا من هذه النظرة الواقعية للحياة والإنسان، كانت إباحة تعدد الزوجات كما شرعه الإسلام.

فما دام في الزوجات من يعتريها المرض ويطول، ومن تمتد بها الدورة الشهرية إلى ثلث الشهر أو أكثر، ومن ترغب عن الرجل، ولا تُقْبِل عليه إلا بصعوبة، وما دام كل الرجال لا يستطيعون التحكم في غرائزهم، فلماذا لا نتيح لهم طريق الزواج الحلال في العلانية والنور، بدل البحث عن الحرام في الخفاء والظلام؟!

وإذا كان من النساء من ابتليت بالعقم، وفي الرجال من يكون قويَّ الرغبةِ في الإنجاب، فلماذا لا نتيح له تحقيق رغبته في الولد بالزواج من امرأة أخرى ولود، بدل كسر قلب الأولى بالطلاق، أو تحطيم رغبة الرجل بتحريم الزواج الثاني عليه.

وإذا كان عدد الصالحات للزواج من النساء أكثر من عدد القادرين عليه من الرجال، بصفة عامة، وبعد الحروب بصفة خاصة، فليس أمام العدد الزائد إلا واحد من ثلاثة احتمالات:

1 - أن تقضي الفتاة عمرها في بيت أهلها عانسًا، محرومة من حقها في إشباع عاطفة الزوجية، وعاطفة الأمومة، وهي عواطف فطرية، غرسها اللّه في كيانها، لا تملك لها دفعًا.

2 - أو البحث عن متنفس غير مشروع من وراء ظهر الأسرة والمجتمع والأخلاق.

3 – أو الزواج من رجل متزوج، قادر على إحصانها، واثق من العدل بينها وبين ضرتها.

أما الاحتمال الأول، ففيه ظلم كبير لعدد من النساء، بغير جرم اقترفته، فإنهن لم يجئن إلى الحياة برضاهن.

والاحتمال الثاني: جرم في حق المرأة، وفي حق المجتمع، وفي حق الأخلاق، وهو – للأسف – ما سار عليه الغرب، فقد حرم تعدد الزوجات، وأباح تعدد الصديقات والعشيقات، أي أن الواقع فرض عليهم التعدد، ولكنه تعدد لا أخلاقي ولا إنساني؛ لأن الرجل يقضي من ورائه وطره وشهوته، دون أن يلتزم بأي واجب، أو يتحمل أية تبعة، تأتي نتيجة لهذا التعدد.

أما الاحتمال الثالث: فهو وحده الحل العادل، والنظيف، والإنساني والأخلاقي، وهو الذي جاء به الإسلام.

الطلاق:

7 – ومن واقعية الشريعة: إباحتها للطلاق عند تعذر الوفاق بين الزوجين. هذا مع تعظيم الإسلام لشأن العلاقة الزوجية، واعتبار هذا الرباط: ﴿مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾(149) [النساء: 21]، وهو نفس التعبير الذي استخدم في شأن النبوة. واعتبار الأصل في الطلاق هو الحظر والتحريم، كما تدل على ذلك الدلائل من القرآن والسنة، قال تعالى في شأن النساء الناشزات: ﴿فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا﴾ [النساء: 34]، واعتبر القرآن التفريق بين

(149) في قوله تعالى: ﴿وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: 21]. كما قال عن الأنبياء في ﴿وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: 7].

المرء وزوجه من أعمال السحرة الكفرة(150). وجاء في الحديث: «**أبغض الحلال إلى الله الطلاق**»(151).

ومع هذا، أثبت الواقع أن مِنَ الزواج ما لا يصحبه التوفيق، وقد أمر الإسلام الأزواج بالصبر والتريث وعدم الاستجابة لعاطفة الكراهية إن أحسوا بها: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 19]، كما أمر الأزواج أن يعالجوا المرأة الناشز بكل الوسائل، حتى تعود إلى الموافقة والطاعة، وأَمَرَ المجتمع أن يتدخل للتحكيم والإصلاح عن طريق «مجلس عائلي» كما قال تعالى: ﴿فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ [النساء: 35].

ومع هذا قد تستحكم النفرة، ويتفاقم النزاع، وتخفق كل وسائل الإصلاح والتحكيم والتوفيق، فهنا يكون الطلاق هو العلاج رغم مرارته، وآخر الدواء الكي. وما أصدق ما قيل: «إن لم يكن وفاق، ففراق» وإلا كان الأمر كما قال الحكيم: «إن من أعظم البلايا مصاحبة من لا يوافقك ولا يفارقك»، وكما قال المتنبي:

ومن نكد الدنيا على الحر: أَنْ عدوًّا له، ما مِنْ صداقته بُدّ!

ولقد أرغم الواقع المسيحية المعاصرة على الاعتراف بحق الطلاق، برغم التحريم الغليظ في الإنجيل، وبرغم الحملات المسعورة التي طالما شنتها قوى

(150) في قوله تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ [البقرة: 102].

(151) رواه أبو داود (2178)، وابن ماجه (2018)، كلاهما في «الطلاق»، وضعفه الألباني في «إرواء الغليل» (2040)، عن ابن عمر.

التبشير دهرًا طويلًا على الإسلام، الذي أباح الطلاق، فإذا هم يضطرون اضطرارًا لإباحته، إلى حد التوسع والإسراف المرذول، وإذا آخر القِلاع المسيحية المتشددة في هذا الجانب تسقط أخيرًا، وتعلن إباحة الطلاق، وذلك في روما الكاثوليكية، التي لا يجيز مذهبها الديني الطلاق لعلة ما، ولو كانت الخيانة الزوجية السافرة: الزنا.

وانتصرت شريعة الخالق على أوهام الخلق.

في التشريعات الاجتماعية إباحة التملك الفردي:

8 - ومن واقعية الشريعة في المجال الاجتماعي والاقتصادي: أنها اعترفت بالدافع الفطري الواقعي الأصيل في نفس الإنسان: واقع حب التملك؛ فأقرت مبدأ الملكية الفردية وما يترتب عليه من حق التصرف في الملك، وحق الإرث له، ولكنها لم تنسَ واقعًا آخر، هو مصلحة المجتمع وحقوقه، وحاجات الفئات الضعيفة من أبنائه. فلهذا قيدت هذه الملكية بقيود شتى: في اكتساب المال، وفي تنميته، وفي الاستمتاع به، وفي التصرف فيه، وأوجبت فيه حقوقًا لله وللناس، الزكاة أولها، وليست هي آخرها، كما يتوهم كثيرون.

لقد أثبتت التجارب، وشهد الواقع الملموس: أن الحافز الفردي له دوره الفعال في ترقية الحياة، وتطوير الوسائل، وتحسين الإنتاج، وتنمية القدرة على الابتكار والإبداع، وصقل المواهب، حتى اضطر الماركسيون في روسيا وفي غيرها - تحت وطأة الواقع الْمُجرَّب - أن يتنازلوا عن أجزاء من نظرياتهم الجامدة، ويتراجعوا عنها مقهورين، فيسمحوا ببعض التملك، وبشيء من حوافز الربح ... وانتصرت فطرة الله أيضًا على أوهام الناس.

شرعية الحدود والقصاص والتعزير:

1 - ومن واقعية الشريعة: أنها عملت بكل قوة على تطهير المجتمع من أسباب الجريمة، وتربية الأفراد على حياة الاستقامة، ولكنها مع هذا لم تكتفِ بالوازع الأخلاقي - وإن حرصت عليه كل الحرص - ولم تقتصر على التربية وحدها، وإن كانت تراها فريضة وضرورة دينية واجتماعية، ولكن في الناس من لا يرتدع إلا بعقوبة زاجرة، ولا تكفيه الموعظة الحسنة، ولا التوجيه الرشيد؛ ولهذا كان لا بد من سوط السلطان، بجوار صوت القرآن، حتى جاء عن عثمان رضي الله عنه: إن الله ليزع بالسلطان، ما لا يزع بالقرآن![152]

ومن هنا أوجبت الشريعة العقوبات من الحدود والقصاص والتعازير، ولم تذهب إلى ما ذهب إليه الخياليون من الناس الذين ينادون بإلغاء عقوبة الإعدام إشفاقًا على القاتل المسكين!! دون أن ينظروا إلى مصيبة المقتول وأهله، وما جرَّ عليهم من ويلات وأحزان، ثم إلى أمن المجتمع كله من ناحية أخرى!! أو الذين يعطِّلون «حدَّ السرقة» بزعم الرحمة بالمجرم «السارق» الذي لم يرحم نفسه ولا غيره، حيث انتهك الحرمات، وسطا على الأموال، وهدد أمن الجماعة، ولم يبال - في سبيل تحقيق مآربه، والحرص على الإفلات من قبضة العدالة - أن يسفك دم البُرَآء، وأن يقتل النساء والأطفال.

يقول تعالى في شأن القصاص: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 179]. وفي شأن السرقة: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَـٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: 38].

---

(152) ذكره ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (11/ 416).

من دلائل الواقعية في التشريع:

ومن دلائل الواقعية في الشريعة الإسلامية: جملة أمور عامة، نَلْمَحُها في أصولها وقواعدها واتجاهاتها الأساسية. مِنْ هذه القواعد أو المبادئ:

1 - التيسير ورفع الحرج.

2 - مراعاة سنة التدرج.

3 - النزول عن المثل الأعلى إلى الواقع الأدنى للضرورة.

التيسير ورفع الحرج:

أما التيسير: فهو روح يسري في جسم الشريعة كلها، كما تسري العصارة في أغصان الشجرة الحية. وهذا التيسير مبني على رعاية ضعف الإنسان، وكثرة أعبائه، وتعدد مشاغله، وضغط الحياة ومتطلباتها عليه. وشارع هذا الدين رءوف رحيم، لا يريد بعباده عنتًا ولا رهقًا، إنما يريد لهم الخير والسعادة، وصلاح الحال والمآل، في المعاش والمعاد.

كما أن هذا الدين لم يجئ لطبقة خاصة، أو لإقليم محدود، أو لعصر معين، بل جاء عامًّا لكل الناس، في كل الأرض، وفي كل الأزمان والأجيال، وأن نظامًا يتسم بهذا التعميم وهذه السعة، لا بد أن يتجه إلى التيسير والتخفيف، ليتَّسِع لكل الناس، وإن اختلف بهم المكان والزمان والحال.

وهذا ما يحسه ويلمسه كل من عرف هذا الدين.

فالقرآن مُيَسَّر للذكر، والعقيدة ميسرة للفهم، كما أن الشريعة ميسرة للتنفيذ والتطبيق. ليس فيها تكليف واحد يتجاوز طاقة المكلفين، كيف وقد أعلن القرآن

هذه الحقيقة في أكثر من آية فقال: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: 286]، ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: 233]، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق: 7]، كما عَلَّمَ المؤمنين أن يدعوا ربهم فيقولوا: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ [البقرة: 286]، وقد ورد في «الصحيح»: «**أن الله استجاب لهم**»[153].

وقد نفى القرآن كل حرج عن هذه الشريعة، كما نفى عنها العنت والعسر، وأثبت لها التخفيف واليسر. قال تعالى وهو يحدثنا عن رخص الصيام، من الفطر للمريض والمسافر: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: 185].

وقال سبحانه في ختام آية الطهارة، بعد أن رخص في التيمم لمن لم يجد الماء: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: 6].

وقال تعالى في أواخر سورة الحج: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: 78].

وفي سورة النساء، بعد إباحة الزواج بالإماء لمن عجز عن الحرائر: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ [النساء: 28].

وفي سورة البقرة، بعد أن شرع العفو في القتل لمن طابت به نفسه: ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: 178].

وجاءت الأحاديث النبوية تؤكد هذا الاتجاه القرآن إلى التيسير، نقرأ فيها:

---

(153) رواه مسلم في «الإيمان» (125)، عن أبي هريرة.

«بعثت بحنيفية سمحة»[154].

«إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين»[155].

«يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا»[156].

وقال لأبي موسى ومعاذ حين أرسلهما إلى اليمن: **«يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا، وتطاوعا ولا تختلفا»**[157].

وقد كانت سِمَة الرسول المميزة له في كتب أهل الكتاب هي: سمة الْمُيسِّر ورافع الآصار والأغلال التي أرهقت أهل الأديان السابقة. كما قال تعالى: ﴿يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: 157].

ومن أدعية القرآن التي علَّمها للمؤمنين: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ [البقرة: 286].

ولا غرو أن شرع الإسلام الرُّخَص عند وجود أسبابها، وذلك كالترخيص في التيمم لمن خاف التضرر باستعمال الماء لجرح أو لبرد شديد، ونحو ذلك، لقوله

---

(154) سبق تخريجه (ص: 168).

(155) رواه البخاري في «الوضوء» (220)، عن أبي هريرة.

(156) متفق عليه: رواه البخاري في «العلم» (69)، ومسلم في «الجهاد والسِّيَر» (1734)، عن أنس.

(157) متفق عليه: رواه البخاري (3038)، ومسلم (2001)، كلاهما في «الجهاد»، عن أبي موسى.

تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: 29]، ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: 195].

وكذلك الترخيص في الصلاة قاعدًا لمن تضرر بالصلاة قائمًا، والصلاة بالإيماء مضطجعًا، مستلقيًا لمن تؤذيه الصلاة قاعدًا.

ومثل ذلك الترخيص في الإفطار للحامل والمرضع، إذا خافتا على أنفسهما أو ولديهما. وكذلك لمن كان مريضًا أو على سفر، ومثله الترخيص للمسافر في القصر والجمع في الصلاة.

وجاء في الحديث: «**إن الله يحب أن تؤتى رخصه، كما يكره أن تؤتى معصيته**»(158).

وأنكر النبي ﷺ، على من شدد على نفسه، وصام في السفر، مع شعوره بشدة المشقة، وحاجته إلى الفطر، فقال في مثله: «**ليس من البر؛ الصيام في السفر**»(159).

ومن هنا أصبح من القواعد الفقهية الأساسية المقررة لدى المذاهب الإسلامية كافة، هذه القاعدة الجليلة: «المشقة تجلب التيسير»، وهي أصل له فروع كثيرة وفيرة في شتى أبواب الفقه. وقد ذكر العلامة ابن نجيم الحنفي في كتابه: «الأشباه والنظائر» أمثلة عديدة مما تقرر في مذهب الحنفية، تفريعًا على هذه القاعدة، أو تأكيدًا لها، لا يتسع المجال هنا لإثباتها، فليرجع إليها من شاء التوسع

---

(158) رواه أحمد (5866)، وقال مخرِّجوه: صحيح، وابن خزيمة في «الصلاة» (950)، وصححه الألباني في «إرواء الغليل» (564)، عن ابن عمر.

(159) متفق عليه: رواه البخاري (1946)، ومسلم (1115)، كلاهما في «الصوم»، عن جابر.

والتفصيل[160].

وهناك أشياء عديدة اعتبرتها الشريعة من أسباب التيسير والتخفيف، منها: المرض، والسفر، والإكراه، والخطأ، والنسيان، وعموم البلوى، ولكل منها أحكام فصلتها كتب الشريعة.

مراعاة سنة التدرج:

ومن تيسير الإسلام على البشر: أنه راعى معهم سنة التدرج فيما يشرعه لهم، إيجابًا أو تحريمًا.

فتجده حين فرض الفرائض كالصلاة والصيام والزكاة، فرضها على مراحل ودرجات حتى انتهت إلى الصورة الأخيرة.

فالصلاة فرضت أول ما فرضت ركعتين ركعتين، ثم أُقِرَّتْ في السفر على هذا العدد، وزيدت في الحضر إلى أربع. أعني الظهر والعصر والعشاء.

والصيام فرض أولًا على التخيير، من شاء صام، ومن شاء أفطر وفدى، أي أطعم مسكينًا عن كل يوم يفطره كما روى ذلك البخاري عن سلمة بن الأكوع، تفسيرًا لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 184]، ثم أصبح الصيام فرضًا لازمًا لكل صحيح مقيم لا عذر له: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: 185].

---

(160) راجع: «الأشباه والنظائر» لابن نجيم (ص: 64) وما بعدها، طبعة دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى (1999م).

والزكاة فرضت أولًا بمكة مطلقة غير محددة ولا مقيدة بنصاب، ومقادير، وحَوْل، بل تُرِكتْ لضمائر المؤمنين، وحاجات الجماعة والأفراد، حتى فرضت الزكاة ذات النُّصُب والمقادير في المدينة.

والمحرمات كذلك، لم يأتِ تحريمها دفعة واحدة، فقد علم الله سبحانه مدى سلطانها على الأنفس، وتغلغلها في الحياة الفردية والاجتماعية.

فليس من الحكمة فطام الناس عنها بأمر مباشر يصدر لهم، إنما الحكمة إعدادهم نفسيًّا وذهنيًّا لتقبُّلها، وأخذهم بقانون التدرج في تحريمها، حتى إذا جاء الأمر الحاسم كانوا سراعًا إلى تنفيذه قائلين: سمعنا وأطعنا.

ولعل أوضح مثل معروف في ذلك هو تحريم الخمر على مراحل معروفة في تاريخ التشريع الإسلامي، حتى إذا نزلت الآيات الحاسمة في النهي عنها من سورة المائدة، وفي ختامها: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: 91]، قال المؤمنون في قوة وتصميم: قد انتهينا يا رب[161].

ولعل رعاية الإسلام للتدرج، هي التي جعلته يبقى على نظام «الرِّق» الذي كان نظامًا سائدًا في العالم كله عند ظهور الإسلام، وكان إلغاؤه يؤدي إلى زلزلة في الحياة الاجتماعية والاقتصادية، فكانت الحكمة في تضييق روافده، بل ردمها كلها ما وُجِدَ إلى ذلك سبيل، وتوسيع مصارفه إلى أقصى حد، فيكون ذلك بمثابة إلغاء للرق بطريق التدرج.

---

(161) رواه أحمد (378)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح، وأبو داود في «الأشربة» (3670)، والترمذي في «التفسير» (3049)، عن عمر بن الخطاب.

وهذه السنة الإلهية في رعاية التدرج، ينبغي أن تُتَّبع في سياسة النـاس، وعنـدما يراد تطبيق نظام الأسرة في الحياة، واستئناف حياة إسلامية متكاملة.

فإذا أردنا أن نقيم «مجتمعًا إسلاميًّا حقيقيًّا»، فلا نُوهِمُ أن ذلك يتحقـق بجـرَّة قلم، أو بقرار يصدر من ملك أو رئيس، أو مجلس قيادة أو برلمان.

إنما يتحقق ذلك بطريق التدرج، أعني بالإعـداد والتهيئـة الفكريـة والنفسـية، والأخلاقية والاجتماعية.

وهو نفس المنهاج الـذي سـلكه النبـي ﷺ لتغيـير الحيـاة الجاهليـة، إلى حيـاة إسلامية، فقد ظل ثلاثة عشر عامًا في مكة، كانت مهمتـه فيهـا تنحصر في تربيـة الجيل المؤمن، الذي يستطيع فيما بعد أن يحمل عـبء الـدعوة، وتكـاليف الجهـاد لحمايتها ونشرها في الآفاق.

ولهذا لم تكن المرحلة المكية مرحلة تشريع وتقنين، بل مرحلة تربية وتكوين.

وكان القرآن نفسه فيها يُعْنَى - قبل كل شيء - بتصـحيح العقيـدة وتثبيتهـا، ومد أشعتها في النفس والحياة، أخلاقًا وأعمالًا صالحة، قبل أن يُعْنَـى بالتشريـعات والتفصيلات.

النزول عن المثل الأعلى في الواقع الأدنى:

ومن دلائل الواقعية في الشريعة: أنها - مع حرصها البالغ على الوصول إلى المثـل الأعلى، والوجه الأكمل في تطبيق أحكامها - لا تغمض عينيها عن الواقع العمـلي الذي يعيشه الناس، محلِّقة في مثالية لا وجود لها، بل نجدها تنـزل إلى أرض الواقـع لتكيف أحكامها الفرعية تبعًا له، حتى لا تهـدر مصـالح العبـاد، وتعطـل مسـيرة الحياة.

ولذلك أمثلة كثيرة:

منها: أن الواجب هو عزل ولي الأمر الفاجر الجائر، ولكن الفقهاء أجازوا الإبقاء عليه إذا كان خلعه وعزله سيؤدي إلى فتنة أكبر، ارتكابًا لأخف الضررين، وتفويتًا لأدنى المصلحتين؛ ولهذا كان من قواعدهم التي أصَّلُوها: الضرر يزال، ولكنهم قيَّدوها بقاعدة: الضرر لا يزال بالضرر، وقاعدة: الضرر الأدنى لا يزال بالضرر الأعلى.

ويدخل في هذا: تغيير المنكر بالقوة إذا أدى إلى منكر أكبر منه.

ومنها: أن الأصل في الشريعة أن تكون الإمامة، أي رئاسة الدولة - بالاختيار والبيعة، تطبيقًا لمبدأ الشورى، ومع هذا أجازت الشريعة إمامة المتغلِّب بالقوة، منعًا للفتنة، وسدًّا لباب الفوضى، وحتى لا تتعطل أمور الناس. وقد قيل: إمام غشوم خير من فتنة تدوم.

ومنها: أن الأصل في كل من الإمام والقاضي أن يكون فقيهًا مجتهدًا قادرًا بنفسه على استنباط الأحكام من أدلتها، ولكن لما غلب التقليد، وسادت المذهبية الضيقة، أجازوا تولية المقلِّد في منصبَي الإمامة والقضاء.

ومن ذلك ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية من صفات يجب أن تتوافر في كل من يلي منصبًا، أو ولاية في دولة الإسلام، حيث ذكر[162]: أن الولاية لها ركنان: القوة والأمانة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص:

---

(162) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (28/ 253)، طبعة مجمع الملك فهد بالمدينة المنورة (1995م).

26].

قال: والقوة في كل ولاية بحسبها، فالقوة في إمارة الحرب ترجع إلى شجاعة القلب، وإلى الخبرة بالحروب والمخادعة فيها - فإن الحرب خدعة، وإلى القدرة على أنواع القتال.

والقوة في الحكم ترجع إلى العمل بالعدل، الذي دل عليه الكتاب والسنة، وإلى القدرة على تنفيذ الأحكام.

والأمانة ترجع إلى خشية الله، وألا يُشترى بآياته ثمنًا قليلًا وترك خشية الناس. وهذه الخصال الثلاث التي اتخذها الله على كل حاكم على الناس، في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًاۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: 44].

هذا هو الوالي أو الموظف الذي تطمح إليه الشريعة الإسلامية، وتهدف إليه التربية الإسلامية، ولكن هل يتوافر القوي الأمين لكل منصب دائمًا؟؟

هنا ينزل الإمام ابن تيمية إلى الواقع فيقول:

«اجتماع القوة والأمانة في الناس قليل؛ ولهذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: «اللهم أشكو إليك جلد الفاجر، وعجز الثقة»، فالواجب في كل ولاية الأصلح بحسبها، فإذا تعين رجلان أحدهما أعظم أمانة، والآخر أعظم قوة، قدم أنفعهما لتلك الولاية، وأقلهما ضررًا فيها، فيقدم في إمارة الحروب الرجل القوي الشجاع، وإن كان في فجور، على الرجل الضعيف العاجز، وإن كان أمينًا، كما سئل الإمام أحمد عن الرجلين يكونان أميرين في الغزو، وأحدهما قوي فاجر والآخر صالح ضعيف، مع أيهما يُغْزَى؟ فقال: أما الفاجر القوي، فقوته للمسلمين، وفجوره على

نفسه، وأما الصالح الضعيف، فصلاحه لنفسه، وضعفه على المسلمين، فيُغْزَى مع القوي الفاجر، وقد قال النبي ﷺ: «**إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر**»[163]، ورُوِي: «**بأقوام لا خَلاق لهم**»[164]، فإن لم يكن فاجرًا، كان أولى بإمارة الحرب ممن هو أصلح منه في الدين، إذا لم يسد مسده»[165].

ومما ذكره ابن تيمية هنا: أن بعض العلماء، سئل: إذا لم يوجد من يُوَلَّى القضاء، إلا عالم فاسق، أو جاهل دَيِّن فأيهما يقدم؟

فأجاب العالم: إن كانت الحاجة إلى الدين أكثر لغلبة الفساد، قُدم الدَّيِّن، وإن كانت الحاجة إلى العلم أكثر، لخفاء الحكومات «القضايا المعروضة» قُدِّم العالِم.

قال: وأكثر العلماء يقدمون ذا الدين[166].

ومن الجميل هنا: أن نجد شيخ الإسلام يقرر هنا أمرًا على غاية من الأهمية، وهو أن النزول عن المثالية المنشودة إلى حكم الواقع الموجود، ليس معناه الاستسلام للواقع الهابط، والرضا به، والسكوت عليه، بل ينبغي أن تظل الأعين رانية والأعناق مشرئبة، والعزائم مشدودة لتحويل الواقع إلى ما هو أمثل وأفضل، فالوضع الطارئ للضرورة، لا يجوز أن يأخذ صفة الاستمرار، وطابع الثبات والدوام، بل يجب التخطيط والإعداد المدروس للانتقال إلى الوضع الطبيعي

---

(163) متفق عليه: رواه البخاري في «الجهاد والسير» (3062)، ومسلم في «الإيمان» (111)، عن أبي هريرة.

(164) رواه أحمد (20454)، وقال مخرِّجوه: صحيح لغيره. وصححه الألباني في «الصحيحة» (1649)، عن أبي بكرة.

(165) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (28/ 254، 255).

(166) المصدر السابق (28/ 259).

والمنطقي للأمة المسلمة، ولو بطريق التدرج.

وفي هذا يقول الشيخ:

«ومع أنه يجوز تولية غير الأهل للضرورة، إذا كان أصلح الموجود، فيجب مع ذلك السعي في إصلاح الأحوال، حتى يكمل في الناس ما لا بد لهم منه، من أمور الولايات والإمارات ونحوها، كما يجب على المعسر السعي في وفاء دينه، وإن كان في الحال لا يُطْلب منه إلا ما يقدر عليه»[167].

وثمة أمور أخرى، وأمثلة عديدة: نلمس فيها واقعية الشريعة، من ذلك ما قرره المحقق ابن القيم في قوله:

«إذا لم يجد السلطان من يُولِّيه، إلا قاضيًا عاريًا عن شروط القضاء، لم يعطِّلِ البلدَ عن قاضٍ، ووَلَّى الأمثل فالأمثل.

ونظير هذا: لو كان الفسق هو الغالب على أهل البلد، وإن لم نقبل شهادة بعضهم على بعض وشهادته له، لتعطلت الحقوق وضاعت، قُبِلت شهادة الأمثل فالأمثل.

ونظير هذا: لو غلب الحرام أو الشبهة حتى لم يجد الحلال المحض، فإنه يتناول الأمثل فالأمثل.

ونظير هذا: لو شهد بعض النساء على بعض بحق في بدن، أو مال، أو عرض وهن منفردات، بحيث لا رجل معهن، كالحمَّامات والأعراس، قُبِلت شهادة الأمثل فالأمثل منهن قطعًا، ولا يُضيِّع اللَّه ورسوله حق المظلوم، ويعطل إقامة دينه

---

(167) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (28/ 254، 255).

في مثل هذه الصور أبدًا، بل نَبَّهَ اللَّه على قبول شهادة الكفار على المسلمين في السفر في الوصية في آخر سورة نزلت، ولم ينسخها شيء ألبتة، ولا نسخ هذا الحكم كتاب ولا سنة، ولا اجتمعت الأمة على خلافه، ولا يليق بالشريعة سِوَاه، فإن الشريعة شُرِعتْ لتحصيل مصالح العباد بحسب الأماكن.

وأي مصلحة لهم في تعطيل حقوقهم، إذا لم يحضر أسباب تلك العقود شاهدان حران، ذكران، عدلان، بل إذا قلتم: تُقبل شهادة الفُسَّاق حيث لا عَدْل، ويُنفَّذ حكم الفاسق إذا خلا الزمان عن قاضٍ عادل عالِم، فكيف لا تقبل شهادة النساء إذا خلا جمعهن عن رجل، أو شهادة العبيد، إذا خلا جمعهم عن حر، أو شهادة الكفار بعضهم على بعض، إذا خلا جمعهم عن مسلم؟[168]

هذا هو الإسلام، وهذه هي واقعيته في كل مجال من المجالات: لا يكلف الناس شططًا، ولا يرهقهم عسرًا، ولا يجعل عليهم حرجًا، يحاول أن يرقى بهم ليصعدوا ويرتفعوا، ولكنه لا يهملهم إذا هبطوا، إنه يريدهم أصحاء أقوياء، ولكنهم إذا مرضوا عالجهم وساعدهم حتى يشفوا وينهضوا.

إنه منهج الفطرة، منهج اللَّه، الذي يتعانق فيه الواقع والمثال.

***

---

(168) «إعلام الموقعين عن رب العالمين» لابن القيم (4/ 151)، طبعة دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى (1991م).

الفصل السادس
الوُضُوح

الوضوح هو إحدى الخصائص العامة للإسلام، سواء فيما يتعلق بالأصول والقواعد، أم بالمصادر والمنابع، أم بالمناهج والوسائل.

وسنحاول بيان ذلك بإيجاز فيما يلي:

أولًا: وضوح الأصول والقواعد الإسلامية:

أول مظاهر الوضوح في الإسلام: أن أصوله ودعائمه الكبرى واضحة بيّنة، لا لزعمائه وقادة الفكر والدعوة إليه فقط، ولا لخاصة المثقفين من أتباعه وأنصاره فحسب، بل لجمهرة المؤمنين به أيًّا كانوا، يستوي في ذلك الأصول الاعتقادية، والشعائر التعبدية، وأمهات الفضائل الكبرى، والأحكام التشريعية.

وضوح الأصول الاعتقادية:

وأول ما يبدو هذا الوضوح في الأصول الاعتقادية في الإسلام من الإيمان بالله ورسالاته، وبالدار الآخرة.

1 - **عقيدة التوحيد:**

فتوحيد الله تعالى - وهو أصل الأصول - لا يجهله مسلم، أيًّا كان جنسه، أو لونه، أو طبقته، أو حظه من التعليم، فقد عرف من كلمة التوحيد، وأُولَى الشهادتين: «لا إله إلا الله»: أن لا مكان في الإسلام لتألِيهِ بشر، أو شيء في الأرض أو في السماء، بل لله مَنْ في السماوات ومن في الأرض، وما في السماوات وما في الأرض. ولهذا كانت رسالة محمد ﷺ إلى ملوك الأرض وزعمائها: ﴿تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ

سَوَآءِۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 64].

إن قضية التثنية في الألوهية – إله الخير والنور، وإله الشر والظلمة – وقضية التثليث في الوثنيات القديمة أو في المسيحية المتأثرة بها «الأب والابن والروح القدس» لا تتمتع واحدة منها بالوضوح لدى المؤمنين بها، ولهذا تعتمد على الإيمان بغير برهان «اعتقد وأنت أعمى» أو «أغمض عينيك ثم اتبعني»!

بخلاف قضية التوحيد فهي تستند إلى العقل، وتعتمد على البرهان، يقول القرآن للمشركين: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [النمل: 64].

ويقيم الأدلة على الوحدانية بمثل قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: 22]، ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: 91].

فالتوحيد في حد ذاته قضية واضحة في ضمير كل مسلم، ودليلها أيضًا واضح في فكره، كما أن أثرها كذلك واضح في حياته. كيف لا، وهو يستقبل الحياة بالتوحيد، حيث يُسَنُّ أن يؤذِّن أبوه أو وليه في أذنيه(169). كما يودِّعُ الحياة

---

(169) إشارة إلى الحديث: «أن النبي ﷺ أذن في أذني الحسن حين ولدته فاطمة بالصلاة»، رواه أحمد (23869)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف، وأبو داود في «الأدب» (5105)، والترمذي في «الأضاحي» (1514)، وقال: حسن صحيح، وحسنه الألباني في «إرواء الغليل» (1173)، عن أبي رافع.

بالتوحيد، حيث يسن أن يلقن المحتضر: لا إله إلا الله[170].

2 - **عقيدة الجزاء الأخروي:**

والإيمان بالجزاء في اليوم الآخر، أن الدنيا مزرعة الآخرة، وأنها دار ممر ومتاع إلى حين، وأن الآخرة هي دار القرار، ودار الجزاء، فيها تُوفَّى كل نفس ما كسبت، وتُجْزَى بما عملت: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ 7 وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: 7، 8].

والإيمان: بأن هناك دارًا لمثوبة الأبرار، فيها – من النعيم المادي والروحي – ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: 17]، وهذه هي الجنة.

ودارًا أخرى لعقوبة الفجار، فيها – من العذاب الحسي والمعنوي – ما لا يقدر عليه إلا الله، وهذه هي النار، التي أُعِدَّتْ للكافرين، وحذر الله منها عباده المؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: 6].

ومعنى هذا: أن مصير كل إنسان ليس بيد كاهن أو قديس، إنما مصير الناس بأيديهم أنفسهم، حسبما تشهد لهم صحائفهم، وتحكم لهم أو عليهم موازينهم: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ 102 وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: 102، 103].

هذا الإيمان أصل أصيل، لا يخفى على مسلم في شرق أو غرب.

---

(170) رواه مسلم «الجنائز» (916)، عن أبي سعيد الخدري.

3 - **الإيمان برسالات السماء:**

والإيمان برسالات السماء كلها، وما أنزل الله من كتب، وما بعث من رسل، يهدون إلى الحق، ويدعون إلى الخير، ويأخذون بأيدي الناس إلى الله، ويدلُّونهم على طريق مرضاته، ويضعون لهم قواعد العدل، وضوابط السلوك، لتستبين لهم الغاية، ويتضح لهم السبيل، ولا يكون لأحد عذر في الضلال والانحراف: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: 165]، ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ [الحديد: 25].

وقد بعث الله في كل أمة رسولًا هاديًا، وختمهم بمحمد ﷺ الذي بعثه الله ليتمم به مكارم الأخلاق، وجعل أمته خير أمة أخرجت للناس، وميز رسالته بالعموم والخلود والصلاحية لكل زمان ومكان، وأنزل عليه كتابًا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ... هذا أصل ثالث لا ريب فيه، ولا خلاف عليه.

هذا الإيمان برسل الله كافة، ركن من أركان العقيدة الإسلامية، لا يجهله مسلم، شأنه شأن الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه، وباليوم الآخر.

وقضية النبوة والرسالة في ذهن المسلم وشعوره: واضحة متميزة تمامًا عن قضية الربوبية والألوهية. فالرسل ليسوا إلا بشرًا مثلنا ميزهم الله بالوحي، وليسوا آلهة ولا أبناء آلهة: ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة: 75]، ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ﴾ [آل عمران: 144]، ﴿قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَمَا كَانَ

لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: 11].

هذا الوضوح المشرق في العقيدة الإسلامية بالنظر إلى الأنبياء عامة وإلى محمد خاصة، يقابله غموض مُطْبِق في العقائد الأخرى، وأبرزها: المسيحية التي لم يتضح لأتباعها حقيقة المسيح: ما هي؟حتى إنهم عقدوا المجامع تِلْو المجامع للبحث في طبيعة المسيح ما هي؟ أهو إله؟ أم ابن إله؟ أم بشر خالص؟ أم بشر حل فيه الإله؟ أم جزء من أقانيم ثلاثة يتكون منها الإله: هي الأب والابن والروح القدس؟ والروح القدس نفسه اختلفوا في ما هو؟ وما علاقته بالأقنومين الآخرين؟ وأُمُّ المسيح التي ولدته، ما هي أيضًا؟ وما نصيبها من اللاهوت والناسوت أو الإلهية والبشرية؟

كل هذه الأسئلة وغيرها: كانت مجالًا للبحث والجدل، والاختلاف والتفرق، بحيث نشأت حولها فرق وطوائف يكفر بعضها بعضًا، ويلعن بعضها بعضًا، حتى أصبحت وكأنها أديان متباعدة لا نِحَل في دين واحد.

وضوح الشعائر التعبدية:

ومن مظاهر الوضوح في الإسلام أن أركانه العملية، وشعائره التعبدية: واضحة للخاص والعام، ويكاد كل المسلمين – حتى صبيانهم – يحفظون الحديث النبوي المشهور المتفق عليه: «**بني الإسلام على خمسٍ: شهادةِ أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقامِ الصلاة، وإيتاءِ الزكاة، والحجِّ، وصوم رمضان**»[171].

فالصلاة – وهي الفريضة اليومية – معروفة بعددها، خمس صلوات في اليوم

(171) متفق عليه: رواه البخاري (8)، ومسلم (16)، كلاهما في «الإيمان»، عن ابن عمر.

والليلة – ومواقيتها وأعداد ركعاتها، وأركانها، وشروطها، ومجمل هيئاتها من بدء افتتاحها بالتكبير إلى اختتامها بالتسليم، ثم ما وراء هذه الفرائض من نوافل ومكملات في الليل والنهار، وما شرع لها من أذان متميز، وجماعة يزداد ثوابها كلما كثر أفرادها، لتعمر بها بيوت أَذِنَ اللَّه أن ترفع ويذكر فيها اسمه.

والزكاة – وهي العبادة المالية الاجتماعية – معروفة إجماليًّا لكافة المسلمين، فهي تؤخذ من أغنيائهم لترد على فقرائهم، فلا تجب إلا على من يملك النصاب بشروطه، وهي طُهرة للنفس والمال. وهي تجب في المال بحسب نوعه، ما بين العُشْر ونصف العُشْر. وهي تجب في كل حَوْلٍ مرة، في غير الزروع والثمار التي تجب زكاتها عند الحصاد.

وصيام رمضان – وهو الفريضة السنوية الدورية – معلوم لكل الأمة الإسلامية، زمنه معلوم، فهو شهر قمري محدد البداية والنهاية، ووقت الصيام كل يوم معلوم، من تبين الفجر إلى غروب الشمس. ونوع الصيام معلوم، فهو إمساك عن الأكل والشرب ومباشرة النساء «أي: عن شهوتي البطن والفرج».

وآداب الصيام ومكملاته معلومة: من تعجيل الفطر، وتأخير السحور، والكفِّ عن اللغو والرفث، والحرص على قيام الليل، والإكثار من الطاعات، والإحسان إلى الناس.

والشعيرة الرابعة حج البيت، وهي فريضة العمر – واضحة معلومة إجمالًا لجماهير المسلمين، لا يجهل أحد فيهم ركنية هذه الفريضة للدين، وأن مكانها مكة المكرمة. وأن الحاج لا بد له من الإحرام والطواف ببيت اللَّه الحرام، والسعي بين الصفا والمروة. والوقوف بعرفات، والمبيت بمزدلفة ومنى، ورمي الجمار والحلق أو

التقصير.

فهذه الفرائض الدينية، والشعائر التعبدية، واضحة تمام الوضوح في ذهن المسلم بتركيز وإجمال، فإذا أراد التفصيل، فما عليه إلا أن يحضر بعض الدروس، أو يقرأ شيئًا من الكتب، أو يسأل أهل الذكر! وكل ذلك ميسور غير معسور.

وقبل ذلك كله لا يجهل مسلم أن العبادة هي المهمة الأولى للإنسان في الحياة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56]، وأن روح العبادة: هو النية والإخلاص لا مجرد الشكل والرسم: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: 5].

الأصول الأخلاقية:

ومن الأصول الإسلامية الواضحة: ما يتعلق بالجانب الأخلاقي، فأمهات الفضائل التي أمر الشرع بها، وحث عليها، معروفة غير منكورة، وأمهات الرذائل التي حذر الشرع منها، ونهى عنها، معلومة غير مجهولة.

لا يجهل مسلم أن الله يأمر بالعدل والإحسان بالوالدين وبذي القربى، واليتامى والمساكين، والجار ذي القربى، والجار الجنب، والصاحب بالجنب، وابن السبيل.

ولا يجهل مسلم أن الإسلام يبارك فضائل الصدق والأمانة، والوفاء والصبر، والعفاف والحياء، والسخاء والشجاعة، والحلم والإيثار، والتعاون على البر والتقوى.

ولا يجهل مسلم أن الله ينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، ولا يحب الفساد، ولا يحب الخائنين، وأن آية المنافق إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن

خان[172]. وأن من الكبائر الموبقات: أكل الربا، وأكل مال اليتيم[173].

ولا يجهل مسلم شناعة الجرائم التي فرض اللَّه الحدود عقوبةً عليها، مثل: قتل النفس عمدًا، والسعي في الأرض فسادًا بقطع الطريق وترويع الآمنين، والسرقة، والزنا، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات، وشرب الخمر.

وقبل ذلك كله، لا يجهل مسلم قيمة العنصر الأخلاقي في الحياة، ومنزلته في الإسلام، حتى إن العبادات الإسلامية تهدف إلى ثمرات أخلاقية، فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، والزكاة التي تؤخذ من الأغنياء: تطهرهم وتزكيهم، والصوم تربية للإرادة، وتعليم الصبر: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 187]. والحج تدريب على التحمل والبذل.

حتى إن الرسول الكريم ﷺ لَيُعْلِن عن أهمية الأخلاق في رسالته فيقول: «**إنما بُعثتُ لأتمم صالح الأخلاق**»[174].

وضوح الآداب:

ويتبع الأخلاقَ الآدابُ في وضوحها: أدبُ الأكل والشرب، أدب النوم والتيقظ، أدب اللباس والزينة، أدب الجلوس، أدب المشي، أدب الزيارة والاستئذان، أدب التحية واللقاء، أدب الحديث، إلى غير ذلك من الآداب.

---

(172) متفق عليه: رواه البخاري (33)، ومسلم (59)، كلاهما في «الإيمان»، عن أبي هريرة.

(173) إشارة إلى الحديث المتفق عليه: «**اجتنبوا السبع الموبقات ... وأكل الربا، وأكل مال اليتيم**»، رواه البخاري في «الوصايا» (2766)، ومسلم في «الإيمان» (89)، عن أبي هريرة.

(174) رواه أحمد (8952)، وقال مخرّجوه: صحيح، والبخاري في «الأدب المفرد»، في «حسن الخلق» (273)، والحاكم في «تواريخ المتقدمين» (2/ 613)، وقال: على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في «الصحيحة» (45)، عن أبي هريرة.

فأسس هذه الآداب، وأصولها الهامة واضحة معلومة.

فكل مسلم يعلم أنه يجب عليه عند الأكل أن يأكل بيمينه، ويبدأ باسم الله[175]، ويختم بالحمد لله[176].

وأنه ينبغي أن ينام على ذكر الله[177]، ويستيقظ على ذكر الله[178].

وأنه لا يجوز للرجل لبس الحرير[179]، ولا أن يلبس لُبْسة المرأة، ولا للمرأة أن تلبس لُبْسة الرجل[180]. ومن هنا يستطيع المسلمان أن يتعارفا بكل يسر إذا التقيا

---

(175) إشارة إلى الحديث المتفق عليه: «**يا غلام، سمِّ الله، وكل بيمينك** ... .»، رواه البخاري في «الأطعمة» (5376)، ومسلم في «الأشربة» (2022)، عن عمر بن أبي سلمة.

(176) إشارة إلى الحديث: أن النبي ﷺ كان إذا رفع مائدته قال: «**الحمد لله كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، غير مَكْفِيٍّ ولا مُودَّع، ولا مُستغنًى عنه، ربَّنا**». رواه البخاري في «الأطعمة» (5458)، عن أبي أمامة.

(177) إشارة إلى الحديث المتفق عليه: «أن رسول الله ﷺ، كان إذا أخذ مضجعه، نفث في يديه، وقرأ بالمعوذات ... .» رواه البخاري في «الدعوات» (6319)، ومسلم في «السلام» (2192)، عن عائشة.

(178) إشارة إلى الحديث: إذا استيقظ، قال: «**الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا، وإليه النشور**»، رواه البخاري في «الدعوات» (6314)، عن حذيفة.

(179) إشارة إلى الحديث: إن نبي الله ﷺ، أخذ حريرًا فجعله في يمينه ... ثم قال: «**إن هذين حرام على ذكور أمتي**»، رواه أبو داود في «اللباس» (4057)، والنسائي في «الزينة» (5144)، وصحح إسناده النووي في «رياض الصالحين» (806)، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (4394)، عن عليّ بن أبي طالب.

(180) إشارة إلى الحديث: «لعن رسول الله ﷺ الرجل يلبس لُبْسة المرأة، والمرأة تلبس لُبْسة الرجل». رواه أحمد (8309)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، وأبو داود في «اللباس» (4098)، وصحح إسناده النووي في «رياض الصالحين» (1632)، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (4469)، عن أبي هريرة.

دون أن يُعرِّف كل منهما بنفسه، ويستطيع غير المسلم أن يعرف المسلمين من غيرهم لأول وهلة، بمجرد إلقاء التحية «السلام عليكم» أو ردها «وعليكم السلام» أو الأكل باليمين، أو «الحمد لله» عند العطاس، أو تشميت العاطس، ونحو ذلك مما يكشف عن شخصية المسلم.

وضوح الشرائع الإسلامية:

ومن مظاهر الوضوح في الإسلام: وضوح شرائعه وقوانينه، أعني الأساسية القطعية منها، سواء في المجال الفردي أم الأسري أم الاجتماعي.

فكل مسلم يعلم بوضوح أنه يَحْرُمُ عليه أكل الميتة والدم ولحم الخنزير، وما أُهل لغير الله به(181). كما يَحْرُمُ عليه شرب الخمر، ولعب الميسر(182).

وكل مسلم يعلم أنه لا يحل له الزواج من أمّه، أو بنته، أو إحدى محارمه من النسب، أو الرضاع، أو المصاهرة(183).

ويعلم أنه يحل له الطلاق والمراجعة مرتين(184)، ثم لا تحل له المطلقة من بعدُ حتى تنكح زوجًا غيره(185). وأن كل امرأة لا بد أن تعتدَّ، إذا فارقت زوجها

---

(181) قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [المائدة: 3].

(182) قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: 90].

(183) قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ . . . .﴾ الآية [النساء: 23]، وقال ﷺ: «يَحْرُم من الرضاع: ما يَحْرُم من النسب»، والحديث: متفق عليه: رواه البخاري في «الشهادات» (2645)، ومسلم في «الرضاع» (1447)، عن ابن عباس.

(184) قال تعالى: ﴿ٱلطَّلَـٰقُ مَرَّتَانِ﴾ [البقرة: 229].

(185) قال تعالى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ [البقرة: 230].

بطلاق أو وفاة(186).

وكل مسلم يعلم أن الله قد أحل البيع وحرم الربا(187)، وأنه شرع القصاص من القاتل المتعمد(188)، كما شرع الحدود والعقوبات المقدرة بالنص في مواضع معروفة، على جرائم معلومة، هي السرقة، والزنا، والقذف، وقطع الطريق، والسُّكْر.

وكل مسلم يعلم أن تحرير أرض الإسلام من الأعداء فريضة، وأن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر: واجب، وأن مَنْ حكم بغير ما أنزل الله: يوصف بالكفر والظلم والفسوق(189).

ثانيًا: وضوح مصادره:

ومن مظاهر الوضوح في النظام الإسلامي: أن له مصادر محددة بينة، تُستقى منها فلسفته النظرية، وتشريعاته العملية.

فالمصدر الأول: هو كتاب الله:

وهو القرآن الذي: ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود:

(186) قال تعالى عن المطلقات: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة: 228]، وقال عن المتوفَّ عنها زوجها: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: 234].

(187) قال تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ [البقرة: 275].

(188) قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: 179].

(189) قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: 44]، وقال: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: 45]، وقال: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: 47].

1].

ومن خصائص هذا القرآن أنه «كتاب مُبِين» حتى إن منزله – سبحانه – سمَّاه: «نورًا»، و«هدى للناس»، و«فرقانًا»، و«برهانًا»، و«بينة». وما ذلك إلا لشدة بيانه ووضوحه. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾ [النساء: 174]، وخاطب أهل الكتاب بقوله: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ 15 يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [المائدة: 15، 16]، وخاطب الرسول المنزل عليه هذا القرآن بقوله: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [النحل: 89].

وإذا كان في هذا الكتاب آيات متشابهات تحتمل أكثر من فَهْم، بحكم طبيعة اللغة، وتنوع دلالات الألفاظ فيها بين الحقيقة والمجاز بأنواعه، وبمقتضى طبيعة البشر، وما جبلوا عليه من تفاوت في الفهم والاستنباط، وبموجب طبيعة الإسلام الذي يحث على الاجتهاد، واستعمال العقول، ولا يَضِيق بالخلاف، إذا لم يؤد إلى عصبية أو تفرق – فإن هذه الآيات ليست شيئًا كثيرًا، إذا قيست إلى الآيات المحكمات «الواضحات الدلالة أو القاطعات» فهن – كما ذكر القرآن نفسه – «أمُّ الكتاب» أي أصله ومعظمه، وإليها ترد المتشابهات، فيصدق بعض الكتاب بعضًا، ولا يضرب بعضه ببعض، شأن الذين يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله.

ومن نعمة الله، أن ليس في الدنيا كتاب توفرت على فهمه وتفسيره كبار العقول، في مختلف الأعصار والأمصار، من شتى الثقافات والمعارف، مثلما يسَّر الله للقرآن العظيم.

والمصدر الثاني: سنة محمد ﷺ:

ونعني بها ما ثبت عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير، فهذه السنة هي الشرح النظري، والتطبيق العملي، للقرآن الكريم، فأعظم تفسير لكتاب الله يتجلى في سيرة رسول الله ﷺ وفي حياته الحافلة، وسنته الشاملة، حتى تستطيع أن تقول عنه: إنه قرآن متحرك يمشي على قدمين! قالت فيه زوجه عائشة: «كان خلقه القرآن»(190).

وحسبنا قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: 44].

وقوله سبحانه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 21].

ومما يلحق بهذه السنة المحمدية: سنة الخلفاء الراشدين المهديين بعد محمد ﷺ الذين نَشَأوا في حجر النبوة - ونهلوا من معين الرسالة، وكانوا في حياتهم امتدادًا لرسولهم ومعلمهم ﷺ، فما أُثِر عنهم، مما اتفقوا عليه جميعهم، أو عن طائفة منهم، ولم ينكره عليهم أصحابهم، فهو سنة، بها يقتدى فيهتدى، كما جاء في الحديث: **«عليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، وعضُّوا عليها بالنواجذ»**(191).

---

(190) رواه مسلم في «صلاة المسافرين» (746)، وأحمد (24601)، عن عائشة.

(191) رواه أحمد (1714)، وقال مخرِّجوه: صحيح بطرقه وشواهده، وأبو داود في «السنة» (4607)، والترمذي في «العلم» (2676)، وقال: حسن صحيح، وابن ماجه في «المقدمة» (42)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (937)، عن العرباض بن سارية.

وما عدا ذلك: فكل واحد يؤخذ من كلامه ويترك، لا عصمة لمجتهد، وإن علا كعبه في العلم والتقوى، وهو – على أي الحالين: أصاب أو أخطأ – غير محروم من الأجر، إن أصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر، وقد عقب القرآن على حكم داود وسليمان في غنم القوم بقوله: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: 79]، فاختص بالفهم أحدهما، ووصف بالحكم والعلم كليهما.

ثالثًا: وضوح الأهداف والغايات:

ومن مظاهر الوضوح في نظام الإسلام: وضوح الأهداف والغايات، فغاية الإسلام كله: واضحة أمام عيني كل مسلم، يكفي أن يقرأ المسلم هذه الآية من كتاب ربه، فيعرف بإجمال وتركيز تلك الغاية الكريمة، حيث يقول تعالى مخاطبًا رسوله في شأن القرآن: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: 1].

غاية الإسلام بإجمال: هي إخراج الناس من الظلمات إلى النور، وفَسِّرِ الظلمات بما شئت من الجهل أو الشرك، أو الشك أو الظلم، أو الحقد أو غير ذلك، فلا حرج عليك، فكلها ظلمات، تُظْلِمُ بها النفسُ، وتُظْلِمُ بها الحياة معًا.

وفَسِّرِ النور بما شئت من العلم أو التوحيد، أو اليقين أو العدل أو الحب، أو غير ذلك، فلا حرج عليك، فكله نور، تضيء به النفس، وتضيء به الحياة أيضًا.

ورحم الله رِبْعي بن عامر العربي المسلم، الذي وعى هذه الغاية وتمثَّلها في ضميره، ثم عبر عنها أمام القائد الفارسي رستم، فأوجز وأبلغ، وأحسن كل الإحسان، حين سأله رستم: من أنتم؟ فأجابه بقوله: نحن قوم ابتعثنا الله لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن

جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام[192].

ويكفي أن يكون المسلم على شيء من الفقه في دينه، ليعلم أنه يهدف إلى تكوين الفرد الصالح، والأسرة الصالحة، والأمة الصالحة.

تكوين الفرد الصالح:

والفرد هو اللَّبِنة، التي يتكون منها البناء الاجتماعي كله؛ ولهذا اشتدت عناية الإسلام به في كل مراحل حياته، ولم يبخل عليه بالتشريع ولا التوجيه؛ لأنه هو أساس الأسرة والمجتمع.

فإذا صلح الأفراد صلحت الأُسر، وإذا صلحت الأُسر صلحت الجماعات والأمم.

وصلاح الإنسان الفرد في نظر الإسلام لا يتم إلا بأمور أربعة، اعتبرها القرآن شروطَ النجاة من الخسران والهلاك في الدنيا والآخرة، وهي التي تضمنتها سورة وجيزة من أقصر سور القرآن، يحفظها الصغار والكبار، والمتعلمون والأميون، وهي سورة العصر، التي يقول الله فيها: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ 1 إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ 2 إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [العصر: 1 – 3].

فالشرط الأول لصلاح الفرد – وهو الذي يمثل أساس البناء كله – هو الإيمان، الذي يصح به تصور الإنسان لنفسه، وللكون وللحياة، ولرب الكون والحياة والإنسان، فإن هذا التصور إذا فسد؛ فسدت الحياة كلها من ورائه، فَسَدَ العملُ، وفسد الخلق، وفسدت العلاقات.

(192) رواه الطبري في «تاريخه» (2/ 401).

إن صحَّة هذا التصور: هي التي تُعرِّف الإنسان بسر وجوده، وغاية حياته، وما وراء حياته، فيؤمن أنه ليس ذرةً تافهة، ولا هباءةً ضائعة، وإنما هو مخلوق مكرم، يعيش لغاية كبرى هي: خلافة الله في الدنيا، ورضوانه وجنته في الآخرة.

والشرط الثاني: هو عمل الصالحات، فهذا هو ثمرة الإيمان، ومظهره العملي، فالإيمان ليس مجرد إدراك ذهني، أو انفعال عاطفي، إنما هو حقيقة مشتركة من المعرفة والانفعال والنزوع، تدفع بالإنسان إلى عمل الخير، وترك الشر.

ولم يحدد القرآن «الصالحات» بشيء معين، أو صورة خاصة، بل تركها هكذا لتشمل كل ما يصلح به الإنسان بدنيًّا ونفسيًّا، فرديًّا واجتماعيًّا، وكل ما تصلح به الحياة، ماديًّا وروحيًّا، حضاريًّا وأخلاقيًّا، من عبادات ومعاملات وآداب وأخلاق.

والشرط الثالث: هو التواصي بالحق، وصيغة «التواصي» تدل على تفاعل من طرفين. ومعنى هذا أن يوصي المؤمن غيره بالحق، ويقبل منه الوصية بالحق، وهذا يعطينا أن القرآن لا يتصور المؤمنَ إلا في مجتمع يأخذ منه ويعطيه، ولا يتصوره راهبًا في صومعة، أو منقطعًا في فلاة.

وبهذا لا يكتفي القرآن من المسلم أن يكون صالحًا في نفسه، سليم العقيدة صحيح العبادة، حسن المعاشرة: ثم يدع الحق مغلوبًا، والباطل غالبًا، والمعروف ضائعًا، والمنكر ظاهرًا قاهرًا، وهو لا يحرك ساكنًا، ولا ينطق صامتًا، ولا يبذل جهدًا، إن المسلم لا بد أن يعيش جنديًّا للحق، يؤمن به ويحبه، وينصره ويدعو إليه، وهذا أساس فرضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الإسلام.

والشرط الرابع: لازم للشرط الثالث، وهو التواصي بالصبر، فإن الذي يحمل

رسالة الحق، يحتاج حتمًا إلى الصبر، يوصي به نفسه، ويوصي به غيره، ويوصيه به مثلُه، ممن آمن بمثل ما آمن به. صاحب الحق لا بد أن يُؤذَى، فلا بد أن يوطِّن نفسه على الصبر، ولهذا قال لقمان لابنه وهو يعظه: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [لقمان: 17].

وهذه الأمور الأربعة - التي يصلح بها الفرد - واضحة بحمد الله، وضوح «سورة العصر» لدى كل مسلم.

ليس الفرد الصالح في الإسلام إذن: هو الذي يعتزل الحياة في صومعة، يعْمُر الآخرة بخراب الدنيا، ولكنه الذي يعمل للحياتين، ويجمع بين الحسنيين: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ﴾ [البقرة: 201].

فمن التفت إلى الآخرة وحدها، ولم يعطِ للدنيا حقها، وقد استخلفه الله فيها وأمره بعمارتها: ﴿إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ﴾ [البقرة: 30]، ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ [هود: 61]، فقد جار على دنياه، وظلم نفسه حقها. وقد جاء في الحديث: «**إن لزوجك عليك حقًّا، ولجسدك عليك حقًّا** ...»[193]. وقال تعالى: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِ﴾ [الأعراف: 32].

ومن جعل الدنيا أكبر همه، ومبلغ علمه، ومحور تفكيره وشعوره وسلوكه، فقد ظلم آخرته وبخس نفسه، وغفل عن مصيره، بل عن سر وجوده، وحق عليه قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ 37 وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا 38 فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ [النازعات:

---

(193) متفق عليه: رواه البخاري (1975)، ومسلم (1159)، كلاهما في «الصيام»، عن عبد الله بن عمرو.

37 – 39].

ولا ريب أن غايات الناس تختلف اختلافًا كبيرًا، وتتفاوت تفاوتًا بيّنًا، بحسب ما تهبط بهم شهواتهم الدنيا، أو ترتقي بهم خصائصها العليا.

ولو تُرِكَ الناسُ لغرائزهم وحدها: لنزلتْ بهم إلى حضيض الأنعام، أو كانوا أضل سبيلًا، ولكن مهمة الدين أن يرقى بهم إلى أفق الملائكة ... وأن يصل بهم صعودًا – على مدارج التقوى – إلى جنات ونهر، في مقعد صدق عند مليك مقتدر، ورضوان من الله أكبر، يقول الله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ 14 ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: 14، 15].

تكوين الأسرة الصالحة:

ويهدف الإسلام كذلك إلى تكوين الأسرة الصالحة السعيدة.

والأسرة الصالحة هي التي تُظلِّلُها المعاني التي جعلها القرآن الكريم أهداف الحياة الزوجية وثمرتها، وهي السكون النفسي، والمودة والرحمة. قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: 21].

وقال تعالى في تصوير العلاقة بين الأزواج والزوجات: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: 187]، وكلمة اللباس هذه تحمل من معاني: الوقاية والستر، والزينة والدفء، والقرب والالتصاق، ما لا يخفى.

والأسرة الصالحة هي التي تقوم على الدعائم الآتية:

1 - أن يتم الزواج على التراضي، دون ضغط، ولا إكراه، ولا غش من طرف لآخر.

2 - تبادل الحقوق والواجبات بين الزوجين بالمعروف: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: 228].

3 - إيجاب المعاشرة بالمعروف دائمًا، وخاصة عند الإحساس بعاطفة الكراهية أو النفرة.

قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 19].

4 - تكليف الزوج القوامة والإشراف والمسئولية عن الأسرة: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: 228]، ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء: 34].

5 - تكليف الزوجة الإشراف والمسئولية عن البيت من الداخل: «**كلكم راعٍ، ومسئول عن رعيته ... والرجل في أهله راع، وهو مسئول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها راعية، وهي مسئولة عن رعيتها**»(194).

6 - وجوب الرعاية من الأبوين لأولادهما، والعدل بينهم: «**رحم الله والدًا أعان ولده على بره**»(195)، «**اتقوا الله، واعدلوا بين أولادكم**»(196).

---

(194) سبق تخريجه (ص: 150).

(195) رواه ابن أبي شيبة في «الأدب» (25924)، وضعفه الألباني في «الضعيفة» (1946)، عن الشعبي مرسلًا.

7 – وجوب بر الوالدين، والإحسان بهما عامة، وبالأم خاصة: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان: 14].

تكوين المجتمع الصالح:

ويهدف الإسلام إلى تكوين المجتمع الصالح، كما هدف إلى الفرد الصالح، والأسرة الصالحة، وهما – ولا شك – أساس متين لصلاح المجتمع المنشود.

والمجتمع الصالح: هو الذي ترتبط أفراده وأسره بقيم الإسلام العليا، ومبادئه المثلى، ويجعلها رسالة حياته، ومحور وجوده.

وأهم القيم الإسلامية في هذ المقام هي:

1 – التجمع على العقيدة: فالمجتمع الإسلامي ليس مجتمعًا قوميًّا أو إقليميًّا، وإنما هو مجتمع عقائدي، مجتمعُ فكرةٍ وعقيدة، وعقيدته هي الإسلام، فهو الأساس «الأيديولوجي» لهذا المجتمع.

قد يكون أبناء هذا المجتمع من أجناس مختلفة، أو ألوان مختلفة، أو أوطان مختلفة، أو السنة مختلفة، أو طبقات مختلفة، ولكن هذا الاختلاف كله يذوب وينصهر أمام وحدة العقيدة، أمام «لا إله إلا الله – محمد رسول الله». أمام الإيمان المشترك الذي يضم الجميع في رحاب أخوَّته: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: 10].

---

(196) متفق عليه: رواه البخاري (2587)، ومسلم (1623)، كلاهما في «الهبة»، عن النعمان بن بشير.

فإذا أردنا أن نصف هذا المجتمع بصفة فذة تميزه عما سواه، لم نجد إلا أن نقول: إنه «مجتمع مؤمن»، أو هو «مجتمع المؤمنين» أولئك الذين وصفهم الله تعالى في مطلع سورة البقرة بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ 3 وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ 4 أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة: 3 – 5].

والإيمان الإسلامي ليس مجرد شعار أو دعوى، أو تعصب على الآخرين، وإنما هو حقيقة تستقر في النفس، ينبثق عنها سلوك، ويُصدِّقها عمل إيجابي.

ومن هنا جاء الاهتمام بقيمة أخرى من القيم التي يقوم عليها المجتمع الصالح، الذي يهدف الإسلام إلى تحقيقه، وهي:

2 – «احترام العمل الصالح» بل تقديسه – سواء كانت صبغته دينية كالصلاة والصيام والحج والعمرة، والذكر والتلاوة والدعاء ... أم دنيوية، كالسعي في طلب الرزق، وعمارة الأرض، ومنفعة الناس، والإحسان إليهم، هو كذلك أصل مقرر معروف، اعتبره القرآن ركنًا في كل دين، مقرونًا بالإيمان بالله واليوم الآخر. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [البقرة: 62].

وقرن القرآن العمل بالإيمان في أكثر من سبعين آية، في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: 30].

ولا ريب أن إقامة شعائر الله، وأداء فرائضه الكبرى – من إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وحج البيت، هي أول ما ينطبق عليه معنى العمل

الصالح. فليس هناك عمل أصلح للمخلوق من معرفة خالقه، وعبادة ربه، وإخلاص الدين له، شكرًا لنعمته، ووفاءً بحق ربوبيته.

3 - والدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أصل بيّن من أصول هذا الدين، فليس يكفي - في منطق الإسلام - أن يكون المرء صالحًا في خاصة نفسه، غافلًا عن فساد غيره، بل الصالح عند حقًّا: مَنْ أصلح نفسه، وحاول إصلاح غيره، ولو بالدعوة والأمر والنهي. كما قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 104]، وبهذه الخصيصة ترجحت الأمة المسلمة على سائر الأمم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 110].

ومن هنا سجل القرآن لعنة الله لبني إسرائيل - على لسان داود وعيسى ابن مريم - لسكوتهم على المنكر، وعدم تناهيهم عنه: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ 78 كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: 78، 79].

4 - والجهاد في سبيل الله - حماية للحق، وتثبيتًا للخير، وتأمينًا للدعوة، ومنعًا للفتنة، وصدًّا للمُغِيرين، وتأديبًا للناكثين، وإنقاذًا للمستضعفين - أصلٌ إسلامي لا ينكره مسلم، ولا يجهل منزلته وفضله، وما أعد الله لأهله، فضلًا عن مشروعيته، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ 38 إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة: 38، 39].

وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ [النساء: 71]، ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: 60].

5 - وتثبيت الفضائل الخلقية كلها في شتى جوانب الحياة ونشرها وحمايتها - من العدل والإحسان، والبر والصلة، والتعاون على البر والتقوى، واحترام النظام، والصدق والعفاف، ورعاية الأمانة، والوفاء بالعهد، والإخلاص في السر والعلانية، وقول الحق في الغضب والرضا، والقصد في الفقر والغنى، والصبر في البأساء والضراء وحين البأس، وكف اليدين واللسان عن إيذاء الناس، وطهارة القلب من الغل والحسد، والرياء والنفاق، وحب الدنيا، وسائر أمراض النفوس - كلها من الركائز المعنوية، التي لا يقوم مجتمع مسلم إلا عليها.

رابعًا: وضوح المناهج والطرق:

ويتميز الإسلام كذلك بوضوح مناهجه وطرقه التي وضعها للوصول إلى غاياته المثلى، وأهدافه العليا:

1 - من عبادات وشعائر تغذي الروح، وتزكي النفس، وتربي الإرادة، وتوحّد الاتجاه، وتدرب الإنسان على كمال العبودية لربه الأعلى، الذي خلق فسوى، والذي قدر فهدى.

وهي عبادات محددة: لا تقبل الابتداع، ميسرة: لا تقبل التزمت، معتدلة: لا تقبل التطرف، عميقة: تهتم بالجوهر قبل المظهر.

وعلى رأس هذه العبادات: الشعائر الكبرى من الصلاة والزكاة والصيام والحج. وقد نوع الإسلام فيها، فبعضها بدني كالصلاة والصيام، وبعضها مالي كالزكاة، وبعضها يجمع بينهما كالحج والعمرة.

ومن هذه العبادات ما يتكرر كل يوم كالصلاة، ومنها ما يتكرر كل سنة كالصيام والزكاة، ومنها ما لا يفرض في العُمْر إلا مرة واحدة كالحج.

ومن هذه العبادات: ما هو فعل إيجابي كالصلاة والزكاة والحج، ومنها ما هو مجرد ترك وكف وامتناع، مثل الصيام الذي هو كف عن الاستجابة لشهوتي البطن والفرج، امتثالًا لأمر اللَّه تعالى.

وكلها لا بد فيها من النية الخالصة؛ لأنها روح العمل وسرّه: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: 5]، «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى**»(197).

ومن هذه العبادات: فرائض لازمة لكل مسلم ومسلمة، لا يُقْبَل التفريط فيها بحال، إلا من عذر يقدره الشرع.

ومنها نوافل هي بمنزلة الربح لرأس المال، من استزاد منها، كان خيرًا له، ومن تكاسل عنها، فلا إثم عليه، وهي ميدان المتنافسين في الخيرات، والمتسابقين في الباقيات الصالحات.

إن هذه العبادات غايات في نفسها، ولكنها - مع ذلك - وسائل فذة للتربية

---

(197) متفق عليه: رواه البخاري في «بدء الوحي» (1)، ومسلم في «الإمارة» (1907)، عن عمر بن الخطاب.

الروحية والأخلاقية والاجتماعية، ومناهج ربانية لتدريب المسلم على السلوك الأمثل، والحياة المثلى.

2 – ومن أخلاق وفضائل تقاوم الأنانية، وتُربِّي روح الغيرية، وتُعْنَى بزكاة الفرد، وتماسك المجتمع، تُزكِّي نوازع الخير، وتقلم أظافر الشر... وهي أخلاق فطرية، واقعية، مفهومة معللة، شاملة متوازنة، يجتمع العقل والنقل على تحسين ما حسَّنته، وتقبيح ما قبَّحته.

3 – ومن آداب وتقاليد، تُربِّي الأذواق، وتحمي الأخلاق، وتُجمِّل الحياة، وتصنع وحدة المظهر مع المخبر، وتصون المجتمع من عبث المتحللين، وتزمت المتزمتين.

وهي آداب تصحب المسلم في حياته كلها: في مأكله ومشربه، وملبسه ومركبه، ويقظته ونومه، وسفره وحضره، وخلوته وجلوته.

وهي آداب تحرص على ربط المسلم بالله تعالى في كل أحواله، وكل أحيانه، فهو ينام على ذكر الله، ويستيقظ على ذكر الله، ويبدأ الأكل باسم الله، ويختمه بحمد الله، وكذلك لُبْسُه الثوب، وركوبه الدابة، وسفره وعودته. وهو إذا هنَّأ أو عزَّى، أو شمَّت عاطسًا، أو رد على مُشمِّت، أو سافر أو ودع مسافرًا، أو غير ذلك، لم ينس الله تعالى، بل رطَّبَ لسانه بذكره، حامدًا أو داعيًا، أو مسميًا أو مثنيًا عليه تعالى بما هو أهله.

ولهذا نستطيع أن نميز المسلمين من غيرهم لأول وهلة، حين نراهم يلتقون فيحيِّي بعضُهم بعضًا بإلقاء السلام، ويجتمعون على المائدة، فيأكلون باليمين ويبدأون باسم الله، ويختمون بالحمد لله، وهكذا ...

4 – ومن نُظُمٍ وتشريعات للفرد وللأسرة وللجماعة.

فهي ترسم للفرد طريقه، وتحدد له سلوكه، وتبين له الحلال من الحرام.

وهي للأسرة دعائم وركائز، تمنعها أن تميد، وتحفظها أن تنهار: توضح ما لكل طرف من الحقوق، وما عليه من الواجبات، وتحرص على بقاء هذه المؤسسة الجليلة، واستمرارها في أداء رسالتها، ما لم يصبح إثمُ بقائها أكبرَ من نفعه، فالخير في الافتراق بعد محاولة الإصلاح، وآخر العلاج الكيُّ.

وهي للجماعة ضوابط وموازين، مهمتها أن تقيم العدل، وتردع عن الشر، وتحمي الإخاء، وتمنع التنازع، وتصون الحقوق، وتحفظ على الناس أديانهم ودماءهم، وأموالهم وأعراضهم، وعقولهم ونسلهم، وهي الضروريات التي لا تقوم الحياة إلا بها، كما تحفظ عليهم حاجيات الحياة وكمالياتها أيضًا، كل بحسب منزلته.

ومن حسن حظ المسلمين أن قامت على خدمة هذه المناهج وتجليتها، وبيان أحكامها وحكمتها، علوم ومعارف شتى في محيط الثقافة الإسلامية الرحب، من تفسير وحديث، وفقه وأصول، وأخلاق وآداب وتصوف ... .

ومهما يكن من اختلاف «أهل الذكر» في فروعها وجزئياتها، فإن أصولها الكلية، وقواعدها الأساسية، بيِّنة كالصبح، واضحة كالشمس، لا يختلف فيها اثنان، ولا ينتطح فيها عنزان، كما يقال.

اعتراض مردود:

سيقول بعض الناس: إذا كان الإسلام بهذا الوضوح، فما بال هذه الفرق التي ظهرت باسمه عبر التاريخ؟ وما بال هذا الانقسام القائم بين سنة وشيعة؟ وما سر

هذا الاختلاف بين السلفية والصوفية؟ وبين المذهبيين واللامذهبيين؟

ولا أجهل أن هناك أناسًا من المبشرين والمستشرقين ومن يدور في فلكهم يجهدون جهدون، لتضخيم هذا المعنى وتكبيره، بحيث يُخيَّل إليك من كتاباتهم أن هذا الدين ليس واحدًا، كما أنزله الله، بل ثمت مائة إسلام وإسلام، فلكل بلد إسلام، ولكل عصر إسلام، ولكل مذهب إسلام ... وهكذا.

والذي أستطيع أن أؤكده بكل قوة: أنه لا يوجد في العالم كله «أيديولوجية» دينية، ولا وضعية، تملك من الوضوح والوحدة ما يملكه هذا الإسلام.

إن الإسلام الذي ندعو إليه ونصفه بالوضوح، ليس إسلام فرقة من الفرق، ولا بلد من البلدان، ولا مذهب من المذاهب، إنه إسلام القرآن والسنة، إسلام الصحابة ومن تبعهم بإحسان، الإسلام الأول قبل أن تظهر الفرق والنِّحَل والبدع والأهواء المحدثة، التي فرقت الناس شيعًا.

ولقد سمعت من أحد كبار الشيعة العقلاء الحريصين على وحدة الأمة، كلمة جديرة بأن تسجل وتنشر، قال: هل كان هناك سنة وشيعة عندما أكمل الله الدين لهذه الأمة، وأتم عليها النعمة، ونزل قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة: 3].

وكان جواب الحاضرين طبعًا: لا.

إذن جاء الخلاف بعد ذلك في تفسير قضايا تاريخية!

وكان الجواب: نعم بكل تأكيد.

وهناك قال الرجل العاقل: فلنغض الطرف عما حدث بعد قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ

أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ . . . .﴾، وليسعنا كتاب الله، ففيه كل الكفاية.

وهذا كلام صحيح، فإن منبع الخلاف بين السنة والشيعة هو موضوع الخلافة، ومَنْ أحق بها بعد رسول الله ﷺ، فهو خلاف على أمور انتهت تاريخيًّا، وأفضى المختلفون فيها إلى ربهم، ومردهم إلى الله.

أما الشيء الباقي وراء هذا كله، فهو القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ومن نعم الله على الأمة الإسلامية أن الله تعالى قد خصهم بما لم يخص به أمة من قبلهم، وذلك أنه تعالى تولى بنفسه حفظ كتابهم المجيد، الذي هو دستور حياتهم، والمصدر الأول لتشريعهم وتوجيههم، وهو القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: 9].

وقد أثبتت القرون المتتابعة صدق هذا الوعد الإلهي، وبقي هذا القرآن كما أنزله الله، وتلقاه محمد ﷺ وحفظه أصحابه، وبلَّغوه لمن بعدهم، محفوظًا في الصدور، متلوًّا بالألسنة، مكتوبًا في المصاحف، لم تضع منه كلمة، ولم تتغير فيه جملة ... على حين حُرِّفتْ وبُدِّلتْ – أو ضاعت بالكلية – كل الكتب السماوية التي نزلت من قبل، ولم يضمن الله لها الحفظ؛ لأنها كانت كتبًا مرحلية لدعوة خاصة، ليس لها صفة العالمية لكل الناس، ولا صفة الخلود إلى أن تقوم الساعة، كما هو شأن دعوة الإسلام.

كما أن سنة محمد ﷺ قد حُفِظَتْ منتقاةً مغربلةً، لتكون التبيان النظري والعملي لهذا القرآن.

وإذا كان تاريخ الإسلام قد حفظ أسماء فرق كثيرة قد ظهرت في مجتمعه، فإنه

قد سجل كذلك انقراض معظمها من المجتمع الإسلامي، فقد لَفَظَها جمهورُ المسلمين، ولم يبقَ لها مكان بينهم، ولم يمضِ زمان على من بقي منهم حتى ذابوا في مجموع الأمة. ولئن بقيت بعض الفئات المتطرفة، فإنّ الإسلام لا يتحمَّل وزرها. ولا تحسب انحرافاتها وشذوذها عليه، وعلى أمته الكبرى.

ولقد حدد الإسلام المرجع الذي يحتكم إليه المسلمون إذا اختلفوا، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [النساء: 59].

وقد أجمع المسلمون منذ الصدر الأول على أن الرد إلى الله في الآية يعني: الرد إلى كتابه، والرد إلى رسوله يعني: الرد إلى سنته.

وقد وضع المسلمون علمًا خاصًّا في تفسير النصوص والاستنباط منها، هو علم «أصول الفقه» ليعينهم على وَحْدة الفهم. ولا أُنْكِر أن كثيرًا من مسائل الأصول نفسها مختلف فيها، ولكن الأمور الأساسية متفق عليها، وما عداها فإن الإسلام نفسه لم يُحَرِّجْ على أبنائه الاختلاف في شأنها.

على أن هناك علاجًا عمليًّا آخر، للتقليل من خطر الاختلاف، وهو ما قرره علماء المسلمين مِنْ أَنَّ رأي الإمام: يرفع الخلاف في المسائل الخلافية.

فمتى وجد للمسلمين إمام شرعي تمت إمامته بالاختيار والشورى والبيعة، كان رأيه في مسائل الخلاف العملية: هو القول الفصل، أما المسائل النظرية: فلكل رأيه، وحسابه على الله.

الأيديولوجيات الحديثة وغموضها:

ومن العجيب أن الذين يحاولون التنقص من هذه الخصيصة من خصائص

الإسلام – أعني الوضوح – بالتهويل والتضخيم في أمر الاختلاف الذي حدث في تاريخ المسلمين، وإلصاق كل فئة شاذة مارقة بصميم الأمة المسلمة، هؤلاء يتعامَوْنَ عن الغموض البيِّن، والاختلاف البارز، الذي يراه ويلمسه كلُّ دارس للأيديولوجيات الوضعية المعاصرة، التي أصبحت «أصنام» هذا العصر، وغدا هؤلاء وأمثالهم من الكُتَّاب: «الكهنةَ» الجدد لهذه الأوثان.

إن هذه الأيديولوجيات الحديثة البراقة، تفتقر إلى مجرد تعريف دقيق – أو كما يقول المناطقة: جامع مانع – يحدد مدلولها، ويوضح طبيعتها، ومفاهيمها الأساسية، فإن هذا التعريف المجرد مفقود؛ ولهذا يختلفون حولها في كل شيء، حتى في معناها: ما هو؟

خذ مثلًا: الديمقراطية.

فنحن لا نكاد نجد في القرن العشرين أيديولوجية اجتماعية، ولا تنظيمية سياسية، من الليبرالية، إلى الاشتراكية، إلى الشيوعية، أو حتى الفاشيستية أو النازية، إلا وتدَّعي كل منها: أنها هي «الديمقراطية» الحقة، وأن ما عداها ديمقراطية زائفة، وبات الناس حائرين، أي هذه الديمقراطيات هو الأصيل، وأيها الْمُدَّعَى؟

ولا يُخْرِجُ من هذا الغموض وهذه البلبلة: الاحتكامُ إلى معايير خلقية أو روحية؛ لأن الجميع يدعون الحرص على الحرية، والمساواة، وكرامة الإنسان، ولا الاحتكامُ إلى «معايير اجتماعية وضعية»؛ لأن كل فئة ستقدم لنفسها معيارًا تبرر به منهجها وأسلوبها، فمفكرو الديمقراطية الغربية يعتمدون المعيار السياسي، ويميزون ديمقراطيتهم بالحرية السياسية، على حين يعتمد الماركسيون المعيار

الاقتصادي، فيميزون ديمقراطيتهم بالحرية الاجتماعية والاقتصادية، ويتحدى الصينيون المعيارين معًا خلال ما يسمّونه: «الديمقراطية الجديدة»، ويتحداها أيضًا الثوريون الآسيويون والإفريقيون من خلال ما يدعونه: «الديمقراطية الاشتراكية»[198]، بل وجدنا من يجمع بين الضدين، خلال ما يسمونه: «الدكتاتورية الديمقراطية»[199].

وخذ مثلًا آخر: الاشتراكية، التي فُتِنَ بها الكثيرون من قومنا، وباتوا يدعون إليها باللسان والقلم ... ما هي الاشتراكية؟ ما مدلولها؟ ما أهدافها؟ ما أصولها؟ وما مصادرها؟

إنك تبحث عن جواب لهذه الأسئلة، فلا تجد إلا الغموض والاختلاف البيِّن حولها، بين مؤسسيها ودعاتها.

يقول الأستاذ «ثاوني»: إن الاشتراكية - كغيرها من التعبيرات المختلفة للقوى السياسية المركبة - كلمة لا تختلف في مدلولها من جيل إلى جيل فحسب، بل من حقبة إلى حقبة[200].

ويؤكد الأستاذ «كول» التناقض في فهم العقيدة الاشتراكية بين بلد وآخر، وبين جيل وما بعده، ويزيد عليه، فيقول: «ولم يكن التباين في العقيدة نتيجة اختلاف

---

(198) «الإسلام وتحديات العصر» للدكتور حسن صعب (ص: 129، 130). نشر دار العلم للملايين بيروت، الطبعة الثانية (1971م).

(199) «القومية والمذاهي السياسية» للدكتور عبد الكريم أحمد (ص: 317). نشر الهيئة المصرية العامة (1970م).

(200) «الاشتراكية والقومية» للدكتور يوسف عز الدين (ص: 74). نشر معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد (1388هـ، 1968م).

الزمن فحسب، بل كان هناك تناقض بين الصور المختلفة التي وُجِدَتْ في عصرٍ واحد»[201].

ونقرأ في كتاب: «هذه هذه الاشتراكية» للكاتبين الفرنسيين: «جورج بورجان»، و«بيار رامبير»، هذه العبارات نقلًا عن «مكسيم لوروا» في كتابه: «رادة الاشتراكية الفرنسية» يقول: «لا شك في أن هناك اشتراكيات متعددة، فاشتراكية بابون، تختلف أكبر الاختلاف عن اشتراكية برودون، واشتراكيتا سان سيمون وبرودون تتميزان عن اشتراكية بلانكي، وهذه كلها لا تتمشى مع أفكار لويس بلان، وكابيه، وفوربيه، وبيكون. وإنك لا تجد داخل كل فرقة أو شعبة إلا خصومات عنيفة، تحفل بالأسى والمرارة!»[202].

ومعلوم أن هذه الاشتراكيات كلها غير اشتراكية «كارل ماركس»، الذي يصف كل هذه الاشتراكيات، وما ماثلها بأنها «خيالية»، ويختص مذهبه وحده باسم: «الاشتراكية العلمية».

وبرغم قرب العهد بماركس «المتوفى 1882م» وخلفائه: إنجلز «1886م»، ولينين (1924)، مؤسس الدولة الاشتراكية الماركسية الأولى، نرى الْهُوَّة تتسع بين تجربتين رئيسيتين في روسيا والصين، ينتسب كل منهما إلى ماركس ذاته.

وليس أفضل من أن نستشهد هنا بقول الماركسيين المعروفين، وهو مكسيم رودنسون، الكاتب اليهودي الفرنسي اليساري الذي يقول:

---

(201) «الاشتراكية والقومية» للدكتور يوسف عز الدين (ص: 74).

(202) «هذه هي الاشتراكية» ترجمة محمد عيتاني – بيروت (ص: 13).

«الحقيقة أن هناك «ماركسيات» كثيرة بالعشرات والمئات؛ ولقد قال ماركس أشياء كثيرة، ومن اليسير أن نجد في تراثه ما نبرر به أية فكرة!! إن هذا التراث كالكتاب المقدس «أسفار التوراة، والأناجيل وملحقاتها» حتى الشيطان يستطيع أن يجد فيه نصوصًا تؤيد ضلالته!!»[203].

هذه هي الأيديولوجيات البشرية ... في غموضها ... واختلافها ... وذلك هو الإسلام في وضوحه ... ووحدته.

وشتان بين ما شرعه الله ... وما وضعه الناس ...

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ 19 وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ﴾ [فاطر: 19، 20].

* * *

---

(203) «الإسلام والرأسمالية» (ص: 24).

الفصل السابع

الجمع بين الثبات والمرونة

يكاد الذين يكتبون عن الإسلام ورسالته وحضارته، في عصرنا ينقسمون إلى فئتين متقابلتين: فئة تُبرز جانب المرونة «والتطور» في أحكام الإسلام وتعاليمه، حتى تحسبها عجينة لينة قابلة لما شاء الناس من خلق وتشكيل، بلا حدود ولا قيود.

وفي الشق الآخر: فئة تُبرز جانب الثبات والخلود في تشريعه وتوجيهه، حتى يُخيَّل إليك أنك أمام صخرة صَلْدة، لا تتحرك ولا تلين.

وهذا هو عيب كثير من البشر، حين ينظرون إلى القضايا من جانب واحد، مغفلين بقية الجوانب، على ما يكون لها من أهمية قصوى، فيجنحون إلى الإفراط أو التفريط.

وقليل من الكاتبين: هو الذي سَلِمَ من غلو الْمُفْرطين، وتقصير الْمُفَرِّطين، وكانت رؤيته واضحة لهذا المنهج الإلهي الفريد، الذي قام على أساسه مجتمع رباني إنساني، وحضارة متكاملة متوازنة.

والحقيقة أن المجتمع المسلم قد اختُصَّ بظاهرة فذة، تُعْتبر من أبرز ما يميزه عن سائر المجتمعات الأخرى: تلك هي ظاهرة التوازن، وإن شئت قلت: ظاهرة «الوسطية» التي يشير إليها قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: 143]، والتي تحدثنا عنها بتفصيل من قبل.

وإنَّ مِنْ أجلى مظاهر التوازن والوسطية التي يتميز بها «نظام الإسلام»، وبالتالي

يتميز بها مجتمعه عن غيره: التوازن بين الثبات والتطور، أو الثبات والمرونة، فهو يجمع بينهما في تناسق مبدع، واضعًا كلًّا منهما في موضعه الصحيح: الثبات فيما يجب أن يخلد ويبقى، والمرونة فيما ينبغي أن يتغير ويتطور.

وهذه الخصيصة البارزة لرسالة الإسلام، لا توجد في شريعة سماوية، ولا وضعية.

فالسماوية – عادة – تمثل الثبات(204)، بل الجمود أحيانًا، حتى سجل التاريخ على كثير من رجالاتها: وقوفهم في وجه الحركات العلمية والتحرّيرية الكبرى، ورفضهم لكل جديد في ميدان الفكر أو التشريع أو التنظيم.

وأما الشرائع الوضعية، فهي تمثل – عادة – المرونة المطلقة؛ ولهذا نراها في تغير دائم، ولا تكاد تستقر على حال، حتى الدساتير التي هي أم القوانين، كثيرًا ما تُلْغَى بجرة قلم، من حاكم متغلِّب، أو مجلس للثورة، أو برلمان منتخب، انتخابًا صحيحًا أو زائفًا، حتى يصبح الناس ويمسوا وهم غير مطمئنين إلى ثبات أي مادة، أو قاعدة قانونية، كانت بالأمس موضع التجِلَّة والاحترام.

ولكن الإسلام، الذي ختم الله به الشرائع والرسالات السماوية: أودع الله فيه عنصر الثبات والخلود، وعنصر المرونة والتطور، معًا، وهذا من روائع الإعجاز في هذا الدين، وآية من آيات عمومه وخلوده، وصلاحيته لكل زمان، ولكل مكان.

ونستطيع أن نحدد مجال الثبات، ومجال المرونة، في شريعة الإسلام، ورسالته

---

(204) يلاحظ أن الشرائع السماوية قبل الإسلام كانت مرحلية، لزمن موقوت، ولقوم مخصوصين، فلم تكن في حاجة إلى المرونة، التي تؤهلها للعموم والخلود، بخلاف الإسلام، الذي بُعِثَ رسوله إلى الناس كافة، وخُتِمَ به النبيون.

الشاملة الخالدة، فنقول:

إنه الثبات على الأهداف والغايات، والمرونة في الوسائل والأساليب.

الثبات على الأصول والكليات، والمرونة في الفروع والجزئيات.

الثبات على القيم الدينية والأخلاقية، والمرونة في الشئون الدنيوية والعلمية.

الثبات والتطور في الحياة والكون:

وربما سأل سائل: لماذا كان هذا هو شأن الإسلام؟ لماذا لم يودعه الله المرونة المطلقة أو الثبات المطلق؟

والجواب: إن الإسلام بهذا، يتَّسِق مع طبيعة الحياة الإنسانية خاصة، ومع طبيعة الكون الكبير عامة، فقد جاء هذا الدين مسايرًا لفطرة الإنسان، وفطرة الوجود.

أما طبيعة الحياة الإنسانية نفسها، ففيها عناصر ثابتة باقية ما بقي الإنسان، وعناصر مرنة قابلة للتغير والتطور.

فالإنسان اليوم، قد اتسعت مداركه، وارتقت معارفه، وازدادت قدرته على تسخير القوى الكونية من حوله، والانتفاع بها، حتى استطاع أن يصعد إلى القمر، ويعيش فوق ظهره أيامًا معدودة، يكتشف مجاهيله، ويحمل إلى أهل الأرض نماذج من ترابه وصخوره.

ولكن هل تغير جوهر إنسان اليوم، عن جوهر إنسان ما قبل التاريخ، وما بعد التاريخ؟

هل تغير جوهر الإنسان المعاصر، الذي صعد إلى كوكب القمر، عن الإنسان الذي لم يكن يعرف كيف يواري سوأة أخيه، حتى علَّمه الغراب؟

كلا، إن جوهر الإنسان واحد، وإن تطورت معارفه، وتضاعفت إمكاناته.

فالإنسان منذ عهد أبيه الأول إلى اليوم، يأكل ويشرب ويحب الخلود، ويضعف عزمه أمام دوافع النفس من داخله، أو وساوس الشر من خارجه، فيعصي ويغوي، ثم يصحو ضميره، ويشعر بالذنب، فيرجع ويتوب، ليبدأ صفحة بيضاء من جديد.

رأينا ذلك في قصة آدم أبي البشر، وأكله من الشجرة التي نُهِي عنها، بعد أن وسوس له الشيطان، ودَلَّاه بغرور، وأوهمه أنها شجرة الخلد، والملك الذي لا يبلى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ 121 ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: 121، 122].

ويجد في بني الإنسان «الشرير»: الذي يحسد أخاه، فلا يتورَّع عن قتله طغيانًا، بلا ذنب جناه.

كما يوجد الإنسان «الخيِّر» المهذب: الذي لا يقترف الشر، ولا يفكر فيه، ولا يقابل السيئة بالسيئة، وقد رأينا ذلك في قصة ابنَيْ آدم، التي قصَّها الله علينا بالحق، حين حسد أحدهما أخاه فقتله، فأصبح من الخاسرين، على حين أبى الآخر أن يبسط يده إليه بسوء قائلًا: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: 28].

ولا زلنا نراها في ألوف وملايين من ذرية آدم، يتمثل فيها «قابيل وهابيل» – كما يسميان – وستظل البشرية تراها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وإذا نظرنا إلى الكون من حولنا، وجدناه يحوي أشياء ثابتة، تمضي ألوف السنين، وألوف الألوف: وهي هي، أرض وجبال، وليل ونهار، وشمس وقمر، ونجوم مسخرات بأمر الله، كل في فلك يسبحون.

وفيه أيضًا عناصر جزئية متغير، جُزُر تنشأ، وبحيرات تَجِفُّ، وأنهار تُحْفر،

وماء يطغى على اليابسة، ويبس يزحف على الماء، وأرض ميتة تحيا، وصحارٍ قَفْر تخضرُّ، وبلاد تعمر، وأمصار تخرب، وزرع ينبت وينمو، وآخر يَذْوِي ويصبح هشيمًا تذروه الرياح.

هذا هو شأن الإنسان، وشأن الكون: ثبات وتغير في آن واحد، ولكنه ثبات في الكليات والجوهر، وتغير في الجزئيات والمظهر.

فإذا كان التطور قانونًا قائمًا في الكون والحياة، فالثبات قانون قائم فيهما كذلك بلا مِرَاءٍ.

وإذا كان في الفلاسفة من قديم، مَنْ قال بمبدأ الصيرورة والتغير، باعتباره القانون الأزلي الذي يسود الكون كله، فإن فيهم من نادى بعكس ذلك، واعتبر الثبات هو الأساس، والأصل الكلي العام للكون كله.

والحق أن المبدأين كليهما من الثبات والتغير: يعملان معًا، في الكون والحياة، كما هو مشاهد وملموس.

فلا عجب أن تأتي شريعة الإسلام، ملائمة لفطرة الإنسان، وفطرة الوجود، جامعة بين عنصر الثبات، وعنصر المرونة.

وبهذه المزية يستطيع المجتمع المسلم، أن يعيش ويستمر ويرتقي، ثابتًا على أصوله وقيمه وغاياته، متطورًا في معارفه وأساليبه وأدواته.

فبالثبات: يستعصي هذا المجتمع على عوامل الانهيار والفناء، أو الذوبان في المجتمعات الأخرى، أو التفكك إلى عدة مجتمعات، تتناقض في الحقيقة، وإن ظلت داخل مجتمع واحد في الصورة، بالثبات يستقر التشريع وتتبادل الثقة، وتبنى المعاملات والعلاقات على دعائم مكينة، وأسس راسخة، لا تعصف بها الأهواء

والتقلبات السياسية والاجتماعية ما بين يوم وآخر.

وبالمرونة: يستطيع هذا المجتمع أن يكيف نفسه وعلاقاته حسب تغير الزمن، وتغير أوضاع الحياة، دون أن يفقد خصائصه ومقوماته الذاتية.

ولكن ما هي مظاهر الثبات والمرونة في شريعة الإسلام؟ وما دلائل ذلك؟ هذا ما نبيّنه في الصفحات التالية إن شاء الله.

دلائل الثبات والمرونة في مصادر الإسلام وأحكامه:

إن للثبات والمرونة مظاهر ودلائل شتى، نجدها في مصادر الإسلام، وشريعته وتاريخه.

يتجلى هذا الثبات في «المصادر الأصلية النصية القطعية للتشريع»: من كتاب الله، وسنة رسوله؛ فالقرآن هو الأصل والدستور، والسنة هي الشرح النظري، والبيان العملي للقرآن، وكلاهما مصدر إلهي معصوم، لا يسع مسلمًا أن يعرض عنه: ﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [النور: 54]، ﴿قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور: 51].

وتتجلى المرونة في «المصادر الاجتهادية»؛ التي اختلف فقهاء الأمة في مدى الاحتجاج بها ما بين موسع ومضيق، ومُقِلّ ومكثر، مثل: الإجماع، والقياس، والاستحسان، والمصالح المرسلة وأقوال الصحابة، وشرع من قبلنا، وغير ذلك من مآخذ الاجتهاد، وطرائق الاستنباط.

وفي أحكام الشريعة(205) نجدها تنقسم إلى قسمين بارزين:

---

(205) نريد بالشريعة هنا: ما هو أعم من «الجانب القانوني» في رسالة الإسلام. والمراد: ما بعث الله

قسم يمثل الثبات والخلود.

وقسم يمثل المرونة والتطور.

نجد الثبات يتمثل في العقائد الأساسية الخمس، من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وهي التي ذكرها القرآن في غير موضع كقوله: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: 177]، ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: 136].

وفي الأركان العملية الخمسة: من الشهادتين، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت الحرام، وهي التي صح عن الرسول ﷺ أن الإسلام بُني عليها.

وفي المحرمات اليقينية: من السحر وقتل النفس، والزنا وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات، والتولي يوم الزحف، والغصب والسرقة، والغيبة والنميمة، وغيرها مما يثبت بقطعيِّ القرآن والسنة.

وفي أمهات الفضائل: من الصدق والأمانة، والعفة والصبر، والوفاء بالعهد والحياء، وغيرها من مكارم الأخلاق، التي اعتبرها القرآن والسنة من شُعَب الإيمان.

وفي شرائع الإسلام القطعية: في شئون الزواج والطلاق، والميراث والحدود،

به محمدًا ﷺ من عقائد وعبادات ومعاملات وأخلاق وغيرها، كما عرفها بذلك «التهانوي» في كتابه: «كشاف اصطلاحات العلوم والفنون».

والقصاص، ونحوها من نظم الإسلام، التي ثبتت بنصوص قطعية الثبوت، قطعية الدلالة، فهذه الأمور ثابتة، تزول الجبال لا تزول، نزل بها القرآن، وتواترت بها الأحاديث، وأجمعت عليها الأمة، فليس من حق مجمع من المجامع، ولا من حق مؤتمر من المؤتمرات، ولا من حق خليفة من الخلفاء، أو رئيس من الرؤساء، أن يلغي أو يعطل شيئًا منها؛ لأنها كليات الدين، وقواعده وأسسه، أو كما قال الشاطبي: «كُلِّية أبديَّة، وضعت عليها الدنيا، وبها قامت مصالحها في الخلق، حسبما بيّن ذلك الاستقراء. وعلى وفاق ذلك جاءت الشريعة أيضًا، فذلك الحكم الكلي باقٍ إلى أن يرث اللَّه الأرض وما عليها»[206].

ونجد في مقابل ذلك: القسم الآخر، الذي يتمثل فيه المرونة، وهو ما يتعلق بجزئيات الأحكام وفروعها العملية، وخصوصًا في مجال السياسة الشرعية.

يقول الإمام ابن القيم في كتابه: «إغاثة اللهفان»:

«الأحكام نوعان:

نوع لا يتغير عن حالة واحدة هو عليها، لا بحسب الأزمنة ولا الأمكنة، ولا اجتهاد الأئمة، كوجوب الواجبات، وتحريم المحرمات، والحدود الْمُقدَّرة بالشرع على الجرائم، ونحو ذلك؛ فهذا لا يتطرق إليه تغيير ولا اجتهاد يخالف ما وضع عليه.

والنوع الثاني: ما يتغير بحسب اقتضاء المصلحة له زمانًا ومكانًا وحالًا، كمقادير التعزيرات وأجناسها وصفاتها، فإن الشارع ينوع فيها حسب

---

(206) «الموافقات» للشاطبي (2/ 510)، ط. دار ابن عفان، الأولى (1997م).

المصلحة»[207]. وقد ضرب ابن القيم لذلك عدة أمثلة من سنة النبي ﷺ وسنة خلفائه الراشدين المهديين من بعده، ثم قال:

«وهذا باب واسع، اشتبه فيه على كثير من الناس الأحكام الثابتة اللازمة التي لا تتغير، بالتعزيرات التابعة للمصالح وجودًا وعدمًا»[208].

الثبات والمرونة في هدي القرآن:

والذي يتدبر القرآن الكريم، يجد في نصوصه المقدسة دلائل جمة، على هذه الخصيصة البارزة، من خصائص الأمة المسلمة، وهي:

الجمع بين الثبات والمرونة جمعًا متوازنًا عادلًا.

وإذا كان بالمثال يتضح المقال؛ فلا بأس أن نذكر هنا بعض الأمثلة التي توضح ما قلناه:

1 - يتمثل الثبات في مثل قوله تعالى في وصف مجتمع المؤمنين: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: 38]، وفي قوله لرسوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: 159]، فلا يجوز لحاكم، ولا لمجتمع، أن يلغي الشورى من حياته السياسية والاجتماعية، ولا يَحِلُّ لسلطان أن يقود الناس رغم أنوفهم إلى ما يكرهون، بالتسلط والجبروت.

وتتمثل المرونة، في عدم تحديد شكل معين للشورى، يلتزم به الناس في كل

---

(207) «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان» لابن القيم (1/ 230، 231)، ط. مكتبة المعارف بالرياض.

(208) المرجع السابق (1/ 333).

زمان وكل مكان، فيتضرر المجتمع بهذا التقييد الأبدي، إذا تغيرت الظروف بتغير البيئات أو الأعصار أو الأحوال، فيستطيع المؤمنون في كل عصر أن ينفذوا ما أمر الله به من الشورى بالصورة التي تناسب حالهم وأوضاعهم، وتلائم موقعهم من التطور، دون أي قيد يلزمهم بشكل جامد.

2 - يتمثل الثبات في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء: 58]، ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: 49]. فأوجب التقيد بالعدل، والالتزام بكل ما أنزل الله، والحذر من اتباع الأهواء، وكل هذا مما لا مجال للتساهل فيه، فهو يمثل جانب الثبات قطعًا في مجال الحكم والقضاء.

وتتمثل المرونة في عدم الالتزام بشكل معين للقضاء والتقاضي، وهل يكون من درجة أو أكثر؟ وهل يسير على أسلوب القاضي المفرد، أم على أسلوب المحكمة الجماعية؟ وهل يكون هناك محكمة جنايات، وأخرى للمدنيات ... إلخ. كل هذا متروك لاجتهاد أولي الأمر، وأهل الحل والعقد في مثل هذه الأمور، وليس للشارع قصد فيه إلا إقامة العدل، ورفع الظلم، وتحقيق المصلحة، ودرء المفسدة.

لقد اهتم الشارع بالنص على المبدأ والهدف، ولكنه لم يعتنِ بالنص على الوسيلة والأسلوب؛ وذلك ليدع الفرصة، ويفسح الطريق للإنسان كي يختار لنفسه الأسلوب المناسب، والصورة الملائمة لزمنه وبيئته، ووضعه وحالته.

3 - يتمثل الثبات في قوله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾ [آل عمران: 28].

وتتمثل المرونة في الاستثناء من هذا الحكم عند الضرورة؛ إذ قالت الآية: ﴿إِلَّآ

أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةً﴾ [آل عمران: 28]، ومثله: ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [النحل: 106]، ونحوه: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ [النساء: 148].

فهذه الاستثناءات وأمثالها في كتاب الله أعطت فسحة لمن تقهره الظروف الشخصية والاجتماعية، فلا يقدر على الصمود والثبات على القاعدة الأصلية في السلوك، ولكن الخطر كل الخطر، أن تتحول الاستثناءات إلى قواعد، وتصبح هي الأصل في التفكير أو السلوك.

4 – يتمثل الثبات في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌۗ ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة: 3].

وتتمثل المرونة في قوله بعدها: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [المائدة: 3]، فقرر بذلك مبدأ: «رعاية الضرورات»، ولكنه لم يطلق فيه العنان لمن أراد، بل قيده بقوله: ﴿غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ﴾، أي غير مائل للحرام والتوسع فيه، كقوله تعالى في الآيات الأخرى: ﴿غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾ [البقرة: 173، والأنعام: 145، والنحل: 115]، أي غير باغٍ على غيره، ولا متعدٍّ قَدْرَ الضرورة، وهذا مُقيِّدٌ لمبدأ الضرورة؛ حتى لا يسترسل الناس في الحرام باسمها، ومن ذلك

أخذ مبدأ «ما أبيح للضرورة يقدر بقدرها»[(209)].

5 - يتمثل الثبات في التحريم الباتِّ للتخريب والإفساد في الأرض، بمثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: 56]، ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ [البقرة: 60، وهود: 85]، وهذا مبدأ عام.

وتتمثل المرونة في استثناء الظروف الحربية، ومقتضيات التنكيل بالعدو، وإجباره على التسليم بأقل الخسائر الممكنة، وذلك في قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ أَوۡ تَرَكۡتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيُخۡزِيَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [الحشر: 5]. وقد نزلت هذه الآية الكريمة في حصار النبي ﷺ ليهود بني النضير، وقطعه بعض نخيلهم، فشنع اليهود بذلك وقالوا: يا محمد، قد كنت تنهى عن الفساد، وتعيب على من يصنعه، فما بال قطع النخيل وتحريقها؟ فكانت الآية ردًّا عليهم بأن ذلك بإذن من الله، وليخزي الفاسقين.

6 - يتمثل الثبات في رفض القرآن الكريم للاجتهاد والرأي إذا كان في مقابلة نص محكم؛ لأن رأي المخلوق لا يقابل حكم الخالق؛ ولهذا أنكر الكتاب العزيز على الذين استحلوا الربا تشبيهًا له بالبيع، مع أن الله أحل هذا، وحرم ذاك، فلا مجال لقياس ولا نظر حينئذ، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: 275].

على حين تتمثل المرونة في إقرار الاجتهاد في الأمور القضائية ونحوها، مما تتفاوت في فهمه العقول، وتختلف التقديرات، وفي هذا جاء قوله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ

---

(209) راجع: «الأشباه والنظائر» لابن نجيم (ص: 73) وما بعدها، طبعة دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى (1999م).

وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ 78 فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: 78، 79]، فخص بالفهم أحدهما، وهو سليمان الذي وُفِّق لإصابة المحزِّ وأثنى على كل منهما بالحكم والعلم، وإن أخطأ أحدهما؛ لأنه تحرى واجتهد في قضية محتملة.

الثبات والمرونة في الهدي النبوي:

وإذا تأملنا في السنة المطهرة - قولًا وفعلًا وتقريرًا - وجدناها حافلة بشتى الأمثلة والدلائل، التي يتمثل فيه الثبات والمرونة جنبًا إل جنب.

1 - يتمثل الثبات في رفضه ﷺ التهاون أو التنازل في كل ما يتصل بتبليغ الوحي، أو يتعلق بكليات الدين، وقيمه، وأسسه العقائدية والأخلاقية.

ومهما حاول المحاولون أن يثنوا عنانه عن شيء من ذلك بالمساومات أو التهديدات، أو غير ذلك من أنواع التأثير على النفس البشرية، فموقفه هو الرفض الحاسم، الذي علمه إياه القرآن في مواقف شتى، فحين عرض عليه المشركون، أن يلتقوا في منتصف الطريق، فيقبل شيئًا من عبادتهم ويقبلوا شيئًا من عبادته، أَنْ يعبد آلهتهم مدة، ويعبدوا إلهه مدة: كان الجواب الحاسم، يحمله الوحي الصادق في صورة قطعت كل المساومات، وحسمت كل المفاوضات، وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ 1 لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ 2 وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ 3 وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ 4 وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ 5 لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: 1 - 6].

ولما تلا عليهم آيات الله بينات، منكرة عليهم شركهم وعنادهم، ناعيةً ضلالهم وجحودهم، قالوا له ﷺ: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: 15]، فكان الرد القاطع، تَلْقينًا من الله تعالى لرسوله: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ ۖ

إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ 15 قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [يونس: 15، 16].

وهكذا تعلم ﷺ من وحي الله: أن لا تنازل ولا تساهل في أمور العقيدة وما يتصل بها.

ولما جاءه عتبة بن ربيعة، يتحدث بلسان قريش، ويعرض عليه أمورًا يحرص عليها طُلَّابُ الدنيا، لعله يقبلها أو يقبل بعضها، ويتنازل عن دعوته التي أَقَضَّتْ مضاجعهم، وقال له فيما قال: إن كنت تريد يا ابن أخي فيما جئت من هذا الأمر - الذي فرق جماعتنا: مالًا، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالًا، وإن كنت تريد ملكًا، ملكناك علينا، وإن كنت تريد شرفًا، سودناك علينا، حتى لا نقطع أمرًا دونك.

فلما فرغ من عرضه، قال له النبي ﷺ: «**أفرغت يا أبا الوليد؟**» قال: «**فاسمع مني**»، فتلا عليه أوائل سورة فصلت إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: 13]، فما إن سمعها الرجل، حتى خُيِّل إليه أن الصاعقة تكاد تنزل عليه وعلى قومه، فقال: أنشدك الله والرحم يا ابن أخي، أن تكف عن هذا[210].

ويوم حاولت قريش الضغط على عمه أبي طالب مرة بعد مرة، ليضغط هو بدوره على ابن أخيه، عسى أن يثنيه عن دعوته، أو يخفف من حماسه وحرارته،

---

(210) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (2/ 204، 205)، عن محمد بن كعب القرظي. مرسلًا.

حتى إنهم هددوه مرة أن ينازلوه وبني هاشم وجهًا لوجه، إلى أن يهلك أحد الفريقين، أو يكف محمد عن الآلهة، وتضليل الآباء، وتسفيه الأحلام ... وضَعُفَ أبو طالب يومًا أمام هذا التهديد، فعرض على ابن أخيه أن ينظر في مطالبهم ويسمع منهم، وقال له: لا تحملني من الأمر ما لا أطيق، وظن رسول الله ﷺ من لهجة عمه أنه خاذله، وتاركه لقريش، فاغرورقت عيناه بدموع كانت تعبيرًا عن الإصرار والثبات الفارع، وقال كلمته التاريخية:

«والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر، ما تركته حتى يُظْهِره الله، أو أهلك دونه»(211).

ومثل ذلك: موقفه من بعض قبائل العرب - بني عامر بن صعصعة - حينما عرض عليهم دعوته في مكة، في أحد مواسم الحج، فقبلوا أن يدخلوا في دينه وينصروه ويمنعوه، على أن يكون لهم الأمر من بعده. فرفض هذا الإيمان التجاري الرخيص قائلًا: الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء، فقال قائلهم: أفنهدف نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا؟ لا حاجة لنا بأمرك: فأبوا عليه. ولم يبالِ ﷺ بإبائهم(212).

ومثل ذلك أيضًا، موقفه ﷺ من كذاب بني حنيفة «مسيلمة بن حبيب»، الذي ادعى النبوة في قومه، وكتب إلى النبي ﷺ: «من مسيلمة رسول الله، إلى محمد رسول الله، سلام عليك، أما بعد، فإني قد أُشْرِكتُ في الأمر معك، وإن لنا نصف

---

(211) رواه الطبري في «تاريخه» (2/ 326)، دار التراث - بيروت، ط. الثانية - (1387هـ)، وضعفه الألباني في «الضعيفة» (909)، عن يعقوب بن عتبة بن الأخنس.

(212) «سيرة ابن هشام» بتحقيق السقا (1/ 424، 425)، مصطفى الحلبي، ط. الثانية (1375هـ، 1955م).

الأرض، ولقريش نصف الأرض، ولكن قريشًا قوم يعتدون»[213].

فكتب إليه رسول الله ﷺ:

«**بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب: السلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإن الأرض لله، يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين**»[214].

وهذا هو الثبات العقدي الصلب، الذي لا يقبل غيره في باب العقائد والمبادئ.

وفي مقابل ذلك، نجد مرونة واسعة في مواقف السياسة و«التكتيك» ومواجهة الأعداء، بما يتطلبه الموقف المعين، من حركة ووعي، وتقدير لكل الجوانب والملابسات، دون تزمت أو تشنج أو جمود.

نجده في يوم الأحزاب مثلًا يأخذ برأي «سلمان» في حفر الخندق حول المدينة، ويشاور بعض رؤساء الأنصار في إمكان إعطاء بعض المهاجمين مع قريش جزءًا من ثمار المدينة، ليردهم ويفرقهم عن حلفائهم، كسبًا للوقت إلى أن يتغير الموقف.

ويقول لنعيم بن مسعود الأشجعي – وقد أسلم وأراد الانضمام إلى صفوف المسلمين – : «**إنما أنت رجل واحد، فخذِّلْ عنا ما استطعت**»[215] ... فيقوم الرجل بدور له شأنه في التفريق بين قريش، وغطفان، ويهود بني قريظة.

وفي يوم الحديبية تتجلى المرونة النبوية بأروع صورها.

---

(213) رواه الطبري في «تاريخه» (3/ 146)، عن عبد الله بن أبي بكر.

(214) المصدر السابق نفسه، عن نعيم الأشجعي.

(215) رواه الطبري في «تهذيب الآثار مسند علي» (214)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (6392)، وضعفه الألباني في «الضعيفة» (3777)، عن نعيم بن مسعود.

تتجلى في قوله ذلك اليوم: «**والله لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها**».

وفي قبوله ﷺ أن يكتب في عقد الصلح: «باسمك اللهم» بدل «بسم الله الرحمن الرحيم»، وهي تسمية رفضها قريش.

وفي قبوله ﷺ أن يمحو كلمة «رسول الله» بعد اسمه الكريم، على حين رفض «علي» رضي الله عنه أن يمحوها بعد كتابتها.

وفي قبوله من الشروط ما في ظاهره إجحاف بالمسلمين، وإن كان في عاقبته الخير كل الخير(216).

والسر في هذه المرونة هنا، والتشدد في المواقف السابقة: أن المواقف الأولى تتعلق بالتنازل عن العقيدة والمبدأ، فلم يقبل فيها أي مساومة أو تساهل، ولم يتنازل قيد أنملة عن دعوته. أما المواقف الأخيرة فتتعلق بأمور جزئية، وبسياسات وقتية، أو بمظاهر شكلية، فوقف فيها موقف المتساهل.

2 - يتمثل الثبات والمرونة معًا في موقفه ﷺ من وفد ثقيف وقد عرضوا عليه أن يدخلوا الإسلام - ولكنهم سألوه أن يَدَعَ لهم «الطاغية» - وهي «اللات» التي كانوا يعبدونها في الجاهلية - ثلاث سنين، فأبى رسول الله ﷺ ذلك عليهم، فما برحوا يسألونه سنة سنة، ويأبى عليهم، حتى سألوه شهرًا واحدًا بعد مقدمهم، فأبى عليهم إلا أن يبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة،

---

(216) متفق عليه: رواه البخاري في «الشروط» (2731)، ومسلم في «الجهاد والسير» (1784)، عن المسور بن مخرمة، ومروان بن الحكم.

فيهدماها.

وقد كانوا سألوه مع تـرك «الطاغيـة» أن يعفـيهم مـن الصـلاة، وألا يكسـروا أوثانهم بأيديهم، فقال رسول الله ﷺ: **«أما كسر أوثانكم بأيديكم، فسنعفيكم منه، وأما الصلاة، فإنه لا خير في دين لا صلاة فيه»**(217).

فهو ﷺ أمام العقائد والمبادئ، لا يتنازل ولا يترخص ولا يتسامح، كما في أمر «الطاغية» وأمر الصلاة، وأما في الكيفيات والجزئيات، ففيها متسع للترخص والمسامحة، كما في كسر الأوثان بأيديهم، فهو أمر لا يتعلق بالمبدأ، بل بطريقة التنفيذ.

3 - يتمثل الثبات في موقفه ﷺ من القرشية المخزومية التي سرقت، ومحاولة قريش تخليصها من العقوبة عن طريق الوساطة والشفاعة وتوسلهم إلى الرسول بحِبِّه وابن حِبِّه «أسامة بن زيد»، وغضبه ﷺ في ذلك، وقيامه بينهم خطيبًا: **«إنما أهلك الذين قبلكم: أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله، لو أن فاطمة بنت محمد سرقتْ لقطعت يدها»**(218).

وتتمثل المرونة في قوله ﷺ فيما رواه أحمد والترمذي: **«لا تقطع الأيدي في الغزو»**(219)، رعاية لحال الحرب، خشية أن يفتن الجاني، ويلحق بالكفار، والعياذ

---

(217) رواه الطبري في «تاريخه» (3/ 97 - 99).

(218) متفق عليه: رواه البخاري في «أحاديث الأنبياء» (3475)، ومسلم في «الحدود» (1688)، عن عائشة.

(219) رواه أحمد (17626)، وقال مخرجوه: رجال موثقون، الترمذي في «الحدود» (1450)، وقال: غريب، وصححه الألباني في «المشكاة» (3601)، عن بسر بن أرطاة.

بالله.

ومثل ذلك قوله: «**ادرءوا الحدود ما استطعتم، ومن وجدتم له مخرجًا، فخلوا سبيله، ولأنْ يخطئ الإمام في العفو، خير من أن يخطئ في العقوبة**»[220].

4 – يتمثل الثبات في تشديده ﷺ في أداء فرائض الله، وإقامة شعائره التعبدية: من الصلاة والزكاة والصيام وغيرها. حتى إنه ليجعل الفارق بين الإسلام والشرك: ترك الصلاة، وحتى إنه ليعلن: أن من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله[221]، بل إن من تهاون في بعض شروط الصلاة – وهو يؤديها – يعذب في قبره، كذلك الذي لم يكن يستبرئ من بوله، كما روى ذلك الشيخان[222].

ونجد أنه يَهُمُّ أن يحرق على قوم بيوتهم يتخلفون عن الجماعات، ويسأله رجل أعمى ليأذن له بالصلاة في بيته، فيقول له: «**هل تسمع النداء بالصلاة؟**» قال: نعم. قال: «**فأجب**»[223].

وفي الصيام: يروي عنه ابن عباس: «**ثلاث هن عُرَا الدين، وقواعد الإسلام، عليهن أسس الإسلام، من ترك واحدة منهن فهو بها كافر حلال الدم: شهادة ألا إله إلا الله، والصلاة المكتوبة، وصوم رمضان**»[224].

---

(220) رواه الترمذي في «الحدود» (1424)، وذكر أنه رُوي مرفوعًا وموقوفًا، وأن الموقوف أصح، والحاكم (4/ 384)، وصحح إسناده، وقال الذهبي: قال النسائي: يزيد بن زياد؛ شامي متروك، وضعف الألباني في «الضعيفة» (2197)، عن عائشة.

(221) رواه البخاري في «مواقيت الصلاة» (553)، عن بريدة.

(222) رواه البخاري في «الوضوء» (216)، ومسلم في «الطهارة» (292)، عن ابن عباس.

(223) رواه مسلم في «المساجد» (653)، عن أبي هريرة.

(224) رواه أبو يعلى (2349)، وحَسَّن إسناده المنذري في «الترغيب والترهيب» (817)، والهيثمي

ويروي عنه أبو هريرة: «**من أفطر يومًا من رمضان من غير رخصة ولا مرض، لم يقضِه عنه صوم الدهر، وإن صامه**»[225].

وفي مقابل هذا التشدد، نجد مرونة سمحة، تتمثل في تشريع الرخص في الصلاة والصيام، مثل رخص: المرض، والسفر، والخطأ، والنسيان، والإكراه، وعموم البلوى ... وغير ذلك.

ومن ذلك قصر الصلاة الرباعية - بأن تصلى اثنتين - في السفر. ومثله الجمع بين الصلاتين، كما فعل ﷺ في غزوة تبوك وغيرها، وكذلك الجمع في حالة المطر أو الخوف.

وأكثر من ذلك الجمع في غير سفر ولا مطر، كما روى ذلك ابن عباس عنه ﷺ. فلما سئل عن سبب ذلك أو حكمته، قال: أراد ألا يحرج أمته[226]، فالحكمة إذن هي رفع الحرج.

ومن ذلك تشريع التيمم عند فقد الماء، أو التضرر باستعماله، ومن ذلك إباحة الفطر للمريض والمسافر، وكذلك للحامل والمرضع، والشيخ الكبير، والمرأة العجوز، وأمره المجاهدين إذا واجهوا العدو أن يفطروا؛ ليكون ذلك أقوى لهم.

ومنه أمره لمن أكل أوشرب، ناسيًا صومَه: أن يتمَّ صومه، فإنما أطعمه الله

في «مجمع الزوائد» (140)، وضعفه الألباني في «الضعيفة» (94).

(225) رواه أحمد (9706)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف، وأبو داود (2396)، والترمذي (723)، وقال: لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وابن ماجه (1672)، والنسائي في «الكبرى» (3265)، جميعهم في «الصيام» وضعفه الألباني في «مشكاة المصابيح» (2013).

(226) رواه مسلم في «صلاة المسافرين» (705)، عن ابن عباس.

وسقاه[227]. ومن ذلك ما رواه الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة، قال: «بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ جاء رجل، فقال: يا رسول الله، هلكتُ، قال: «مَا لَكَ؟» قال: وقعتُ على امرأتي وأنا صائم، فقال: «**هل تجد رقبة تعتقها؟**» قال: لا. قال: «**فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟**» قال: لا. قال: «**هل تجد إطعام ستين مسكينًا؟**» قال: لا. قال: «**اجلس**»، فأتى النبي ﷺ - بفرق فيه تمر. قال: «**أين السائل؟**» قال: أنا. قال: «**خذ هذا فتصدق به**». فقال: أعلى أفقر مني يا رسول الله؟ فوالله، ما بين لابتيْها - يريد الحرَّتين - أهل بيت أفقر من أهل بيتي، فضحك النبي ﷺ حتى بدت أنيابه، ثم قال: «**أطعمه أهلك**»»[228].

فهنا نجد النبي ﷺ راعى حال الرجل، فتحمل عنه الإطعام كفارةً لجنايته، ثم رخص له في النهاية أن يطعمه أهله، وبهذا عاد يحمل بدل العقوبة مكافأة، تقديرًا لظروفه الشخصية والعائلية، وبخاصة أنه جاء تائبًا نادمًا معترفًا بذنبه.

5 - يتمثل الثبات في إنكاره ﷺ على من اشترط شرطًا مخالفًا لحكم الشرع في عقد، قال: «**ما بال رجال يشترطون شروطًا ليست في كتاب الله، فأيما شرط ليس في كتاب الله، فهو باطل، وإن كان مائة شرط**»[229].

وتتمثل المرونة في إقرار كل شرط يتفق عليه المتعاقدان أو المتعاقدون، ما دام لم

---

(227) متفق عليه: رواه البخاري (1933)، ومسلم (1155)، كلاهما في «الصوم»، عن أبي هريرة.

(228) متفق عليه: رواه البخاري (1936)، ومسلم (1111)، كلاهما في «الصوم»، عن أبي هريرة.

(229) متفق عليه: رواه البخاري في «المكاتب» (2563)، ومسلم في «العتق» (1504)، عن عائشة.

يخالف نصًّا أو قاعدة شرعية ... وبعبارة أخرى لم يحل حرامًا، أو يحرم حلالًا، وفي هذا جاء الحديث:

«المسلمون على شروطهم»(230). وفي هذا يدخل كل عقد يستحدثه المسلمون، إذا لم تكن فيه مخالفة للشريعة. كما هو اتجاه الحنابلة، واختيار ابن تيمية وابن القيم.

6 - يتمثل الثبات في رفض القضاء إذا كان على جهل، وإن أصاب صاحبه الحق اعتباطًا؛ لأنه لم يأتِ الأمر من بابه، وإنما هي رميَّة من غير رامٍ، ومثل ذلك القضاء بما يخالف الحق، اتباعًا للهوى، وحبًّا للدنيا، وفي هذا جاء الحديث: **«قاضيان في النار، وقاض في الجنة: فرجل عرف الحق وقضى به، فذلك في الجنة، ورجل عرف الحق وقضى بغيره، فذلك في النار، ورجل قضى على جهل، فذلك في النار»**(231).

وتتمثل المرونة في إقراره ﷺ لمعاذ على اجتهاده في القضاء بعد أن لا يجد نصًّا في الكتاب ولا السنة(232)، وفي إقراره لأصحابه على اجتهادهم في قضية صلاة العصر

---

(230) وأبو داود في «الأقضية» (3594)، والترمذي في «الأحكام» (1352)، وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (6714)، عن أبي هريرة.

(231) رواه أبو داود في «الأقضية» (3573)، والترمذي (1322)، وابن ماجه (2315)، كلاهما في «الأحكام»، والحاكم (4/ 90)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (4446)، عن بريدة.

(232) رواه أحمد (22007)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف؛ لإبهام أصحاب معاذ، وجهالة الحارث بن عمرو، وأبو داود في الأقضية (3592)، والترمذي في «الأحكام» (1328)، وقال: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وليس إسناده عندي بمتصل، وضعفه الألباني في «ضعيف أبي داود» (770)، عن معاذ قال الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (1/ 189، 190): فإن اعترض المخالف بأن قال: لا يصح هذا الخبر؛ لأنه يروى عن أناس من أهل حمص لم يسموا،

في بني قريظة، وأخذ فريق بظاهر الأمر، وفريق بالمقصود منه، وعـدم تعنيفـه لأيّ منهما(233).

وفي قوله: «**إذا اجتهـد الحـاكم فأصـاب، فلـه أجـران، وإذا اجتهـد فأخطـأ، فلـه أجر**»(234). فقرر بذلك مبدأ «الاجتهاد» لاستنباط الحكـم الشرعي لكـل واقعـة تحدث، إما من نص أو من قياس عليه، أو غير ذلك من اعتبار المقاصـد والمصـالح التي جاء بها الشرع، كما قرر أن المجتهد في ذلك مأجور مثاب عند اللَّه، وإن أخطـأ مَحَزَّ الصواب.

7 - يتمثل الثبات في رفضه ﷺ للابتكار والاختراع، وكـل فنـون الابتـداع فـيما يتعلق بالعبادات، وصُوَر التقرب إلى اللَّه تعالى؛ لأن الأصل في العبادات الحظر والتوقيف، فلا يعبد اللَّه إلا بما شرعه وأذن به، لا بما تستحسنه العقول، وتسيغه

فهم مجاهيل، فالجواب: أن قول الحارث بن عمرو، عن أناس مـن أهـل حمـص مـن أصـحاب معاذ، يدل على شهرة الحديث، وكثرة رواته ... على أن أهل العلـم قـد تقبَّلـوه واحتجـوا بـه، فوقفنا بذلك على صحته عندهم - وذكر أحاديث - وإن كانت هذه الأحاديـث لا تثبـت مـن جهة الإسناد، لكن لما تلقتها الكافة عن الكافة، غنوا بصحتها عندهم عن طلـب الإسـناد لهـا. وقال ابن القيم في «إعلام الموقعين» (1/ 202)، نحو هذا، ثم قال: كيف وشهرة أصحاب معاذ بالعلم والدين والفضل والصدق بالمحل الذي لا يخفى، ولا يعرف في أصحابه متهم ولا كذاب ولا مجروح، بل أصحابه من أفاضل المسلمين وخيارهم، لا يشك أهل العلـم بالنقـل في ذلـك. كيف «شُعْبة» حاملُ لواء هذا الحديث، وقد قال بعـض أئمـة الحـديث: إذا رأيـت «شُـعْبة» في إسناد حديث، فاشدد يديك به، وجود إسناده ابن تيمية «مجموع الفتاوى» (13/ 364)، وابن كثير في «التفسير» (1/ 7).

(233) متفق عليه: رواه البخاري في «صلاة الخوف» (946)، ومسلم في «الجهـاد» (1770)، عـن ابن عمر.

(234) متفق عليه: رواه البخاري في «الاعتصام بالكتاب والسنة» (7352)، ومسلم في «الأقضية» (1716)، عن عمرو بن العاص.

الأهواء، فهذا هو باب الغلو، وأصل التحريف والتزييف في الأديان.

ولا غرو أن أغلق الرسول ﷺ هذا الباب بإحكام وإصرار، بمثل قوله فيما رواه الشيخان عن عائشة: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه، فهو رد**»(235). وفيما رواه أحمد ومسلم، وعلَّقه البخاري عنها أيضًا: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد**»(236)، وفيما رواه أحمد وأبو داود والترمذي، وقال: حسن صحيح، من حديث العرباض بن سارية: «**إياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وإن كل بدعة ضلالة**»(237).

وتتمثل المرونة في تشجيع الابتكار والاختراع في أمور الدنيا، مثل: وسائل المواصلات، التي يشير إليها قوله تعالى، بعد ذكر الخيل والبغال والحمير: ﴿**وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾ [النحل: 8]، ومثل: أدوات الحرب التي تدخل في قوله تعالى: ﴿**وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ**﴾ [الأنفال: 60]، ومثل: صناعة السدود العظيمة التي تشير إليها قصة «ذي القرنين» في سورة الكهف، وسائر الصناعات الحربية والمدنية، التي تشير إليها الآية الكريمة: ﴿**وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ**﴾ [الحديد: 25].

---

(235) متفق عليه: رواه البخاري في «الصلح» (2697)، ومسلم في «الأقضية» (1718).

(236) رواه مسلم في «الأقضية» (1718)، وأحمد (25472)، والبخاري (9/ 107)، معلَّقًا باب «إذا اجتهد العامل أو الحاكم ... ».

(237) رواه أحمد (17144)، وقال مخرِّجوه: صحيح، وأبو داود في «السنة» (4607)، والترمذي في «العلم» (2676)، وقال: حسن صحيح، والحاكم في «العلم» (1/ 174)، وصححه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (37)، عن العرباض بن سارية.

ولهذا رأيناه ﷺ يحفر الخندق حول المدينة في غزوة الأحزاب، ويستخدم المنجنيق في غزوة الطائف، ويحث على الإنتاج الحربي، حتى يجعل صانع السهم كالمجاهد الرامي به في استحقاق المثوبة عند الله، ويحذر الأمة أن تكتفي بالزرع وتتبع أذناب البقر، كما رأيناه يتنازل عن رأيه إلى رأي أصحابه فيما يرى أنهم أعلم به وأخبر من أمور الحياة، التي لم ينزل الوحي ليعلِّمها للناس، وإنما تُركتْ لعقولهم وتجاربهم، يتعلمونها بدافع حاجتهم وحرصهم على مصالحهم ومعايشهم.

وأظهر مثل لذلك قصة «تأبير النخل وتلقيحه» حيث كان ذلك من عادة أهل المدينة، وهم أهل نخل وزرع، فسألهم النبي ﷺ عن صنيعهم فأُخْبِرَ به، فقال: **«ما أراه يصلح»**، فبلغهم قوله ﷺ، وظنوه وحيًا وتشريعًا، وتركوا التلقيح، فلم يصلح الثمر، فلما علم بذلك النبي ﷺ قال: **«إنما أنا بشر. إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر»**[238]، وفي رواية: **«إنما ظننت ظنًّا، فلا تؤاخذوني بالظن، أنتم أعلم بأمر دنياكم»**[239].

8 - يتمثل الثبات في رفضه ﷺ الغُلوَّ في الدين، وإخراج الإسلام عن وسطيته واعتداله إلى التطرف والتنطع، سواء أكان في العقائد، أم في العبادات، أم الأخلاق، أم الشرائع.

ومن ثَمَّ رأيناه ﷺ يحذر من الغلو بعبارات شديدة مؤكدة غاية التأكيد، فيقول: **«إياكم والغلو، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو»**[240].

---

(238) مسلم في «الفضائل» (2362)، عن رافع بن خديج.

(239) مسلم في «الفضائل» (2363)، عن أنس، وعائشة.

(240) رواه أحمد (3248)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، والنسائي في «الحج»

ولهذا رفض الغلو في تعظيمه، حمايةً لحمى التوحيد من أيَّة شائبة للشرك، ولما قال له بعض الناس: ما شاء الله وشئتَ، قال: «**بل ما شاء الله وحده**»[241].

وقال: «**لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، ولكن قولوا: عبد الله ورسوله**»[242].

ولم يكن يتهاون أدنى تهاون فيما يتعلق بالتوحيد والشرك، ومن ثَمَّ حمل على تعليق التمائم، وقال: «**من تعلَّق تميمة، فلا أتم الله له، ومن تعلق ودعة، فلا ودع الله له**»[243]. وقال: «**من تعلق تميمة فقد أشرك**»[244].

وفي مجال السلوك يقول: «**هلك المتنطعون، هلك المتنطعون، هلك المتنطعون**»[245]، والمتنطعون: هم المتزمتون المتطرفون.

ولما بلغه أن رهطًا من أصحابه اتجهوا إلى الغلو في التعبد لربهم، على حساب

(3057)، وابن ماجه في «المناسك» (3029)، والحاكم في «الصوم» (1/ 466)، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وصححه النووي في «المجموع» (8/ 171)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (1283)، عن ابن عباس.

(241) رواه أحمد (1839)، وقال مخرِّجوه: صحيح لغيره، والنسائي في «الأيمان والنذور» (3773)، والبخاري في «الأدب المفرد» (783)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (139)، عن ابن عباس.

(242) رواه البخاري في «أحاديث الأنبياء» (3445)، عن عمر بن الخطاب.

(243) رواه أحمد (17404)، وقال مخرِّجوه: حسن، والحاكم في «الطب» (4/ 216)، وصححه، ووافقه الذهبي، وجوَّد إسناده المنذري في «الترغيب والترهيب» (5241)، وضعفه الألباني في «الضعيفة» (1266)، عن عقبة بن عامر.

(244) رواه أحمد (17422)، وقال مخرجوه: إسناده قوي، وصححه الألباني في «الصحيحة» (492)، عن عقبة بن عامر.

(245) رواه مسلم في «العلم» (2670)، عن ابن مسعود.

حقوق أنفسهم وأهليهم ومجتمعهم، حتى إن أحدهم عزم أن يصوم الدهر، فلا يفطر، والثاني أن يقوم الليل، فلا ينام، والثالث أن يعتزل النساء، فلا يتزوج - غضب لذلك، وأنكره بقوة، وخطب فيهم قائلًا: «**أما إني أتقاكم لله، وأخشاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**»(246).

وقد أراد بعض الصحابة أن يخصوا أنفسهم، قطعًا لشهوة الجنس، واستأذنوه في ذلك فلم يأذن لهم.

وتتمثل المرونة في طريقة الدعوة، وسياسة الناس، وتعليم الخلق، ومخاطبة الناس على قدر عقولهم؛ ولهذا أمر بالتيسير والتبشير، ونهى عن التعسير والتنفير، فيقول في الحديث: «**يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا**»(247).

وفي حادثة الأعرابي الذي جاء بسذاجة البداوة، يريد أن يبول في جانب من المسجد، فهمَّ به الصحابة وأفزعوه، قال لهم ﷺ: «**دعوه، وأهريقوا على بوله ذنوبًا من ماء، أو سجلًا من ماء، فإنما بُعَثْتم ميسِّرين ولم تبعثوا معسِّرين**»(248).

وكان من أخلاقه التي وُصِفَ بها ﷺ أنه: «ما خُيِّرَ بين أمرين إلا اختار أيسرهما، ما لم يكن إثمًا، فإذا كان إثمًا كان أبعد الناس عنه»(249).

---

(246) سبق تخريجه (ص: 142).

(247) سبق تخريجه (ص: 176).

(248) سبق تخريجه (ص: 175).

(249) متفق عليه: رواه البخاري في «المناقب» (3560)، ومسلم في «الفضائل» (2327)، عن عائشة.

ومن ذلك أنه كان يجيب عن السؤال الواحد، بإجابات مختلفة؛ رعايةً لحال السائلين، وظروف كل منهم.

ومن ذلك رعايته للضعف البشري في الناس، ومعاملتهم على أنهم آدميون خطَّاءون، لا ملائكة مطهرون؛ ولهذا حينما جاءه حنظلة شاكيًا من نفسه، ومن تغير حاله في بيته، وبين زوجه وأولاده عن حاله عند النبي ﷺ مُتَّهمًا نفسه بالنفاق، قال له: «**والذي نفسي بيده، إن لو تدومون على ما تكونون عندي، وفي الذكر، لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة**»، ثلاث مرات[250].

ومن ذلك سماحه بالغناء في بيت عائشة، ونهيه أبا بكر عن انتهاء الجاريتين المغنيتين، وقوله: «**دعهما يا أبا بكر، فإنها أيام عيد**»[251].

ومن ذلك إتاحته لعائشة أن تنظر إلى الحبشة وهم يلعبون بالحراب في مسجده ﷺ حتى تكون هي التي تنصرف[252]؛ تقديرًا لعواطفها وصغر سنها، حتى كان يسرب إليها من بنات الأنصار من يلعب معها ويسليها.

ومن مرونته ﷺ تقديره لكل وجهة نظر يبديها ذو رأي من اصحابه، وإن خالفت رأيًا له ﷺ أو أمرًا صدر منه، كما في إذنه ﷺ لأبي هريرة أن يبشر بالجنة من لقيه «يشهد أن لا إله إلا اللَّه مستيقنًا بها قلبه»، فلما عارض ذلك عمر خشية أن

---

(250) سبق تخريجه (ص:161).

(251) سبق تخريجه (ص:168).

(252) متفق عليه: رواه البخاري في «الصلاة» (454)، ومسلم في «صلاة العيدين» (892)، عن عائشة.

يتَّكِل الناس[253]، أقره على وجهة نظره، وألغى إذنه السابق لأبي هريرة، كما في «صحيح مسلم».

الثبات والمرونة في هدي الصحابة والراشدين:

وإذا طالعنا هدي الصحابة ﭫ وهم تلاميذ مدرسة النبوة، وأَفْقَهُ الناس للإسلام، وأحرصهم على تطبيقه، والوقوف عند حدوده، وبخاصة الخلفاء الراشدين، الذي أُمِرْنا أن نستنَّ بسنتهم[254]، ونعض عليها بالنواجذ: وجدنا صحائف مشرقة تتضح فيها مزية الجمع بين الثبات والمرونة، بلا غلو ولا تقصير.

1 - يتمثل الثبات في موقف «أبي بكر ﭬ» ممن امتنعوا عن أداء فريضة الزكاة، وقالوا: نصلي ولا نزكي، ورفضه أن يفرق بين العبادة البدنية «الصلاة»، والعبادة المالية «الزكاة»، وهما قرينتان في الكتاب والسنة. وفي هذا قال كلمته الخالدة: «والله، لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال. والله، لو منعوني عناقًا كانوا يؤدُّونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها»[255].

وتتمثل المرونة في موقفه من سيف الله «خالد بن الوليد»، حين أخطأ، فقتل

---

(253) رواه مسلم في «الإيمان» (31)، عن أبي هريرة.

(254) ليس المراد بسنة الراشدين: أقوالهم الجزئية، وآراءهم الفردية، في الفقه أو التفسير، أو ما شابه ذلك، بل «منهجهم العام» في فهم روح الإسلام، وتطبيق أحكام القرآن والسنة، أي اتباع المنهج الفكري والعملي لهم، وهو كما سنرى منهج متوازن، يقوم فيما يقوم: على الثبات على الأصول والغايات، والمرونة في الفروع والوسائل.

(255) متفق عليه: رواه البخاري في «الزكاة» (1399، 1400)، ومسلم في «الإيمان» (20)، عن أبي هريرة.

مالك بن نويرة ومن معه في حروب الردة، ولم يسمع لغضبة عمر وأبي قتادة الأنصاري، وثورتهما على خالد في قتله قومًا كانوا مُقرِّين بالإسلام.

وحين ألحَّ «عمر» على «أبي بكر» في شأن خالد، قال له: هَبْهُ يا عمر تأوَّل فأخطأ، فارفع لسانك عن خالد، ولم يَكْفِ عمرَ هذا الجواب، وظل يلحُّ على أبي بكر، فلما ضاق ذرعًا بإلحاحه قال: يا عمر، واللَّه، لا أشيم سيفًا – أي أغمد – سيفًا سلَّه اللَّه على عدوه[256].

فقد يبدو أن أبا بكر كان يرى أن خطأ خالد، قد يهون في جانب ما له من فضائل، وما أجرى اللَّه على يديه من انتصارات بالأمس، وما لا يزال يتوقع أن يتحقق على يديه من معارك الغد، والأخطار لا زالت تحدق بالجماعة المسلمة. وقد قال الرسول ﷺ في شأن «حاطب بن أبي بلعتة» في فتح مكة، حين نقل أخبار تحركات الرسول بجيشه إلى المشركين، وهو عمل يُعَدُّ من أعمال الخيانة: «ما يدريك؟ **لعل اللَّه اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم**»[257].

فدل هذا الموقف النبوي أن السوابق المشرفة تشفع لأصحابها؛ فهذا هو سر مرونة أبي بكر في هذا الموقف، على عكس تشدده وصلابته في قتال مانعي الزكاة؛ لأن الموقف الأول، يتصل بفريضة أساسية، لا يجوز التنازل عنها، أو المساومة عليها.

---

(256) رواه ابن أبي شيبة في «البعوث والسرايا» (34414)، عن عروة.

(257) متفق عليه: رواه البخاري في «الجهاد والسير» (3007)، ومسلم في «فضائل الصحابة» (2494)، عن عليّ.

أما الآخر فيتصل بموقف جزئي محتمل للتأويل، وفي ظروف غير عادية.

2 - يتمثل الثبات في موقف «عمر رضي الله عنه» من «جبلة بن الأيهم» الأمير الغساني، حين لطم رجلًا من سوقة المسلمين، وأبى الرجل إلا أن يقتصَّ منه، فطلب منه عمر أن يرضيه، أو يقبل القصاص ولا بد، وفرَّ الأمير المستكبر مرتدًّا[258]، حتى لا يقتص منه واحد من عامة الناس، ولم يبالِ به عمر؛ لأن التفريط في مبدأ العدل والمساواة أمام الشرع أضر من ارتداد شخص ما عن الإسلام، واحترام هذا المبدأ وتطبيقه: أهم من كسب واحد إلى الإسلام مهما كان مركزه الاجتماعي.

وتتمثل المرونة في تأخير «عمر» فريضة الزكاة عن أرباب الماشية من الإبل والبقر والغنم في عام الجدب[259]؛ تيسيرًا على الناس، على أن يأخذها منهم بعد أن تتحسن ظروفهم، وفي إيقافه قطع يد السارق في المجاعة[260]، عملًا بمبدأ: «درء الحدود بالشبهات» وقد أخذه من السنة النبوية.

ومثل ذلك: مرونته في موقفه من نصارى بني تغلب، وقد قيل له: إن القوم لهم بأس وشدة، وهم عرب يأنفون من الجزية، فلا تُعِنْ عليك عدوك بهم، وخذ منهم الجزية باسم الصدقة، وكانوا هم طلبوا أن تؤخذ منهم الصدقة مضاعفة، على ألا تسمى: جزية، وقد امتنع «عمر» عن ذلك أول الأمر، ثم وافق عليه، لما فيه من

---

(258) سبق تخريجه (ص: 97).

(259) رواه أبو عبيد في «الأموال» (ص: 464).

(260) «موطأ» مالك (2767)، تحقيق الأعظمي.

جلب المصلحة، ودرء المفسدة[261].

ورُوي عنه أنه قال: هؤلاء حمقى، رضوا بالمعنى، وأبوا الاسم[262]، ومثل ذلك من عمر: موقفه من بعض من ارتدوا عن الإسلام لظروف خاصة، فقد روى البيهقي في «السنن الكبرى» بسنده عن أنس بن مالك، قال: لما نزلنا على «تستر»، فذكر حديثًا في «الفتح» وفي قدومه على عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

قال عمر: يا أنس، ما فعل الرهط الستة مِنْ بكر بن وائل، الذين ارتدوا عن الإسلام، فلحقوا بالمشركين؟

قال أنس: فأخذت به في حديث آخر «أي ليشغله عنهم».

قال: ما فعل الرهط الستة الذين ارتدوا عن الإسلام، فلحقوا بالمشركين من بكر بن وائل؟

قال أنس: يا أمير المؤمنين، قُتِلوا في المعركة.

قال: إنا لله، وإنا إليه راجعون!

قلت: يا أمير المؤمنين، وهل كان سبيلهم إلا القتل؟

قال: نعم، كنت أعرض عليهم الإسلام، فإن أبوا استودعتهم السجن[263].

ومعنى هذا الأثر: أن «عمر» لم ير عقوبة القتل لازمة للمرتد في كل حال، وأنها يمكن أن تسقط أو تؤجل، إذا قامت ضرورة لإسقاطها أو تأجيلها. والضرورة

---

(261) رواه البيهقي في «الجزية» (9/ 216)، عن عبادة بن النعمان التغلبي.

(262) «المغني» لابن قدامة (9/ 344)، ط. القاهرة (1968م).

(263) رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (8/ 207)، عن أنس.

هنا، حالة الحرب، وقرب هؤلاء المرتدين من المشركين، وخوف الفتنة عليهم، ولعل عمر قَاسَ هذا على ما جاء عن النبي ﷺ في قوله: «**لا تقطع الأيدي في الغزو**»(264)؛ وذلك خشية أن تدرك السارق الحمية، فيلحق بالعدو.

وهناك احتمال آخر، وهو أن يكون رأى «عمر» أن النبي ﷺ حين قال: «**من بدل دينه فاقتلوه**»(265)، قالها بوصفه إمامًا للأمة، ورئيسًا للدولة، أي أن هذا قرار من قرارات السلطة التنفيذية، وعمل من أعمال السياسة الشرعية، وليس فتوى وتبليغًا عن الله، تلزم به الأمة في كل زمان ومكان وحال، فيكون قتل المرتد وكلِّ من بدل دينه: من حق الإمام، ومن اختصاصه وصلاحية سلطته، فإذا أمر بذلك نفذ، وإلا فلا.

على نحو ما قال الحنفية والمالكية في حديث: «**من قتل قتيلًا فله سلبه**»(266)، وما قال الحنفية في حديث: «**من أحيا أرضًا ميتة، فهي له**»(267).

لعل الاحتمال الأول هو الأرجح، ولعل الاحتمال الثاني هو مَلْحَظُ ما نُقِلَ عن الفقيه التابعي إبراهيم النخعي: في حبس المرتد أبدًا حتى يتوب(268).

---

(264) سبق تخريجه (ص: 227).

(265) رواه البخاري في «الجهاد والسير» (3017)، عن ابن عباس.

(266) راجع «المبسوط» للسرخسي (10/ 49)، و«الذخيرة» للقرافي(3/ 422). والحديث متفق عليه: رواه البخاري في «فرض الخمس» (3142)، ومسلم في «الجهاد والسير» (1751)، عن أبي قتادة.

(267) «بدائع الصنائع» (7/ 115). والحديث رواه أحمد (14839)، وقال مخرِّجوه: حديث صحيح، والترمذي في «الأحكام» (1379)، وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (5975)، عن جابر.

(268) رواه ابن المنذر في «الأوسط» (9641). الناشر: دار الفلاح، ط. الأولى(1430هـ،

هذه دلائل شتى، وأمثلة متنوعة، من نصوص الإسلام، وأحكام شريعته، وهدي كتابه، وسنة نبيه، وسيرة خير القرون من أجياله، يتجلى فيها الثبات والمرونة جنبًا إلى جنب، فلا تعارض ولا اصطدام؛ لأنه ثبات فيما يجب أن يبقى ويدوم، ومرونة فيما ينبغي أن يتغير ويتطور، ولا يجمد على حال واحدة.

الفقه الإسلامي بين الثبات والتطور:

ولا عجب بعد ما ذكرنا من هدي القرآن، وسنة الرسول، ومواقف الصحابة، من الثبات والمرونة – أن نجد الفقه الإسلامي، بمختلف مدارسه ومذاهبه، يسير في نفس هذا الاتجاه، ثابتًا على الأصول والكليات، مرنًا متطورًا في الفروع والجزئيات.

إنه لا يعطي المسلم حرية مطلقة في تنظيم حياته، ولو على حساب عقائده وقيمه ومفاهيمه، كما أنه لا يقيده في كل شئونه بتشريعات مفصلة دائمة، لا يستطيع الفكاك منها.

فالفقيه المسلم، مقيد حقًّا بالنصوص المحكمة الثابتة من القرآن والسنة، وهي المجزوم بثبوتها، القواطع في دلالتها، التي أراد الشارع الحكيم أن تلتقي عندها الأفهام، ويرتفع عندها الخلاف، وينعقد عليها الإجماع، فهي أساس الوحدة الفكرية والسلوكية للمجتمع المسلم، وهي للأمة كالجبال للأرض، تمسكها أن تميد، وتحميها أن تضطرب وتتزلزل، وهذا النوع من النصوص قليل جدًّا بالنسبة إلى سائر النصوص.

2009م).

ومع هذا التقيد الملزم، يجد الفقيه المسلم نفسه في حرية واسعة أمام منطقتين فسيحتين، من مناطق الاجتهاد وإعمال الرأي والنظر.

منطقة الفراغ التشريعي:

أما المنطقة الأولى، فهي ما يمكن تسميته: «منطقة الفراغ التشريعي» تلك المنطقة التي تركتها النصوص - قصدًا - لاجتهاد أولي الأمر والرأي، وأهل الحل والعقد في الأمة، بما يحقق المصلحة العامة، ويرعى المقاصد الشرعية، من غير أن يقيدنا الشارع فيها بأمر أو نهي، وهي المنطقة التي يسميها بعض الفقهاء: «العفو»، تبعًا لما جاء في بعض الأحاديث: «**ما أحل الله في كتابه، فهو حلال، وما حرم، فهو حرام، وما سكت عنه، فهو عفو، فاقبلوا من الله عافيته، فإن الله لم يكن لينسى شيئًا**»، ثم تلا: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: 64][269].

وفي حديث آخر: «**إن الله فرض فرائض، فلا تضيعوها، وحدَّ حدودًا، فلا تعتدوها، وحرَّم أشياء، فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان، فلا تبحثوا عنها**»[270].

فالحدود التي قدرها الشرع، لا يجوز اعتداؤها، مثل: تحديد الطلاق الذي تجوز

---

(269) رواه البزار (4087)، قال: إسناده صالح، والبيهقي في «الكبرى» في «الضحايا» (10/ 12)، وذكره الهيثمي في «المجمع» (1/ 416)، وقال: رواه البزار والطبراني في «الكبير»، وإسناده حسن، ورجاله موثقون. والحاكم في «التفسير» (2/ 375)، وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. عن أبي الدرداء.

(270) رواه الدارقطني في «سننه» كتاب: «الرضاع» (4/ 183)، والطبراني في «الكبير» (22/ 221)، وللبيهقي في «الكبرى» كتاب: «الضحايا» (10/ 12)، عن أبي ثعلبة، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (1597)، وحسنه النووي في «الأربعين النووية»، الحديث الثلاثون.

بعده الرجعة بمرتين، وتحديد عدة المطلقة بثلاثة قروء، أو بوضع الحمل، وتحديد أنصبة الورثة في تركة الميت، وتحديد نصاب الزكاة، ومقدار الواجب فيها، وكذلك العقوبات المقدرة بمائة جلدة، أو بثمانين، أو بقطع اليد، ونحوها.

فلا يجوز لمجتهد، ولا لسلطان: أن يغير هذه المعالم، ويتجاوز هذه المقدرات الشرعية.

ومثل ذلك: الفرائض التي أوجبها اللَّه كالعبادات الأربع، التي هي أركان الإسلام، ومبانيه العظام، ومثل ذلك: الجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والإحسان إلى الجار، وأداء الأمانات، والحكم بالعدل، وغيرها.

فلا يجوز لأحد أن يسقط أو يلغي شيئًا من هذه الفرائض، أو يتساهل فيها. ففرضيتها ثابتة في شريعة الإسلام، لا تقبل نسخًا ولا تجميدًا ولا تطويرًا، ولا يجوز أن تضيع في مجتمع مسلم.

وكذلك المحرمات اليقينية، التي أشرنا إليها من قبل، مثل: الشرك، والسحر، والقتل، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات، والزنا وشرب الخمر، والسرقة، وشهادة الزور، ونحوها.

فهذه كلها ثابتة، لا تلين للعصور، ولا يُتَهاون فيها يومًا، فيفتي بحلها مجتهد، أو يرخص فيها حاكم. ولا يجوز أن تُنْتهك في مجتمع مسلم.

وما عدا هذه الحدود والفرائض والمحرمات، فهي أمور مسكوت عنها، متروكة للاجتهاد، رحمة بالأمة، وتيسيرًا وتوسعة عليها، وبهذا تجد أمامها مجالًا رحبًا مرنًا، تتحرك فيه بيسر وسهولة، دون أن تشعر بالإثم في دينها، أو الحرج في دنياها.

أما كيف تملأ الأمة هذا «الفراغ التشريعي» أو «منطقة العفو» التي تركتها النصوص قصدًا، كما قلنا، فهناك طرائق ومسالك عديدة، يختلف في تقديرها وفي الأخذ بها فقهاء الشريعة ما بين قابل ورافض، ومطلق ومقيِّد، ومُقِلّ ومُكثِر.

هناك القياس بقيوده وشروطه، وإن خالف فيه بعض المعتزلة والظاهرية والإمامية.

هناك الاستحسان الذي أخذ به الحنفية والمالكية، وجاء عن بعضهم: أنه تسعة أعشار العلم.

هناك الاستصلاح، أو اعتبار المصلحة المرسلة، وهي التي لم يجئ نص خاص من الشارع باعتبارها ولا بإلغائها، واشتهر الأخذ بها عند المالكية، وإن كانت المذاهب الأربعة كلها قد أخذت بها عند التحقيق والتطبيق، كما يتضح ذلك بالقراءة والاستقراء لكتب كل مذهب.

هناك اعتبار العرف بقيوده وشروطه، ولهذا كان من القواعد الكلية الشرعية: أن العادة مُحَكَّمَة، وأنَّ المعروفَ عرفًا: كالمشروط نصًّا. وقد قال ابن عابدين رَحِمَهُ اللَّهُ - وهو أحد الناظمين في الفقه - :

والعرف في الشرع له اعتبار ... لذا عليه الحكم قد يدار

وهناك مصادر وأدلة أخرى لاستنباط الحكم الشرعي فيما لا نص فيه. يرجع إليها في كتب أصول الفقه.

منطقة النصوص المحتملة:

والثانية: منطقة النصوص المتشابهات، التي اقتضت حكمة الشارع أن تجعلها هكذا محتملات، تتسع لأكثر من فهم، وأكثر من رأي، ما بين موسع ومضيق، وما

بين قياسي وظاهري، وما بين متشدد ومترخص، وما بين واقعي ومفترض.

وفي كل هذا فسحة وسعة لمن أراد الموازنة والترجيح، وأخذ أقرب الآراء إلى الصواب، وأولاها بتحقيق مقاصد الشرع، فقد يصلح رأي لزمن، ولا يصلح لآخر، أو يصلح لبيئة، ولا يصلح لأخرى، أو يصلح لحال، ولا يصلح لغيره.

وهكذا نجد في النظام الإسلامي مواضع إجماعية لم يختلف فيها اثنان من علماء الأمة، وهي الأسس الثابتة، التي يرتكز عليها بناء النظام الإسلامي، مثل: ملكية الأرض للأفراد، وجواز استغلالها، وشرعية توارثها، فهذا مما لم يخالف في ثبوته ومشروعيته أحد من فقهاء المسلمين.

ولكن إذا جئنا إلى طريقة استغلال الأرض، وجدنا مذاهب وأقوالًا شتى، يستند كل منها إلى أدلة شرعية محتملة للتضعيف والترجيح.

فهناك من يقول بمنع المزارعة، وبإباحة المؤاجرة؛ استنادًا إلى ما ورد في ذلك من آثار، وإلى المشروعية العامة للإيجار والاستئجار في سائر الأشياء، ومنهم من عكس فأباح المزارعة لما صح من معاملة النبي لأهل خيبر على أساسها، ولما فيها من المشاركة في المغنم والمغرم، ولكنه منع المؤاجرة لما فيها من مخاطرة بالبذور والنفقة والجهد دون فائدة محققة للمستأجر مع الربح المحقق للمالك، أما المزارعة: ففيها اشتراك في الغنم والغرم قلَّ أو كثر.

وهناك من يجيز المزارعة والمؤاجرة جميعًا، بشرط أن تشتمل المزارعة على شرط فاسد؛ لأنه لم يصح عنده نهي مطلق عن هذه أو تلك.

وبعضهم يوجب في المؤاجرة: أن يضع المالك من الأجرة في حالة الجوائح والآفات تصيب الزرع، وفقًا لقدر الخسارة، لما جاء في الحديث أن النبي ﷺ أمر

بوضع الجوائح[271].

وهناك من لا يجيز المزارعة، ولا المؤاجرة جميعًا، ويوجب على المالك أحد أمرين:

إما أن يزرع أرضه بنفسه وأدواته.

وإما أن يعيرها لغيره ليزرعها بدون مقابل، أخذًا بحديث: «**من كانت له أرض، فليزرعها أو يمنحها أخاه**»[272].

أية مرونة، وأية سعة، يجدها الفقيه المسلم، وبالتالي المجتمع المسلم، إزاء هذه الآراء المتنوعة، وهذه الخصوبة الفقهية المثرية؟

إن لكل رأي من هذه الآراء مستنده الفقهي، ودليله الشرعي، ولكل منها وجهة معتبرة.

ويمكننا أن نأخذ بما نراه أرجح وأقوى وأدنى إلى تحقيق المصلحة بالنظر إلى ظروف مجتمعنا وعصرنا، دون أن ينكر علينا فقيه واحد؛ لأن من المتفق عليه: أنه لا إنكار على مجتهد في المسائل الاجتهادية.

فهذه هي شريعة الإسلام: لو شاء اللَّه لجعل أحكامها كلها منصوصًا عليها نصًّا قطعيَّ الثبوت قطعيَّ الدلالة، وبذلك لا يكون هناك مجال لاجتهاد أو استنباط، ولاختلاف المشارب، وتعدد المدارس، وتطور الآراء، وتغير الفتوى بتغيير الزمان والمكان والحال، وإنما هو حكم واحد ثابت مؤبد.

---

(271) رواه مسلم في «المساقاة» (1554)، عن جابر.

(272) متفق عليه: رواه البخاري في «المزارعة» (2340)، ومسلم في «البيوع» (1536)، عن جابر.

ولو شاء أيضًا، لجعل النصوص الشرعية كلها ظنية الثبوت، أو ظنية الدلالة، أو ظنيتهما معًا، وبذلك لا يوجد حكم واحد ثابت مقطوع به، فضلًا عن الأمور التي لا نص فيها أصلًا. وفي هذا من البلبلة ما فيه، وهو مناف لحكمة إرسال الرسل، الذين أرسلهم الله بالبينات، وأنزل معهم الكتاب والميزان، ليقوم الناس بالقسط، وليحكموا بين الناس فيما اختلفوا فيه، ويهدوهم إلى صراط مستقيم.

ولكن شاء الله أن يكون من مصادر هذا الدين وأدلته: القطعي اليقيني، الذي لا يقبل النقاش ولا التغيير، ولا يحتمل أكثر من وجه، ولا يسع مسلمًا أن يهمله أو يعرض عنه، وإلا كان ذلك طعنًا في إيمانه بكتاب ربه، وسنة نبيه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: 36]، ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور: 51].

كما شاء – سبحانه – أن يكون بجوارها المصادر الاجتهادية، والأدلة الظنية، ليتسع المجال للنظر والترجيح، وتتعدد مآخذ الاجتهاد، وطرائق الاستنباط، ومدارس الفكر، وفي ذلك نجد متسعًا، أيَّ متسع، للتطور المحمود، بفضل هذه المرونة العجيبة التي تضمنتها مصادر الشريعة.

تغير الفتوى بتغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والعوائد:

ومن هنا لم يجد المحققون من فقهاء المسلمين، في مختلف العصور أي غضاضة أو حرج في إعلان وجوب تغير الفتوى، بتغير الأزمنة والأمكنة والأعراف والأحوال.

يقول الإمام ابن القيم في فصل تغير الفتوى واختلافها بحسب ما ذكرناه:

«هذا فصل عظيم النفع جدًّا، وقد وقع سبب الجهل به غلط عظيم على الشريعة، أوجب من الحرج والمشقة، وتكليف ما لا سبيل إليه: ما يُعْلَم أن الشريعة الباهرة التي في أعلى رتب المصالح لا تأتي به، فإن الشريعة مبناها وأساسها على الحِكَم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحِكمة كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة، وأن أُدْخلت فيها بالتأويل»(273).

وكذلك كتب الإمام القرافي المالكي في كتابه: «الأحكام» مبينًا أن استمرار الأحكام، التي مدركها العرف والعادة – مع تغير تلك العوائد – : خلاف الإجماع وجهالة في الدين(274).

كما عالج ذلك في كتابه: «الفروق» بهذه الروح نفسها(275).

وفي القرن الثالث عشر الهجري، كتب علامة متأخري الحنفية «ابن عابدين» رسالته المشهور: «نشر العَرْف في بناء بعض الأحكام على العُرْف»(276) مستخلصًا أحكامها مما قرره علماء المذهب أنفسهم، وأفتوا به في مختلف الأعصار.

---

(273) «إعلام الموقعين» لابن القيم (3/ 11)، الناشر: دار الكتب العلمية، الأولى (1991م).

(274) «الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام» (ص: 112)، الناشر: المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة.

(275) «الفروق» (3/ 287 – 290).

(276) مطبوعة ضمن «مجموعة رسائل ابن عابدين» (2/ 114 – 148)، بدون طبعة، وبدون تاريخ.

وقد ذكر في هذه الرسالة النافعة: أن كثيرًا من الأحكام تختلف باختلاف الزمان لتغير عرف أهله، أو لحدوث ضرورة، أو لفساد أهل الزمان، بحيث لو بقي الحكم على ما كان عليه أولًا، للزم منه المشقة والضرر بالناس، ولخالف قواعد الشريعة المبنية على التخفيف والتيسير، ودفع الضرر والفساد.

ولهذا نرى مشايخ المذهب خالفوا ما نص عليه المجتهد «إمام المذهب» في مواضع كثيرة بناها على ما كان في زمنه، لعلمهم بأنه لو كان في زمنهم: لقال بما قالوا به، أخذًا من قواعد مذهبه.

ومن أمثلة ما تغيرت فيه الفتوى والحكم بتغير البيئات والأمازن والأحوال:

ما وقع من عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إذ كان واليًا على المدينة، فكان يحكم للمدعي بدعواه، إذا جاء بشاهد واحد، وحلف اليمين، فيعد يمين المدِّعِي قائمة مقام الشاهد الثاني، فلما ولي الخلافة، وأقام في عاصمة الدولة بالشام لم يحكم إلا بشهادة رجلين، أو رجل وامرأتين، فسئل في ذلك، فقال: لقد وجدنا أهل الشام على غير ما عليه أهل المدينة[277].

وما فعله عمر في الشام لا ينافي ما جاء عن النبي ﷺ أنه قضى بشاهد ويمين[278]، فإن قضاء النبي ﷺ بذلك يدل على جوازه ومشروعيته، ولا يدل على الوجوب والإلزام، فيجوز القضاء بالشاهد الواحد مع اليمين في بعض الحالات، وتركه في حالات أخرى بناءً على اعتبارات صحيحة، كما فعل عمر بن عبد العزيز.

---

(277) «إعلام الموقعين» (3/ 71).

(278) رواه مسلم في «الأقضية» (1712)، عن ابن عباس.

كما أنه من المجازفة – وقد صح حديث الشاهد مع اليمين – أن يرد الحديث ردًّا مطلقًا، ويمنع العمل به في أي حال من الأحوال.

ومن الأمثلة أيضًا: ما ذكره شمس الأئمة «السرخسي» أن أبا حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ كان يُجَوِّز القضاء بشهادة مستور الحال في عهد تابعي التابعين، اكتفاءً بالعدالة الظاهرة، أما بعد هذا العصر فقد منع الصاحبان «أبو يوسف ومحمد» القضاء بشهادته، لانتشار الكذب بين الناس[279].

ويقول فقهاء الحنفية في مثل هذا الخلاف بين الإمام وصاحبه: «اختلاف عصر وزمان، لا اختلاف حجة وبرهان»[280].

وكان أبو حنيفة في أول عهد الفرس بالإسلام، وصعوبة نطقهم بالعربية، يرخص لغير المبتدع منهم بقراءة ما لا يقبل التأويل من القرآن في الصلاة باللغة الفارسية، فلما لانت ألسنتهم من ناحية، وانتشر الزيغ والابتداع من ناحية أخرى، رجع عن هذا القول[281].

ورووْا عن العلامة الفقيه «أبي محمد بن أبي زيد القيرواني» صاحب الرسالة المشهورة في فقه المالكية، وشيخ المذهب في وقته، أنه اتخذ كلبًا للحراسة في داره، فأنكر عليه بعضهم قائلًا: كيف تتخذه وقد كرهه مالك؟ فكان جوابه: لو كان مالك في زماننا، لاتخذ أسدًا ضاريًا[282]!

---

(279) «أصول السرخسي» (1/ 344، 345).

(280) «فتح القدير» لابن الهمام (5/ 422)، الناشر: دار الفكر، بدون طبعة، وبدون تاريخ.

(281) «فتح القدير» (1/ 286).

(282) «الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني» للنفراوي(2/ 344)، الناشر: دار الفكر،

وفي مذهب من المذاهب المتبوعة، يجد الباحث أمامه أمثلة عديدة تغيرت فيها الفتوى من علماء المذهب، بتغير موجباتها، من الأمكنة والأزمنة والأحوال والعوائد.

وليس هذا بِدْعًا من قائليه، معاذ الله! بل له أصل من هدي رسول الله ﷺ وأصحابه من بعده.

روى ابن أبي شيبة بسنده: أن رجلًا جاء إلى ابن عباس، فقال: ألمن قتل مؤمنًا توبة؟ قال: لا، إلى النار، فلما ذهب، قال له جلساؤه: ما هكذا كنت تفتينا، فما بال هذا اليوم؟ قال: إني أحسبه مغضبًا، يريد أن يقتل مؤمنًا، فبعثوا في أثره فوجدوه كذلك[283].

رأى ابن عباس في عيني هذا الرجل الحقد والغضب، والتوثب للقتل، وإنما يريد فتوى تفتح له باب التوبة بعد أن يرتكب جريمته، فقمعه وسد عليه الطريق، حتى لا يتورط في هذه الكبيرة الموبقة، ولو رأى في عينيه صورة امرئ نادم على ما فعل لفتح له باب الأمل.

وقد روى سعيد بن منصور، عن سفيان، قال: كان أهل العلم إذا سئلوا عن القاتل، قالوا: لا توبة له، وإذا ابتلى رجل «أي: قَتَلَ بالفعل» قالوا له: تُب[284].

وفي هذا المعنى: ما أخرجه أبو داود، عن أبي هريرة: أن رجلًا سأل النبي ﷺ عن

(1415هـ، 1995م).

(283) رواه ابن أبي شيبة في «الديات» (28326)، وقال ابن حجر في «تلخيص الحبير» (4/ 454): رجاله ثقات.

(284) «سنن سعيد بن منصور» (675).

المباشرة للصائم - فرخّص له ... وأتاه آخر، فسأله عنها، فنهاه، فإذا الذي رخص له شيخ، وإذا الذي نهاه شاب[285].

وأشهر من ذلك أن النبي ﷺ كان يجيب عن السؤال الواحد بأجوبة مختلفة؛ وذلك لاختلاف أحوال السائلين، فهو يجيب كل واحد بما يناسب حاله، ويعالج قصوره أو تقصيره.

فقد وجدنا من يسأله عن وصية جامعة فيقول له: «**لا تغضب**»[286].

وآخر يقول له: «**قل: آمنت بالله، ثم استقم**»[287].

وآخر يقول له: «**املك عليك لسانك**»[288].

وهكذا يعطي كل إنسان من الدواء ما يرى أنه أشفى لمرضه، وأصلح لأمره.

فهذا وما سبق؛ أصل في تغيير الجواب أو الفتوى بتغير أحوال السائلين.

ومن هذا ما رواه البخاري في «صحيحه»، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سئل النبي ﷺ: أي الأعمال أفضل؟ قال: «**إيمان بالله ورسوله**»، قيل: ثم ماذا؟ قال: «**جهاد في**

---

(285) رواه أبو داود في «الصوم» (2387)، وجوَّد إسناده النووري في «المجموع» (6/ 354، 355)، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (2065).

(286) متفق عليه: رواه البخاري في «الأدب» (6116)، عن أبي هريرة.

(287) رواه مسلم في «الإيمان» (38)، عن سفيان بن عبد الله الثقفي.

(288) رواه أحمد (6987)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح، وأبو داود في «الملاحم» (4343)، والحاكم في «الأدب» (4/ 282)، وصححه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في «الصحيحة» (205)، عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

سبيل الله»، قيل: ثم ماذا؟ قال: «**حج مبرور**»[289].

فجعل الجهاد في سبيل الله أفضل الأعمال بعد الإيمان.

وفي هذا المعنى جاءت أحاديث شتى تجيب السائلين بأن الجهاد لا يعدله عمل آخر، إلا من استطاع أن يصوم الدهر، فلا يفطر، ويقوم الليل، فلا ينام.

ولكن البخاري نفسه روى عن عائشة أم المؤمنين ﵂ أنها قالت: يا رسول الله، نرى الجهاد أفضل العمل، قال: «**لكن أفضل الجهاد حج مبرور**»[290]، زيدت كلمة «لكُنَّ» بضم الكاف وهو الأكثر، على أنها خطاب للنسوة، وبكسرها مع مَدِّ اللام، على أنها للاستدراك، والمراد واحد، وهو أن الجهاد إن كان أفضل العمل فذلك في حق الرجال، أما النساء فأفضل جهاد لهن الحج المبرور، فهنا تغيرت فتواه وجوابه ﷺ لَمّا كان السائل امرأة؛ إذ الشأن في حمل السلاح أن يكون للرجال. وهذا كله - وغيره كثير - أصل في تغيير الجواب أو الفتوى بتغير أحوال السائلين، فكيف إذا تغير الزمان والمكان؟

موقف المجتمع المسلم من المجتمعات الأخرى:

بهذا كله، يظهر لنا وجه المجتمع المسلم، بيّنَ الملامح، واضحَ القسمات، مميَّزًا بهذه الفضيلة البارزة في حياته، وهي: الجمع بين الثبات الذي يمنحه الاستقرار، فلا يتزحزح عن مبادئه، ولا يتحول عن أصوله، وبين المرونة التي يواجه بها سير الزمن، وسنة التطور.

---

(289) متفق عليه: رواه البخاري في «الحج» (1519)، ومسلم في «الإيمان» (83)، عن أبي هريرة.
(290) رواه البخاري في «الحج» (1520).

فهو يجمُد في بعض الأمور كالصخر، ويلين في بعض الأمور كالعجين! أو كما قال شاعر الإسلام في الهند «محمد إقبال» في وصف المسلم: «يجمع بين نعومة الحرير، وصلابة الحديد».

وعلى ضوء ما ذكرناه: نستطيع أن نتبين موقف هذا المجتمع من المجتمعات الأخرى، المخالفة له في العقيدة والوجهة والمبدأ.

إنه لا يذوب فيها، ولا يتبع أهواءها، ولا يقلدها، ويتشبه بها فيما هو من خصائصها، فيفقد بذلك أصالته وشخصيته المتميزة، ويسير وراءها شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، وهذه هي التبعية التي يرفضها الإسلام لأمته، التي بوأها الله مكان الأستاذية للبشرية كلها.

ومع هذا لا ينعزل المجتمع المسلم عن غيره من المجتمعات، بل يستطيع أن يقتبس منها، وينتفع بما لديها، من معارف وخبرات ومهارات، لا تضر بكيانه المادي والمعنوي؛ لأن العلم المحض، وما يتفرع عنه من مكتشفات وأجهزة وأدوات ومخترعات: لا جنسية له، ولا لون له.

إنه كالماء، يأخذ لون الإناء الذي يوضع فيه.

فعنصر الثبات يتجلى هنا في رفض المجتمع المسلم للعقائد والمبادئ والأفكار والقيم والشعارات، التي تقوم عليها المجتمعات الأخرى غير المسلمة وتميزها؛ لأن مصدرها غير مصدره، ووجهتها غير وجهته، وسبلها غير صراطه، فهو مجتمع متميز في المصدر، والوجهة، والمنهج، بل في السمة والشعار أيضًا.

ولهذا حرص رسول الله ﷺ على تميز المسلمين في كل شئونهم عن مخالفيهم من المشركين واليهود والنصارى، فرفض البوق والناقوس للإعلام بالصلاة، واختار

الأذان.

ووردت عبارة «خالفوهم»، في أمور كثيرة، مما يدل على أن تميز المجتمع المسلم أمر مقصود للشارع.

ولهذا جاء القرآن يحذر الرسول ﷺ مِن اتّباعِ أهواء الذين كفروا من أهل الكتاب - والمشركين، أو التأثر بدسائسهم ووساوسهم، فيفتنوه عن بعض ما أنزل الله إليه، قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ 18 إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: 18، 19].

هذا في مكة. وفي المدينة قال: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ - إلى أن قال: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: 49، 50].

وهذا هو موقف الفرد المسلم، والمجتمع المسلم من أحكام الكفار، إنه يرفضها رفضًا حاسمًا، ولا يقبل إلا أحكام الله؛ لأن من لم يقبل حكم الله، سقط في حكم الجاهلية، ولا ثالث لهما.

إن شعار المسلم إزاء كل ما يعرض عليه من مبادئ وأفكار ومذاهب: هو هذه الكلمة الموجزة: «إن كان فيها ما في الإسلام فقد أغنانا الله بالإسلام. وإن كان فيها ما يخالف الإسلام، فنحن لا نبيع ديننا بملك المشرق والمغرب».

وفي مقابل هذا الثبات: نجد مرونة وسماحة في الناحية العملية والتطبيقية في الحياة، مما يتصل بالطرائق والأساليب، لا بالمبادئ والأهداف.

فإذا كان لدى مجتمع غير مسلم نظام حَسَنٌ في تعبئة الجيوش، أو في تنظيم

المواصلات، أو في توزيع البريد، أو في تحسين الإنتاج، أو في ترقية الصناعة أو الزراعة، أو في تخطيط المدن والقرى، أو في حفظ الصحة العامة، ومقاومة الأوبئة، أو في تسخير القوى الكونية بسلطان العلم لمصلحة الإنسان، أو نحو ذلك من كل ما يتعلق بالجانب العلمي «التقني»، والإبداع المادي، والتنظيم العملي؛ فالإسلام يرحب به، ويعمل على اقتباسه في مجتمعه، بشرط ألا يصطدم بأحكام الإسلام وقد جاء الحديث: «**الحكمة ضالة المؤمن، فحيث وجدها، فهو أحق بها**»(291).

لقد رأينا النبي ﷺ يخطب على جذع نخلة في أول أمره بالمدينة، فلما كثر المسلمون، واستقر له الأمر، استُدْعي له نجار روميّ، فصنع له منبرًا من ثلاث درجات، فكان يخطب عليه في الجمعة والمناسبات. وفي غزوة الأحزاب أشار عليه سلمان الفارسي بحفر خندق حول المدينة يحميها من الغزاة المشركين، وهذا من أساليب الفرس الدفاعية، فأعجب به ونفذه، ولم يقل: هذا من أساليب المجوس، لا نأخذ به.

بل رأينا الصحابة رضي الله عنهم يقتبسون بعض التنظيمات الإدارية والمالية الصالحة من الفرس أو الروم وغيرهم، ولم يجدوا بذلك بأسًا، ما دام يحقق لهم مصلحة، ولا يصادم نصًّا ولا قاعدة، كما في نظام الخراج، وهو نظام فارسي الأصل، ونظام الديوان، وهو نظام روماني الأصل.

---

(291) رواه الترمذي في «العلم» (2687)، وقال: حديث غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وابن ماجه في «الزهد» (4169)، وقال الألباني في «ضعيف الترمذي» (506): ضعيف جدًّا، عن أبي هريرة. ولكن معناه صحيح بالإجماع.

المسلمون في العصور الذهبية:

ولقد استطاع المسلمون في العصور الذهبية أن يحتفظوا بشخصيتهم الإسلامية، ثابتين على عقائدهم وشعائرهم، وأخلاقهم وشريعتهم، وأن يقتبسوا مع هذا من مدنيات الفرس والروم والهنود وغيرهم من القدماء: ما ينفعهم ويلائم أوضاعهم، وأن ينتفعوا بتراث الإغريق «العلمي» بعد أن عرَّبوه وهذَّبوه، وأضافوا إليه، وأيَّد ذلك فقهاؤهم وأئمة دينهم، بل ساهموا وشاركوا فيه، ولم يتوقفوا إلا فيما رأوه معارضًا لعقيدتهم وفكرتهم عن الله والوجود، أو لمنهجهم الفكري. وذلك يتمثَّل في الجانب «الميتافيزيقي» من الفلسفة الإغريقية، كما تمثل في منطق أرسطو الذي عارضه جماعة من أكابر العلماء مثل: ابن الصلاح، والنووي، وابن تيمية الذي ألف في نقضه على أساس عقلي وعلمي بَحْت: كتابين صغيرًا وكبيرًا، وسبق بهذا النقض العصرَ الحديث، الذي أقام نهضته على الاستقراء، لا على القياس؛ الذي هو محور المنطق الأرسطي.

على أن من فقهاء المسلمين من نصر هذا المنطق وتبنَّاه، واجتهد أن يستدل على صحته من آيات القرآن، مثل: أبي حامد الغزالي الذي سمَّاه: «معيار العلوم». والمهم أن المسلمين كانوا في غاية من المرونة أمام الجانب العلمي بتعبير عصرنا. وكذلك الجانب الإداري والتنظيمي، والعمراني والصناعي، ولم يجدوا أي حرج ديني في اقتباس ذلك من غيرهم، والزيادة عليهم، والتفوق فيه ما استطاعوا. بخلاف الأمور الأخرى المتصلة بالفكرة والعقيدة، فقد رفضوا هذا الجانب من فلسفة الإغريق، وخطَّأوا من اعتنقه وأيده من الفلاسفة المنتسبين إلى الإسلام، بل كفرهم الغزالي وغيره في مسائل معروفة، خالفوا فيها المعلوم من الدين بالضرورة، كما يتضح ذلك في كتابه: «تهافت الفلاسفة»، وإن رد عليه العالِم الفيلسوف

القاضي ابن رشد في كتابه: «تهافت التهافت».

ولقد أثبت مؤرخو الحضارة الإسلامية أن المنهج العلمي الحديث الذي يتميز به الغرب: قد اقتُبِس من المسلمين، الذين سبقوا إلى اكتشاف هذا المنهج كاملًا قبل نهضة أوروبا بعدة قرون، وقد شهد بذلك جورج سارتون، وغوستاف لوبون، وبريفولت، وغيرهم من الغربيين المنصفين(292).

وما زال تاريخ العلم يحتفظ بأسماء لامعة لعلماء مسلمين في الطب والكيمياء والفيزياء والفلك وغيرها، كما يحتفظ بأسماء كتب علمية، ظلت مراجع عالمية فذة في موضوعها لعدة قرون.

طبيعة واضحة للمجتمع المسلم:

أحسب أن طبيعة المجتمع المسلم لم تعد خافية علينا بعد ما قدمناه من أدلة وأمثلة متنوعة من أوثق مصادر الإسلام، وبعد ما طالعنا من هدي القرآن الكريم، وهدي رسوله العظيم، وهدي الصحابة والراشدين، ومن تبعهم بإحسان من أئمة المسلمين، وفقهائه المجتهدين.

وأحسب أنه لم يعد ثمة مجال للجدل، أو التساؤل عن هذا المجتمع:

هل هو مجتمع ثابت جامد؟ أم مجتمع مرن متطور؟

فقد رأينا أنه مجتمع يلتقي فيه الثبات والتطور، كما تلتقي فيه كل المعاني

---

(292) انظر في ذلك كتاب: «مناهج البحث عند مفكري الإسلام، واكتشاف المنهج العلمي في العالم الإسلامي» للدكتور: علي سامي النشار، وانظر كذلك: «حضارة العرب» لغوستاف لوبون، فصل: مناهج العرب العلمية - ترجمة عادل زعيتر.

المتقابلة، التي يظن كثير من الناس، أن التقاءها في مجتمع واحد ضرب من المحال، أو تحليق في سماء الخيال: كالمادية والروحية، والواقعية والمثالية، والعلم والإيمان، والدين والدولة، والحضارة والأخلاق.

المجتمع المسلم مجتمع متوازن، ولهذا اجتمعت فيه المتقابلات، وأخذ كل منها مكانه بالعدل، وهذا هو وضعه بين الثبات والتطور.

إنه - كما لخصناه في مطلع هذا الفصل - الثبات على الأصول والأهداف، والتطور في الفرعيات والأساليب.

المجتمع المسلم مجتمع ثابت متحرك في آن واحد.

إنه أشبه بالنهر الجاري المتدفق، الذي لا يقف عن الحركة والتجدد والجريان، ولكن في مجرى مرسوم، واتجاه معلوم، ولغاية معروفة.

وإذا كانت طبيعة هذا المجتمع قد اتضحت وتجلت في هذا التوازن الْمُعْجِز، فإن الحكمة في ذلك قد بدت ماثلة للعيان أيضًا.

وذلك لأنه إذا اتخذ الثبات المطلق دَيْدَنه في كل الأمور، الدينية والدنيوية، المعنوية والمادية، الكلية والجزئية، الأصلية والفرعية، وثبت على الوسائل ثباته على الأهداف، تجمَّدت الحياة وتحجَّرت، ولم يستفد الناس من الملاحظة والتجربة، التي هي أساس العلم الكوني، وهي أمر واقع حتميّ في حياتهم، وهذا ضد قوانين الكون، وضد قوانين الفطرة: فطرة الإنسان، وفطرة الأشياء.

كما أنه لو اتخذ المرونة المطلقة مبدأ له، وشعارًا لحياته، لتطور على طول الزمن إلى مجتمع بلا قيم ولا ضوابط، وأفلت زمامه من يد الدين، أو يصبح الدين خاضعًا لظروفه، وتابعًا لحياته، يستقيم إذا استقامت، وينحرف إذا انحرفت. والمفروض

في الدين أن يحكم الحياة، لا أن تحكمه، وأن يُخْضِعَها لِمُثُلِه وهـداه لا أن تُخْضِـعَه لواقعها وهبوطها.

ولو لان المجتمع المسلم في أفكاره ومفاهيمـه، وأخلاقـه وتقاليـده وشرائعـه، للتطور المطلق، حسب البيئة والعصر ـ والأحـوال الطارئـة، لفقـد هـذا المجتمـع وحدته، وأصبح في كل قطر مجتمع مغـاير للمجتمعـات المنتسـبة إلى الإسـلام في أقطار أخرى، فلا توجد الأمة الواحدة التي أرادها الله، وإنما توجد أمم ومجتمعات متناقضة متباينة، كما يريد أعداء الإسلام[293].

ومن أراد أن يعرف نعمة الله على المجتمع المسلم الذي حفظ له الإسلام توازنـه بين الثبات والتطور، فلينظر إلى مجتمعات أخرى – كالمجتمعات الغربيـة اليـوم – كيف فتحت الباب على مصراعيه للتطور المطلق في كل شيء، فلم يبـقَ في حياتهـا شيء ثابت تستند إليه، وترتكز عليه، فلا عقيدة ولا فضيلة، ولا تقليد ولا تشريع، ولا أي قيمة من القيم العليا، التي ورثتها الإنسانية من كتب السماء، وتعلمتها على أيدي الهداة من رسل الله، وورثتهم بحق.

وكانت ثمرة هذا التطرف اضطراب الحياة كلهـا: مـن قلـق نفسي، إلى تخـبط فكري، إلى تحلل خلقي، إلى تفسخ أسري، إلى تفكك اجتماعي.

وقد قابل هذا التطرفَ تطرفٌ مضاد، يتمثل في أولئك الشباب الـذين رفضـوا تطور مجتمعهم إلى ما صار إليه من مادية وآلية، فاختـاروا لأنفسـهم حيـاة غريبـة شاذة مثل «الهيبيين»، ومن كان على شاكلتهم. والتطرف لا يُنْتِج إلا تطرفًا مثله.

(293) لمزيد من المعرفة بقيمة «الثبات» في نظام الإسلام ومجتمعه، انظر «خصائص التصور الإسلامي» للمرحوم سيد قطب (ص: 83 – 106).

أمران يُعَرِّضان المجتمع الإسلامي للخطر:

وإنما يتعرض المجتمع الإسلامي للخطر نتيجة لأحد أمرين:

الأول: أن يُجَمّدَ ما من شأنه التغير والتطور والحركة، فتصاب الحياة بالعقم والجمود، وتصبح كالماء الراكد الآسن، الذي يجعله الركود مرتعًا للجراثيم والميكروبات.

وهذا ما حدث في عصور الانحطاط، والشرود عن هدي الإسلام الصحيح، فرأينا كيف توقف الاجتهاد في الفقه، وتوقف الإبداع في العلم، والأصالة في الأدب، والابتكار في الصناعة، والافتنان في الحرب وغيرها ... وضُربتِ الحياة بالجمود والتقليد في كل شيء، وأصبح المثل السائر، الذي يعبر عن وجهة النظر السائدة: «ما ترك الأول للآخر شيئًا»!

على حين أخذت المجتمعات الأخرى الراكدة - التي طالما تتلمذت على المجتمع الإسلامي - تستيقظ وتنهض وتتطور، ثم تنمو وتتقدم، ثم تزحف غازية مستعمرة، والمسلمون في غمرة ساهون.

الثاني: أن يخضع للتطور والتغير ما من شأنه الثبات والدوام والاستقرار، كما نرى ونسمع في عصرنا الحديث، أن فئة من أبناء المسلمين، يريدون خلع الأمة من دينها، وعزلها عن تراثها كله باسم التطور.

يريدون أن يفتحوا الباب للإلحاد في العقيدة، والانسلاخ من الشريعة، والتحلل من الفضيلة.

كل ذلك باسم هذا الصنم الجديد «التطور».

إنهم يريدون أن يطوروا الدين نفسه، لكي يلائم ما يريدون استيراده من الشرق أو الغرب، من عقائد وأفكار، وقيم وموازين، وأنظمة وتقاليد، ومُثُل وأخلاق.

وما جعل اللّه الدين إلا ليُمْسِك البشرية أن تتدحرج وتنقلب على عقبيها؛ لهذا أوجب أن يكون الدين هو الميزان الثابت، الذي يحتكم إليه الناس إذا اختلفوا، ويرجعون إليه إذا انحرفوا.

أما أن يصبح الدين خاضعًا لتقلبات الحياة وظروفها، يستقيم إذا استقامت، ويعوجُّ إذا اعوجَّتْ، فإنه بذلك يفقد وظيفته في حياة الإنسان.

إن الإصلاح الحقيقي: أن نتفهَّم جيدًا ما يجب أن يتطور من شئون الحياة، فنبذل جهودنا لتطويره وتحسينه، بمنطق الحكماء الشجعان، لا الأغرار المقلدين.

كما نعرف ما يجب أن يبقى ثابتًا راسيًا، من القيم والأفكار، والعقائد والأخلاق، والآداب والشرائع، التي تزول الجبال الشم، ولا تزول.

بهذا الموقف الحكيم نواجه التطور ونوجِّهُه، فنفوز بالحسنيين، ونربح الدنيا، ولا نخسر الدين، ونظفر برضوان اللّه، وإعجاب العقلاء من الناس.

* * *